لطائف البيان في تفسير القرآن

تَفْسِيرُ جُزْئَيِ الشُّورَىٰ وَالأَحْقَافِ

(٢٥ - ٢٦)

العنوان: لطائف البيان في تفسير القرآن.

تفسير: جزئي الشورى والأحقاف.

تألِيف: أ.د. حسن بن محمد شبالة.

الصفحات: (٣٣٩).

الطَّبعة: الأولى، ١٤٤٦هـ - ٢٠٢٤م.

النَّاشِر: غافق للدراسات والنشر.

رقم الإيداع: الهيئة العامة للكتاب بصنعاء برقم (١٢٦) ٢٠٢٤م.

إخراج فني وإلكتروني: هشام بن حسين الأهدل.

النَّاشِر

غافق للدراسات والنشر

GAFEQ for studies and publishing

اليمن - صنعاء

gafeq.s.p@gmail.com

+967 71 71 72 770

GAFEQ.S.P

الأهدل

782 16 12 14

لطائف البيان في تفسير القرآن

تفسير جزئي الشورى والأحقاف

(٢٥ - ٢٦)

تأليف

أ . د / حسن بن محمد بن علي شبالة

أستاذ الحديث والتفسير في جامعة إب

غافق للدراسات والنشر

GAFEQ for studies and publishing

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، **وبعد:**

فإن شرف العلم بشرف المعلوم، وإن الاشتغال بتدبر القرآن الكريم وتفسيره من أقرب القربات إلى رب الأرض والسموات، خاصة إذا صلح القصد، وخلصت النيات، **وقد يسّر الله لنا** إقامة مجموعة من الدروس في تفسير عدد من أجزاء القرآن الكريم خلال السنوات الماضية في مسجد الأنصار – جوار جامعة القلم، بمحافظة إب، اليمن.

وكانت تلك الدروس عبارة عن درس أسبوعي طوال العام بين مغرب وعشاء، ودرس يومي بعد العصر في شهر رمضان، ويتم تسجيل هذه الدروس، وتُنشر في وسائل التواصل، وقد نفع الله بها كثيراً.

وقد حرصت أثناء إلقاء هذه الدروس على تقريب المعنى للسامعين ممن يحضرون الدروس من طلبة العلم وعموم الناس، واقتصرت على ذكر الراجح من تفسير معاني الآيات، وحرصت على ربطها بالواقع الذي تعيشه الأمة اليوم غالبًا، مع أخذ الدروس والعِبر منها بقدر الإمكان.

وقد اقترح عليّ بعض الأفاضل أن يتم تفريغها نصياً من قبل بعض الطلاب، وأن أقوم بمراجعتها وحذف ما لا يناسب النشر من كلمات وعبارات، وتوثيق بعض النصوص، وتخريج الأحاديث، ومن ثم نشرها مطبوعة في سلسلة

كتب ليسهل الاطلاع عليها لمن أراد الاستفادة منها، وسميته: **"لطائفُ البيان في تفسير القرآن"**.

وقد تم ولله الحمد إنجاز الكتاب الثالث من السلسلة، والذي يحتوي على تفسير جزئي: (الشورى، والأحقاف).

ويسرّني هنا أن أشكر الإخوة الذين ساهموا في تفريغ هذه الدروس وتوثيق نصوصها وراجعوها، وأسأل الله تعالى أن يجزيهم خير الجزاء، وأن يكتب لهم الأجر والثواب.

كما أنبّه القرّاء الكرام إلى أننا نفتح صدورنا لملاحظاتهم على هذه الطبعة التجريبية، فهي لن تسلم من الأخطاء، رغم حرصنا على تجاوزها، لكن العمل البشري معرّض للخطأ.

وبإمكانهم التواصل معنا عبر الواتس: (00967733700559)، **أو الإيميل:** (Shabalh220@gmail.com).

نسأل الله تعالى أن ينفع بها الجميع، وأن يجعلها في ميزان حسناتنا جميعاً، والله الموفّق والهادي إلى سواء السبيل.

المؤلف

إب الخضراء – اليمن

١ ذو الحجة ١٤٤٥هـ

تفسير جزء الشورى

(٢٥)

تفسير سورة الشورى

تفسير المقطع الأول من سورة الشورى

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ١ عٓسٓقٓ ٢ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٣
لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ٤ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن
فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ
ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٥ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم
بِوَكِيلٖ ٦ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ
فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ ٧ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ
فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ٨ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ
وَهُوَ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٩ وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ
ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ١٠﴾.

شخصية السورة:

سورة الشورى؛ سورة مكية[1]، نزلت قبل الهجرة، **ومقصدها العام** بيان

(١) وتسمى سورة حم عسق، وعسق، ينظر: روح المعاني، للألوسي (١٣/ ١١).

التوحيد والنبوة وإثبات البعث، وبيان منزلة القرآن الكريم.

وابتدأت بقوله تعالى: ﴿حمٓ ١ عٓسٓقٓ ٢﴾، وهي أحرفٌ مقطعة تشير إلى عظمة القرآن وبلاغته وأن القرآن مكوّن من هذه الأحرف، وأنكم أيها العرب الفصحاء البلغاء لم تستطيعوا أن تأتوا بشيء مثله.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٣﴾، **أي**: أن الوحي الذي أنزله الله تعالى على جميع رسله مصدرُه واحد، وليس محمد ﷺ بدعًا من الرسل، فوحي الله إلى محمد ﷺ قد سبقه وحيه إلى موسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء، والوحي هو الدين الذي جاء به ذلك الرسول، فمثلًا القرآن الكريم وأحكامُه وحيٌ، والتوراة وأحكامها وحيٌ، وهكذا باقي الكتب التي أرسلت إلى جميع الأنبياء، وإذا ذُكر الوحي في غير الأنبياء والرسل فليس المقصود به الوحي الذي في الاصطلاح الشرعي، كالإيحاء إلى النحل، وإلى أم موسى، فقد يكون إلهامًا أو غريزةً أو نحو ذلك.

وقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٣﴾، **أي**: أن الذي يوحي إلى الرسل هو الله المتصف بالعزة والحكمة، فوحيه وشرعه حق لا خلل فيه.

وقوله: ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ٤﴾، **أي**: هو المالك المتصرف في الكون كله، وهو العلي ذاتًا وقدرًا وقهرًا، والعظيم في ذاته وصفاته وأفعاله، فالعلو والعظمة صفتان مطلقتان لله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ لا يدانيها علو ولا عظمة.

ثم قال سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ﴾، **في تفسيرها**

قولان، القول الأول: توشك كل سماء من عظمته ومكانته وجلاله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن تسقط على التي تحتها، أو أن تسقط السموات فوق الأرض(١).

والقول الثاني: أن سبب تفطر السموات إنما هو بسبب ادّعاء المشركين لله الولد(٢)، أو بسبب الشرك به مطلقًا، **واستدل على ذلك بقوله:** ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ۝٨٨ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ۝٨٩ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ۝٩١﴾[مريم:٨٩-٩٠].

ولا مانع من أن يكون المعنيان صحيحين، ولا تعارض بينهما، فنثبت لكل سياق معناه الخاص به، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾، **على القول الأول**، فالسموات توشك أن تتفطر من جلال الله وعظمته تعظيمًا لله، وأما الملائكة فتعظيمهم لله يكون بالتسبيح له والحمد والثناء المطلق له، **وعلى القول الثاني:** إن السموات تتفطر بسبب الشرك لله بادعاء الولد له، فإن الملائكة في مقابل ذلك ينزهون الله من هذا القول الباطل ويثنون عليه بالحمد المطلق.

وقوله: ﴿وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، **أي:** ومن عمل الملائكة -بجوار الحمد والتسبيح تعظيمًا لله- يطلبون المغفرة من الله لمن في الأرض، وجاء اللفظ هنا على عمومه وأن الملائكة تستغفر لكل من في الأرض، **ولكن قد ورد تقييده في قوله:** ﴿وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا﴾

(١) ينظر: جامع البيان، لابن جرير الطبري (٢١/ ٥٠١).

(٢) ينظر: تفسير القرطبي (١٦/ ٤).

[غافر:٧]، فيكون طلب المغفرة للمؤمنين الذين يقعون في الخطأ والتقصير.

وقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٥﴾، **بيان** أن مصدر المغفرة والرحمة هو الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ فمن أسمائه أنه غفور رحيم سبحانه، يغفر للمذنبين رحمة بهم.

ثم قال الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ٦﴾، **الواو** استئنافية، والذين اتخذوا من دون الله أولياء هم المشركون قديمًا وحديثًا، اتخذوا لهم آلهة من دون الله، يوالونهم ويعبدونهم، فالله يرقُب أمرهم ويعلم حالهم، وهو الذي سيُعاقبهم ويحاسبهم على شركهم به، ولست يا محمد وكيلاً عليهم وضامنًا لهدايتهم.

فالوكيل بمعنى الضامن أو المتوكل بالأمر، كما قال: ﴿لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ﴾[الغاشية:٢٢]، **وقوله:** ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖ﴾[ق:٤٥]، فلن تُسأل عن أعمالهم حينما يكفرون؛ إنما أنت مُبلّغ.

ثم قال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا﴾، **أي:** كما أوحينا إلى الأنبياء والرسل من قبلك أوحينا إليك كتابًا هو القرآن، بلسانٍ عربي مبين.

فمن رحمته سبحانه بالخلق أن يرسل إليهم رسولاً من أنفسهم بلغتهم، كما **قال:** ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾[إبراهيم:٤] من أجل أن يُفهموا عنه.

وقوله: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾ لتنذر بهذا القرآن أم القرى وهي مكة، **وسميت بأم القرى؛** لأنها أكبر القرى آنذاك، وهي أصل القرى ومَجمع القرى التي حولها، والمقصود لتنذر أهلها، وتُنذر أهل من حولها من القرى الأخرى،

وهذا اللفظ لا يدل على أن الرسالة خاصة بالعرب، **بل شرف بها العرب** وبدأت فيهم، **كما قال:** ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾[الزخرف:٤٤]، وهي عامة لكل الخلق، **كما قال:** ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾[سبأ:٢٨]، **وقوله:** ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾[الأنبياء:١٠٧].

وقوله: ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾، **أي:** وتنذر الناس بهذا القرآن وتخوفهم يوم الجمع، وهو يوم القيامة، **وسمي بهذا الاسم؛ لعدة أمور: لأن** الله يجمع فيه الخلق أجمعين من آدم إلى آخر واحد يحشرهم ويجمعهم، **ولأنه** يجمعُ بين الإنسان وعمله، ويجمع بين روح الإنسان وجسده بعدما تتفرق بالموت، **ولأنه** يجمع بين المظلوم والظالم له.

وقوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، **أي:** لا شك في حصوله، وفي هذا رد على من يشكك في البعث والنشور من كفار قريش وغيرهم.

ثم قال: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ٧﴾، وسينتج عن محاسبة الله للناس في هذا اليوم أن ينقسم الناس **إلى فريقين**: فريق ذهبوا إلى الجنة وهم المؤمنون. **وفريق** ذهبوا باتجاه السعير وهم الكفار المكذبون، **والسعير** اسمٌ من أسماء النار(١)، وسُميت به لشدة حرها وسعيرها.

وقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾، **أي:** لو شاء الله مشيئة كونية لجعل الخلق كلهم على الهدى، **كما قال:** ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [الأنعام:٣٥]،

---

(١) ينظر: جامع البيان، لابن جرير الطبري (٢١/ ٥٠٤).

فيصيروا كلهم من أهل الجنة، ولو شاء الله لجمعهم على الضلال فيصيروا كلهم من أهل النار، **ولكن مشيئة الله وحكمته جعلت الخلق فريقين: فريق** يؤمن فيدخل الجنة دار الرحمة، **وفريق** يكفر فيدخل النار دار العذاب، **ولذلك قال:** ﴿وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِۦ﴾، **أي** في الإسلام ثم الجنة، فإن دخول الجنة ثمرة من ثمار رحمة الله للعبد بالهداية، كما في **الحديث القدسي عن الجنة:** **"أنتِ رحمتي أرحم بكِ من أشاء"**[1]، ثم قال: ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾﴾، **أي:** الظالمون لأنفسهم بالكفر والشرك والمعاصي ما لهم من ولي يتولاهم ولا نصير ينقذهم من عذاب الله في النار.

ثم قال الله سبحانه: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾، **في البداية قال:** ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾، على سبيل الإخبار والوصف لحالهم، **وهنا قال:** ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ﴾، على سبيل السؤال الاستنكاري لاتخاذهم وليًا يعبدونه من دون الله، كما كان يفعل المشركون بآلهتهم، وأن هذا الولي لا ينفع ولا يضر، وأن الله هو الولي الحق الذي بيده النفع والضر.

وقوله: ﴿وَهُوَ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾﴾، **أي:** الله سبحانه، فهل من أوليائكم من هو كذلك، وفيه إشارة إلى أن من أشرك بالله فلن ينتهي شركه بالموت، بل سيبعثه الله سبحانه الذي لا يعجزه شيءٌ في الأرض ولا في السماء، ويحاسبه على ذلك الشرك والكفر.

ثم قال سبحانه: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ **قال بعض أهل**

---

(١) رواه البخاري، (١٦/ ١٣٨)، برقم:(٤٨٥٠)، ورواه مسلم، (٤/ ٢١٨٦)، برقم: (٢٨٤٦).

العلم: هذا دليلٌ على أن إجماع الأمة حق؛ فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ[(١)] لم يذكر ما اتفقوا عليه، فما اتفقوا عليه فهو حق، **وفي الحديث**: **"لا تجتمع أمتي على ضلالة"**[(٢)]، وإنما أمرهم أن يرجعوا فيما اختلفوا فيه إلى الله، فالله هو المُشرِّع وهو الحَكَم الحق، ورسوله ﷺ مُبلِّغ لحكم الله، وإن اجتهد فلا بد أن يُوافقه الوحي، فإن وافقه صار حكمًا شرعيًا، فالحكم في أصله إلى الله، ولا يُستدل بهذه الآية على أنه يكفينا أن يكون المرجع القرآن فقط، لأن السنة جاءت لبيان القران، وهي وحيٌ من الله، ورجوعنا إلى السنة هو رجوعٌ إلى الله وإلى حكمه وشرعه.

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى﴾، فالذي أُمرتم بالتحاكم إليه هو ربي الذي رباني، وفيه معنى التذلل والخضوع لله المنعم على العباد، ومن معاني الربوبية إفراد الله بالمِلك والحُكم والخلق والإيجاد ونحوها.

وقوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾﴾، هذا هو نبراس الدين، **كما قال**: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾[الفاتحة:٥]، **فالإنابة**: فعل العبد، وهي العبادة، والتوكل هو الاستعانة بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وغالبًا يُجمع هذان الأمران في أكثر من آية لأهميتهما في صلاح عقيدة العبد؛ فإنه لا بد أن يقوم العبد بالعمل الصالح، وهو بذل السبب، ولا بد له من التوكل على الله، لطلب التوفيق والهداية منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

---

(١) ينظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (٧٥٣)

(٢) رواه الدولابي، في الكنى والأسماء، (٢/ ٥١٥)، برقم: (٩٣٧)، وضعفه النووي في شرح صحيح مسلم، (١٣/ ٦٧)، ورواه أبو داود بلفظ: "ولا تجتمعوا على ضلالة"، وحكم الألباني بضعفه، (٤/ ٩٨)، برقم: (٤٢٥٣).

فوائد وهدايات من هذه الآيات:

١ - أن عظمة الله سبحانه ظاهرة في كل شيء، سواءً الكتاب المفتوح وهو الكون، أو في الكتاب المقروء وهو القرآن الكريم.

٢ - أن الملائكة تدعوا لأهل الإيمان بالخير ويستغفرون لهم، وهذا من فضل الله ورحمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالخلق.

٣- أن مُهمة الرسل هي البلاغ وبيان الحق والإرشاد للناس، أما إدخال الهداية إلى قلوبهم فهي بيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

٤ - أن الناس ينقسمون في الآخرة إلى فريقين كما انقسموا في الدنيا إلى فريقين: مؤمن وكافر، في الآخرة فريق في الجنة وفريق في السعير.

٥ - أن القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة هما المرجع للمؤمنين في شؤونهم كلها وخاصة عند الاختلاف.

٦ - أن إجماع الأمة على شيء حجة.

٧- العبادة والتوكل نبراس هذا الدين، وغالبًا ما يُجمع بين هذين الأمرين في أكثر من آية لأهميتهما في صلاح عقيدة العبد واستقامته.

تفسير المقطع الثاني من سورة الشورى

﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗاۖ
يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلۡأَرۡضِۖ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١٢ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ
مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ
وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ
إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ١٣ وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ
سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي
شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ١٤ فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ
ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا
وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ١٥﴾.

قول الله تعالى: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗا﴾، **أي:** خالق السموات والأرض على غير مثالٍ سابق، وصير للإنسان زوجًا من جنسه وشكله؛ فحواء خلقت من ضلع آدم(١)، وصير الأنعام أزواجًا ذكرًا وأنثى، وهكذا سائر الحيوانات.

(١) ينظر: جامع البيان، لابن جرير الطبري (٢١/ ٥٠٧).

وقوله: ﴿يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِ﴾، **أي:** يجعلُكم تتكاثرون بسبب هذا التزاوج، ليبقى الخلق دون اندثار وانقراض.

وقوله: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١﴾، وهذه الآية أصلٌ من أصول وقواعد توحيد الأسماء والصفات، فإن الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ له الأسماء الحسنى والصفات العُلى التي تليق بجلاله جلّ وعلا، فلا يُشبهه أحدٌ من الخلق فيها، فكما لا تُشبه ذاتُه الذوات، فكذلك لا تُشبه صفاتُه الصفات.

وفي هذه الآية ردٌ على فرقتين منحرفتين في هذا الباب: فرقة المشبّهة؛ وهي التي تُشبه الله بخلقه، **فتقول مثلًا:** لله سمعٌ كسمع البشر، أو ينزل نزولًا كنزول المخلوقين، وفرقة المُعطّلة؛ وهي التي تنفي صفات الله خوفًا من التشبيه، فتقول مثلاً: الله سميعٌ بلا سمع، أو تُثبت أسماءً بدون صفات، أو تُثبت بعض الصفات فقط هروبًا من التشبيه، فأثبتت هذه الآية لله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ سمعًا وبصرًا يليق به، ونفت الشبيه والمثيل له، جلّ وعلا، **فالجزء الأول من الآية ينفي** التشبيه، **والجزء الثاني يرد** على التعطيل؛ فشرك الأسماء والصفات ناتجٌ عن تشبيه الخالق بالمخلوق، وهو أن تصف الله بما يُشابه المخلوقين.

ثم قال سبحانه: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، **أي:** بيده مفاتيح خزائن السموات من خزائن الرزق والمطر، ومفاتيح خزائن الأرض من المعادن والثمار والحبوب ونحوها.

﴿يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ﴾، **أي:** يُوسع الرزق لمن يشاء من عباده ابتلاءً حتى ينظر هل يشكرون أم يكفرون، ويُضيق في الرزق على من يشاء من

عباده ابتلاءً حتى ينظر هل يصبرون أم يسخطون، فالغني الشاكر والفقير الصابر يتنافسان في درجات الجنة.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١٢﴾، أي: لا يخفى عليه شيءٌ مما يكون فيه مصالح العباد سواءً كان ذلك بالتضييق عليهم أو التوسعة في أرزاقهم، فبعض الناس لا يصلح معه إلا الفقر، وبعض الناس لا يصلح معه إلا الغنى، والعلم والحكمة لله جلّ وعلا في ذلك.

ثم قال سبحانه: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾، أذن ورضي لكم من دين الله الخاتَم ما ارتضاه وشرعه للأنبياء السابقين كلهم.

ومفهوم الدين يحتوي على أمرين: **العقائد، وأصول العبادات وأصول الأخلاق**، فهذا الأمر كل الأنبياء متفقون عليه، وهي ما يُسمى بالكليات الخمس: حفظ الدين، حفظ المال، حفظ العقل، حفظ النسل، حفظ النفس، فهذه متفق عليها في كل الشرائع، والآية هنا تتحدث عن هذا المعنى، وفي الحديث: "**الأنبياء إخوة من علات، أمهاتهم شتى، ودينهم واحد**"[1]، أي متفقون في الأب، وهو يمثل هنا التوحيد، ومختلفون في الأمهات، وهي تمثل الشرائع.

والأمر الثاني، وهو الشرائع التفصيلية في فروع العبادات والمعاملات، وهي التي جعل الله لكل أمة شرعة تخصها، وقد ذكرت الآية خمسة رسل بالنص عليهم، وهي إحدى القرائن على أن هؤلاء هم أولو العزم من الرسل.

(١) رواه مسلم: (٤/ ١٨٣٧)، برقم: (٢٣٦٥) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقوله: ﴿أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾، **أي**: أن التزموا بهذا الدين واعملوا به وامتثلوا أحكامه، واجتمعوا عليه عملًا واعتقادًا وسلوكًا، ولا تتفرقوا في هذا الدين، فإن التفرق في الدين إنما يكون بسبب البدع، وإضافة ما ليس منه إليه، أو بترك ما هو منه، وبناءً على ذلك ستتعدد العقائد والعبادات ويتفرق الناس تبعًا لها.

وقوله: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِ﴾، **أي**: عظُم عليهم وشق عليهم أن تدعوهم إلى دينٍ واحد، وعقيدة واحدة، وإله واحد.

فإن المشركين كانوا يتعجّبون من ذلك كما قال عنهم: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ٥﴾[ص:٥]، فقد اعتادوا على أن كل قبيلة لها إله خاص بها، فكفروا بسبب هذه الشبهة وتفرقوا عن الإيمان بالله سبحانه.

وقوله: ﴿ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ١٣﴾، **أي**: يختار الله ويصطفي إليه من يشاء من الخلق؛ فيوفقه للهداية والإيمان، فإذا اختارك للإيمان فقد اجتباك واصطفاك، فاحمد الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ على هذا الاصطفاء وهذا الاختيار، **فالهداية لها طرفان، أحدهما**: عند المخلوق، **والآخر**: بيد الله، فإن أقبل العبد على الله بالإنابة، وهي الرجوع إلى الله بالتوبة والاستغفار من الذنوب؛ أقبل الله عليه وسلك به طريق الهداية.

ثم قال سبحانه: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡ﴾، نهى الأمة عن التفرق، ثم ذكر لها سبب افتراق الأمم السابقة من اليهود والنصارى، بعد أن أرسل إليهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب وفيها الحجة والبيّنة، ولكن بغى بعضهم على بعض، والبغي هو التجاوز للحدود والوقوع في ظلم الآخرين.

وقولـــــه: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾، **أي:** ولولا ما سبق في علم الله تعالى من تأخير عقوبة العباد إلى وقت محدد عنده، هو يوم القيامة لعجَّل لهم العقوبة في الدنيا، ولكن شاء الله أن يبقوا على ما هم عليه من الاختلاف إلى الأجل المسمى لحياتهم.

وقولـه: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ١٤﴾، الذين أُورثوا الكتاب هم الجيل الثاني لليهود والنصارى، فقد ورثوا التوراة والإنجيل ممن سبقهم من أسلافهم، فهم في شكٍ وريبةٍ وفي حيرة من أمرهم، بل هم مقلدون لآبائهم وأسلافهم بلا دليل ولا برهان[١]، **وقيل:** بل هم في شك وريبة من محمد ﷺ[٢]، **والأصل** أنهم ورثوا الكتاب، وفيه صفات النبي ﷺ، والبشارة به وببعثته، فكان الأولى بهم هو الإيمان به، ولكن الحسد أكل قلوبهم ومنعهم من الإيمان، فكذبوا بالرسول وكذبوا على قريش أن دينها أفضل من دينه.!! والقولان لا تعارض بينهما، بل القوم متصفين بهما معًا.

ثم قال الله سبحانه لنبيه: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ﴾، **أي:** إلى ذلك الدين القيم الذي أُمرت أن تتبعه وفيه كل أُصول الديانات المتفق عليها، فادعُ إليه وأْمر الناس باتباعه، واستقم عليه كما أمرك الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، لا تزيد عليه ولا تُنقِص منه، والاستقامة هي كمال التسديد في الفعل، وكمال التسديد في اجتناب النهي، وهي شاقة؛ **ولكن النبي** ﷺ بذل جُهدًا حتى كان كما أمره الله

---

(١) ينظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٧/ ١٩٥).

(٢) ينظر: زاد المسير، لأبي الفرج ابن الجوزي (٤/ ٦١).

سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ في ذلك، والأمر له بالاستقامة لا يعني أنه لم يكن مستقيمًا؛ ولكن المعنى: استمر على الاستقامة واثبت عليها، فأمر الثبات هام جدًا؛ لأن الهداية والاستقامة قد يحصل عليها الإنسان، ولكنه قد ينحرف عنها لسبب أو لآخر، ولذلك يخشى الصالحون على أنفسهم من الانتكاسة؛ لذا أمر الله رسوله بالثبات على الاستقامة.

وقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ﴾، **أي:** ولا تتبع يا محمد أهواء المشركين وأهل الكتاب المنحرفين، وأمره أن يعلن إيمانه بكل ما أنزل الله من كتب سابقة للقرآن وهو خطاب لرسول الله ﷺ، وأمته داخلة فيه، فالمطلوب من كل مؤمن أن يستقيم كما أُمر، وأن يُؤمن بكل كتاب أنزله الله قبل تحريفه، فيشمل كل كتاب وكل رسول، لأن الإيمان بالكتاب الذي نزل يستلزم منه الإيمان بالرسول الذي أنزل عليه.

وقوله: ﴿وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ﴾، **أي:** أمرني الله أن أعدل في الحكم بين من يأتي إليّ من الناس سواء كانوا من المسلمين أو من غيرهم من اليهود النصارى والمشركين، وهو أمر لرسول الله ﷺ بالعدل مع الخلق أجمعين.

وقوله: ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ﴾، فالله رب الخلق أجمعين، من آمن به ومن لم يؤمن، من أقبل عليه ومن أعرض، وفي هذا تقريب لنفوسهم.

وقوله: ﴿لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ﴾، **أي:** أن كل واحد يحاسب ويجازى على عمله.

وقوله: ﴿لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ﴾، **أي:** انقطع الجدال بيننا بعدما اتضح لكم

الحق، فالحجة مطلوبة لإيضاح الحق، فإذا جادلت غيرك بالتي هي أحسن واتضح له الحق، ولكنه استمر في المراء؛ فانصرف عنه، وفي الحديث: **"أنا زعيم ببيت في ربض الجنة، لمن ترك المراء وإن كان محقًا"**(١).

ثم قال الله: ﴿ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ١٥﴾، الله هو الذي سيجمع الخلق يوم القيامة وسيفصل بينهم فيما كانوا فيه يختلفون، وسيتضح في ذلك اليوم من هو على الحق ممن هو على الباطل، وهذا كله من باب التنزل مع الخصم، والخروج من المراء معه، إذْ لا فائدة من الجدال والخصام مع من لا يريد الحق، والناس كلهم صائرون إلى الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، وراجعون إليه المؤمن والكافر.

فوائد وهدايات من هذه الآيات:

١ – أن دين الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ في أصوله واحد، ما بُعثت به الرسل جميعًا أصله واحد، وهو التوحيد وأصول العبادات وأصول الأخلاق.

٢ – أهمية وحدة الكلمة وخطر الاختلاف فيها، إذا توحدت الكلمة واجتمع الناس على دينٍ واحد؛ قويت شوكتُهم واجتمعت لحمتُهم وضعُف عدوُّهم أمامهم.

٣ – أن من مقومات نجاح الدعوة إلى الله صحة المبدأ والاستقامة عليه، والعدل، والبعد عن الابتداع واتباع الهوى.

---

(١) رواه أبو داوود: (٤/ ٢٥٣)، برقم: (٤٨٠٠)، والطبراني في المعجم الأوسط: (٥/ ٦٨)، برقم: (٤٦٩٣)، وحسنه الألباني.

٤- أهمية التركيز على ما يُسمى بالمشتَرَك بين الناس، ولو تُرك المختلف فيه عند أي حوار لخف الخلاف والتناحر بين الناس.

٥- ترك الجدال العقيم إذا لم يكن هناك فائدة منه.

٦- أهمية تذكير الناس بمصيرهم، فكلنا راجعون إلى الله، والله هو الحَكَم العدل، وهو الذي يفصل بين الناس فيما كانوا فيه يختلفون.

تفسير المقطع الثالث من سورة الشورى

﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ
وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ وَمَا
يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ ﴿١٧﴾ يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ
﴿١٨﴾ ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ
ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن
نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوۡلَا
كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ
مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي
رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٢٢﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ﴾، والذين يستمرون في المحاجة وهي المجادلة والمخاصمة والمِراء الذي لا يُقصد من ورائه الوصول إلى الحق في دين الإسلام من بعد أن استُجيب له ودخل الناس فيه.

وقوله: ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾﴾، أي: باطلة وساقطة ولا قبول لها عند ربهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولا عند المؤمنين، وعليهم غضب من الله لكذبهم وافترائهم أثناء المخاصمة والمجادلة، ولهم عذاب شديد يوم القيامة بسبب إعراضهم عن الحق ومُجادلتهم بالباطل، وكفرهم بالله سبحانه.

ثم قال: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ﴾ فالله هو الذي أنزل القرآن وفيه البراهين والحُجج الصادقة، ونزّله بالحق الذي لا مِرية فيه، لإقامة الحق وإبطال الباطل، ونزّل الميزان وهو العدل والقسط، فالقرآن الكريم مليء بالحُجج والبراهين التي تدل على ربوبية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وأُلوهيته، ومليء بقوانين وقواعد العدل للحكم بها بين الناس.

ثم قال: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾﴾، وما يعلمك يا محمد فقد تكون الساعة التي يُكذبُ بها الكفار قريبة الوقوع، ومعلومٌ أن كل آتٍ قريب.

ثم بيّن موقف الناس منها، فقال: ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ﴾، هذا موقف الفريق الأول وهم من لا يؤمن بالساعة، يسأل دائمًا عنها على سبيل الاستهزاء بها، ويستعجل حصولها.

ثم ذكر موقف الذين آمنوا بها فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ﴾، فالمؤمن خائف من قيام الساعة، لأنه يُريد أن يستعد لها ويقابل الله بعملٍ صالح، ويرغب أن تأتيه الساعة وهو في أحسن حال، والذين يُؤمنون بالساعة يعلمون أن مجيئها حق، وأنها آتية لا محالة.

ثـــم قـــال: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ ١٨﴾، **أي:** يجادلون بالباطل في شأن الساعة، ويُشككون في وقوعها، فهؤلاء في ضلال بعيد عن الحق والصواب.

ثـــم قـــال الله: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ﴾، الله ذو لطـف بعبـاده المؤمنين به والكافرين به، واللطيف من أسماء الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، فهو صاحب اللطف بخلقه، فيُوصل إليهم ما لا يضرُّهم، ويفعل بهم ما يحسُن بهم، ومظاهر اللطف بخلقه كثيرة، فذكر منها هنا الرزق، فهو يعلم من يصلُح له الرزق، ومتى وكيف يرزقه، وبماذا يرزقه، ومن أين يرزقه، فمن العباد من لو رزقهم الله لبغوا، ومنهم من لو أفقرهم لبغوا، فمن لطفُه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ بهم أن يعطيهم ما يُصلح حالهم، وإذا اعتقد المسلم هذه العقيدة في الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، فسيرضى بما قسم الله له، فإنْ جعله غنيًا حمد الله وشكره، وإنْ جعله فقيرًا حمد الله وصبر.

وقولــه: ﴿وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ١٩﴾، **خـتم الله الآيـة بهـذين الاسـمين، فالقوي:** الذي لا يغلبه أحد، **والعزيز:** الذي ينتقم من أعدائه وينصر أولياءه.

ثم قال سبحانه: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦ﴾، الناس في هذه الدنيا على صنفين، صنف يعمل للآخرة وهم المؤمنون، وصنف يعمل للدنيا وهم الكافرون، فمن يعملُ للآخرة فالله يُضاعف له الثواب والأجر، **ومضاعفة الأجر أحيانًا يصل إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة كما قال:** ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾[البقرة:٢٦١]، **والمقصود بذلك** أجر أعماله الصالحة، أما موضوع الرزق فهو مقسومٌ ومكتوب للمؤمن والكافر، ولن تموت نفس

حتى تستكمل رزقها وأجلها، وليس معنى ذلك أن يحرم المؤمن من الدنيا، بل ربما يُبارك الله له في رزقه ويُعطيه من أرزاق الدنيا المتنوعة، بسبب إقباله على الآخرة، **كما في الحديث:** **"من أصبح وهمه الآخرة جمع الله له شمله، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن أصبح وهمه الدنيا شتت عليه شمله وجعل فقره بين عينيه، ولم يأتِه من الدنيا إلا ما كتب له"**[(١)]، فليست القضية أنه بالكفر سيعطى من الدنيا غير ما كتب له، ولا بالإيمان سينقص عليه من أرزاق الدنيا غير ما كتب له.

وقوله: ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ ومن يعمل للدنيا، يُؤته الله نصيبه منها، ومِن هنا تبعيضية، ولن يُعطيه الدنيا كلها، بل يعطيه ما كتب له من أرزاقها.

وقوله: ﴿وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ۝٢٠﴾، فيعطى جزاء ما عمل من خير في الدنيا، وليس له في الآخرة من حظ ولا نصيب من الأجر، إلا بالإيمان والعمل الصالح.

ثم قال سبحانه: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾، هل لهؤلاء المشركين آلهة من دون الله شرعوا لهم ديناً غير دين الإسلام، كالشرك به وتحريم ما أحل الله وتحليل ما حرم الله، وإنما فعلوا ذلك اتّباعا لأهوائهم.

---

(١) رواه أحمد في مسنده: (٥/ ١٨٣)، برقم: (٢١٦٣٠)، والدارمي: (١/ ٣٠٢)، برقم: (٢٣٥)، والترمذي، (٤/ ٢٢٤)، برقم: (٢٤٦٥)، وابن ماجة، (٢/ ١٣٧٥)، برقم: (٤١٠٥)، وصححه الألباني.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾، ولولا أن الله قدر وقتًا يفصلُ به بين العباد، لحصل لهم الهلاك والعذاب في الوقت الذي طلبوه دون أن ينتظروا إلى يوم القيامة، **ولكن سبق في علم الله أن كل أمة تأخذ أجلها إلى نهايته، كما قال:** ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[الأعراف:٣٤].

ثم قال: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾، **أي:** عذابٌ موجع شديد ينتظرهم يوم القيامة.

ثم قال الله: ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾، الشرك أكبر أنواع الظلم **ويدخل في معنى الظلم، ظلم** العباد، **وظلم** الإنسان لنفسه بالمعاصي والسيئات، **فالظالم دائمًا** يعيش خائفًا وجلاً من نزول العقاب به، بسبب ما اقترف من مظالم، حتى لو رأيته منتفخًا بما عنده من الجاه والسلطان والمال، لكنه في داخله يشعر بالخوف والوجل، وما خافوا منه سيقع بهم لا محالة؛ لأنهم ماتوا على الظلم من دون توبة، فلا ينفعهم الخوف المجرد عن التوبة، ومن شروط صحتها رد المظالم إلى أهلها، وخوفهم هذا ناتج عن آثار ذلك الظلم على أنفسهم وخوفهم من البطش بهم ممن ظلموه، وليس خوفًا وندامة من الله، ولو كان كذلك لدفعهم إلى الندامة والتوبة والرجوع، والله سيغفر لهم.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، ذكر حال المؤمنين على سبيل المقارنة بينهم وبين الظلمة المشركين، فأولئك خائفون ينتظرون الهلاك والعذاب في الجحيم والسعير، والمؤمنون في بساتين الجنات منعمون موفر لهم ما يريدون مما تشتهيه الأنفس

وتلذ الأعين، وهم عند ربهم مقربون ومكرمون.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ٢٢﴾، **ذلك**؛ إشارة إلى ما هم فيه من النعيم في الجنة، وهو فضل لا يُدانيه فضل، وسماه فضلًا؛ لأنه مِنّة من الله، وليس بجهدهم، ولا أعمالهم تستحق هذا الجزاء.!

فوائد وهدايات من هذه الآيات:

١ - خوف المؤمن من أهوال يوم القيامة يُعينه على أن يستعد لها بالأعمال الصالحة.

٢ - أن الله لطيفٌ بعباده، ولطف الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ بعباده متنوع، كإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وخلق السمع والبصر والفؤاد للعبد حتى يعرف الحق بها.

٣- أن الابتلاء قد يكون نوعًا من اللطف بالعبد؛ حتى يستعد ويتذكر الآخرة ويعمل من الصالحات.

٤ - خطر إيثار الدنيا على الآخرة، فاستمطر أرزاق الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ الدنيوية بالأعمال الصالحة والإقبال على الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ وحسن الظن به سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

تفسير المقطع الرابع من سورة الشورى

﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا
ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةٗ نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰ
عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗاۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَۗ وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ
ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ﴿٢٥﴾
وَيَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۚ وَٱلۡكَٰفِرُونَ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ ﴿٢٦﴾
۞ وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ
بَصِيرٞ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحۡمَتَهُۥۚ وَهُوَ ٱلۡوَلِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿٢٨﴾
وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٖۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمۡعِهِمۡ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٞ
﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم
بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴿٣١﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، **ذلك** اسمُ الإشارة يعود إلى النعيم المقيم الذي أعده الله لعباده المؤمنين في الجنة، وسبق ذكرُه في الآية السابقة، وهو بشارة من الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ لعباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات، بشّرهم الله به في الدنيا ليجتهدوا في الطاعة والعمل، ثم

يرونه حقيقةً في الآخرة عند مرجعهم إلى الله سبحانه.

وقوله: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا﴾، أخبر يا محمد قومك أنك لا تطلب منهم أجراً على تبليغك لهم الرسالة ودعوتهم إلى الله، وهذه العبارة تكررت في القرآن على لسان عدد من الرسل، مثل نوح وصالح وهود ولوط وشعيب، وهي قاعدة عظيمة في الدعوة إلى الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، تؤكد على مجانية الدعوة، وأن من يدعو إلى الله، إنما يدعو احتسابًا ابتداءً من الرسل عليهم الصلاة والسلام، ثم من ورثهم من العلماء والدعاة، فلم يتخذوا من الدعوة حِرفة يجمعون بها المال من الناس مقابل دعوتهم، ومن يفعل ذلك فهو يشتري بآيات الله ثمنًا قليلًا، ولفعله هذا أثر سيّء على المدعوين، فإنه يسقط من أعينهم، ويصبحون هم المتفضلون عليه، وهذا الواقع تجدونه عند المشعوذين والدجالين والسحرة وغيرهم، فأصبحوا ممتهنين لا قيمة لهم عند الناس، فأراد الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، أن ينزّه رسله وورثتهم عن هذا الحال السيّء، وجعل أجرهم على الله، وهذا الأمر يجب أن يكون واضحًا في أذهان أتباع الرسل من العلماء والدعاة وطلبة العلم، والخطورة في ذلك تكمن في أن يطلب الإنسان الأجرة ممن يعلمه دين الله، أما إن وُجد جهات مثل الحكومات التي تكفل المعلمين والدعاة أو الجمعيات الخيرية أو نحوها فهذا لا بأس به؛ لأن الأجرة ليست من الشخص المدعو نفسه وإنما تكفّل بها شخصٌ أو جهة أخرى، ولذلك يجوز أن يعطى من بيت مال المسلمين لمن يتفرغون لتعليم الناس ودعوتهم.

وقوله: ﴿إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾، **اختلف المفسرون في معناها على ثلاثة**

أقوال، القول الأول: أن الاستثناء هنا منقطع ولا علاقة له بما سبق، **والمعنى**: لا أسألكم عليه أجرًا، إنما الأجر سيكون لكم بقربكم من الله بفعل الطاعات وترك المحرمات(١).

والقول الثاني: لا أسألكم على دعوتي لكم إلى الإيمان أجرًا، فإذا لم تؤمنوا بي فلا تُؤذوني واحفظوا قرابتي فيكم، فإنه ما من بيتٍ في قريش، إلا لمحمد ﷺ فيه قرابة(٢).

والقول الثالث: لا أسألكم عليه أجرًا إلا أن تُحبوا قرابتي لقربهم مني(٣).

والاستثناء فيه متصل، وفيه إثبات نوع من الأجر المعنوي، ولذلك ضعّف هذا القول جمهور أهل العلم؛ لأنه يناقض قاعدة مجانية الدعوة.

ثم قال سبحانه: ﴿وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةً نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًا﴾، **الاقتراف هنا بمعنى**: العمل، فمن يعمل طاعة وعبادة، فإن الله يزيد له فيها حسنًا، فالحسنة لها أجرها، والحسنى، **قيل**: هي الأثر الذي يحصل في النفس من الانشراح والطمأنينة، أما الأجر فهو محفوظ في صحيفة العمل(٤)، **وقيل**: إن الحسنى هي أن الطاعة تدل على طاعة أخرى(٥)، ولا مانع من اجتماع القولين فلا تعارض بينهما.

---

(١) ينظر: زاد المسير، لأبي الفرج ابن الجوزي (٤/ ٦٥).

(٢) ينظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية (٥/ ٣٣).

(٣) ينظر: جامع البيان، لابن جرير الطبري (٢١/ ٥٢٥).

(٤) ينظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للسعدي (٧٥٧).

(٥) ينظر: تفسير ابن كثير، (٧/ ٢٠٤).

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾﴾، **غفور:** كثير المغفرة لمن تاب وأناب ورجع إليه، **وشكور** كثير الشكر لمن أطاعه وعمل صالحًا، ومن العمل الصالح التوبة، فالله يشكر العبد عليها، ويغفر له ذنوبه بسببها.

ثم قال سبحانه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾﴾، الخطاب لقريش، وهي التي قالت أن محمدًا افترى على الله كذبًا حينما جاء بالرسالة والقرآن وأنه ينسب إلى الله ما لم يقله.

و(أم) هنا بمعنى بل، فرد الله عليهم لو كان كذابًا فعلًا لختم على قلبه وحرمه من التوفيق، وجعله لا يأتي بشيء ولا يفقه شيئًا مما يقول[١]، أو لعاقبه في الحال كما قال: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾[الحاقة:٤٤-٤٦]، فدعواكم هذه غير صحيحة، بدليل أن الله لم يفعل به ما هدده به، بل أيده الله بالمعجزات، واستمر الوحي ينزل عليه خلال ثلاثة وعشرين عامًا.

وقال بعض المفسرين: إن معنى الختم هنا أن يُعطيك صبرًا قويًا إلى قلبك تصبر على أذاهم[٢]، **والقول الأول** هو الأرجح ويؤيده السياق، الذي بعده وهو قوله: ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾، **أي:** لو فعل ذلك لمحى الله ما قاله من الباطل وأبقى على الحق منه فقط، فدل ذلك على أن النبي ﷺ لم يفتر على

(١) ينظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للسعدي (٧٥٨).

(٢) ينظر: زاد المسير، لأبي الفرج ابن الجوزي (٤/ ٦٥).

الله قولًا باطلًا، لأن القرآن كله حق، **وعلى القول الثاني** أن الله يقذف في قلبك الصبر؛ فتصبر على ما اتهمت به، ثم تكون تهمتهم ودعوتهم إلى زوال، فيزيل دعوة المشركين وما افتروه عليك فلا أحد يُصدقهم، ويبقى الحق وهو ما جئت به، فيتّبعه الناس ويأخذون به، والمقصود بكلماته هنا كلمات الله تعالى الكونية، **مثل قوله للشيء**: كن فيكون، وكلماته الشرعية التي هي إرسال الرسل وإنزال الكتب وقذف الحق في قلوب الناس وإنزال التوفيق لمن شاء من خلقه حتى يؤمن، فيبقى الحق في قلوب الخلق إما بالكلمة الكونية، أو بهداية الناس إلى الحق فيبقى في صدورهم وينتشر عن طريقهم.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٢٤﴾، **عليمٌ** صيغة مبالغة من العلم، **أي**: الذي أحاط علمًا بكل ما بداخل النفوس من الأسرار والخواطر، **وسميت الخواطر** بذات الصدور، لأنها تبقى حبيسة الصدر لا تخرج، ولا يعلم بها أحد إلا الله، ثم أنت.

ثم قال جلّ وعلا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾، جاءت هذه الآية بعد ذكر ما افتراه الكفار في حق رسول الله ﷺ من الكذب، وفيها إشارة إلى سعة رحمة الله، وأنها تشمل هؤلاء المجرمين إن تابوا وأنابوا إلى الله، فإن الله يقبل توبتهم، إذا حققوا شروطها، وهي: أن تكون في موعدها، وأن يقلع عن الذنب ويندم على فعله، ويعزم على عدم العودة إليه، وأن يرد الحقوق لأصحابها أو يستسمح منهم، **وعبّر بقوله**: ﴿عَنْ عِبَادِهِۦ﴾، **ولم يقل**: من عباده، مع أن الأصل أن التوبة مقبولة من العباد، وليس عنهم، **والمعنى**: طلب منك التوبة، ثم أخذها

عنك بمثابة الوكيل عنك، وهذا فيه تحبيب للتائبين العائدين أن الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ يتولى قبول التوبة عنهم.

وقوله: ﴿وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، **التوبة هي** رجوع من العبد، وإقرار بالذنب بالشروط المعروفة، **والعفو** ثمرة من ثمارها، فلابد من التوبة حتى تُمحى آثار السيئات، وهذا في حق الكبائر؛ لأن الكبيرة تحتاج إلى توبة، **أما الصغائر** فيعفو الله عنها بالاستغفار، أو بالحسنات بعدها.

وقوله: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾، فعلمه محيط بما يفعله الناس؛ لأن بعض الناس قد يتوب توبة غير صادقة فقط يقول بلسانه أمام الناس: تبنا إلى الله، فالله يعلم الصادق من الكاذب، فلا بد من الصدق مع الله في ذلك؛ لأنه يعلم السر وأخفى.

وقوله: ﴿وَيَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦ﴾، **أي**: يستجيب لهم دعاءهم واستغفارهم، ويزيدهم في أجورهم، ويزيدهم توفيقًا في أعمالهم وانشراحًا وطمأنينة في نفوسهم.

وقوله: ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ ﴿٢٦﴾﴾، **أي**: من أصر على الكفر ولم يتب منه، فقد أعد الله له العذاب الشديد في الآخرة، وهو عذاب جهنم.

ثم قال سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ سبق أن ذكرنا أن من لطفه بعباده أنه يرزقهم، ومن لطفه أيضًا أنه يُنزل الرزق على حسب احتياجهم، فمن الناس من لو افتقر لفسد، ومن الناس من لو اغتنى لفسد، فلطفه بهذا العبد أن يمنحه رزقًا لا يُفسده، ولو جعل الله الناس كلهم

أغنياء لبغوا في الأرض؛ لأن البغي صفة مرتبطة بالغنى والثراء غالبًا، كما قال: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾[العلق:٦-٧].

وأيضًا من لطف الله تعالى بالخلق أن جعلهم أصنافًا، فلو جعل الناس كلهم أغنياء؛ لما انتفع بعضهم ببعض، ولما تحركت الحياة، وعمرت الأرض.

وقوله: ﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾، **أي:** يُنـزِّل الرزق إلى الأرض بميزان مُقدر بما يكفي الخلق.

ويجب أن يطمئن الناس أن ما في الأرض من رزق يكفي أهلها مهما بلغ عددهم، **كما قال:** ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾[فصلت:١٠]، فلا يجوز تخويف الناس بالانفجار السكاني، ولا داعي لقطع النسل، ونحوها من الدعوات المشبوهة.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ۝٢٧﴾، **الخبير** الذي يعلم دقائق الأمور، **والبصير** الذي أحاط بصره بجميع المخلوقات.

ثم قال سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾، وهو الذي ينزل المطر حين يصيب الناس حالة من القنوط بسبب انقطاع المياه عنهم، **وقد قيل** لعمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: اشتد القحط وقنط الناس، فقال: الآن يمطرون[١]، متأولاً هذه الآية، وهو سبحانه الذي يبُث رحمته في الخلق، وسواءً كانت رحمتُه هي المطر، أو هي ثمرة هذه الأمطار، من صلاح الزراعة، واخضرار الأرض، واعتدال الجو، ونحوها، فهذا كله من رحمة الله.

---

(١) ينظر: جامع البيان، لابن جرير الطبري (٢١/ ٥٣٧).

ثم قال: ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾، وهو الذي يتولى خلقه بالرزق والتدبير، وهو المحمود بأفعاله، فلا يوجد في فعله ما هو مذموم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ثم قال جلّ وعلا: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، ومن آيات الله الدالة على أُلوهيته وربوبيته، خلق السموات والأرض وما فيهما، وما بينهما.

وقوله: ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ﴾، **أي:** ومن آياته كذلك خلق ونشر كل ما يدب ويتحرك في السموات والأرض.

وقوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾، وهو قادر على جمع هذه المخلوقات بعد بثها ونشرها في البر والبحر والجو والسماء وفي كل مكان، متى شاء ذلك؛ فلا يقف دون قدرته شيء، وسيجمعهم يوم القيامة في عرصاتها.

ثم قال سبحانه: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾، هذه قاعدة عامة أن ما يُصيب الإنسان من المصائب إنما هو بسبب بعض ما اقترفته يداه، وأن المصائب التي تقع للناس إنما هي جزء يسير مما يستحقون، وأن الله يعفو عن كثير من أفعالهم؛ لأنه كريمٌ عظيم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، **وفي هذا فائدتان، الأولى:** أن يُشعرنا بخطر المعصية والذنب حتى نتركه.

والثانية: أن يُشعرنا بأن المعصية عليها عقوبتان دنيوية وأخروية حتى نتوب منها.

ثم قال: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾﴾، والخطاب عام لكل الخلق، فلو أراد الله أن يُهلكهم جميعًا، فلن يستطيعوا أن

يفلتوا مـن بطـشه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فهـو سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ قـادر علـيهم ومحـيط بهـم، ولـيس للخلق من دون الله ولي ولا نصير ينصرهم أو يرد عنهم بطشه وعذابه –جلّ وعلا–.

فوائد وهدايات من هذه الآيات:

١ – مجانية الـدعوة، وأن الـداعي إلـى الله لا يبتغـي الأجـر مـن عنـد النـاس، وإنما من الله.

٢ – أن التوسيع في الـرزق والتـضييق فيـه علـى الخلـق، خاضـع لحكمـة الله سبحانه، وقد تخفى هذه الحكمة على الناس، ولذلك قد يسخط بعضُ الناس من الفقر ويظن أن الله لم يُكرمه.

٣– أن الذنوب والمعاصي سبب من أسباب المصائب التي تنزل بالخلق.

تفسير المقطع الخامس من سورة الشورى

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظۡلَلۡنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهۡرِهِۦٓۚ
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوۡ يُوبِقۡهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعۡفُ عَن كَثِيرٖ ﴿٣٤﴾ وَيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ
يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ ﴿٣٥﴾ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ
وَأَبۡقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا
غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ
يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ
فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾
إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ
﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤٣﴾ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيّٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ
وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ يَقُولُونَ هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ ﴿٤٤﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ ﴿٣٢﴾﴾، **من العلامات الدالة والآيات التي تدل على قدرته وربوبيته** سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ جريان السفن الكبيرة في البحر، فالجوار المقصود بها السفن التي تجري على سطح البحر، كالجبال في ارتفاعها وعلوها، وهي تجري بقدرة الله بواسطة الريح الهادئة الطيبة التي

تتحرك، وتسوق السفن على سطح البحر مع عظم حجمها، وهذه هي الحالة الأولى من أحوال الريح.

وقوله: ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾، فلو أراد الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ أن تسكن الريح ولم تتحرك لبقيت تلك السفن راكدة على سطح البحر ولم تجر، وهذه هي الحالة الثانية من أحوال الريح.

وقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾﴾، وفي ما سبق ذكره بينات وحجج ينتفع بها من كان كثير الصبر على البلاء والمِحن، كثير الشكر على النعم.

ثم قال: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾، **وهذه هي الحالة الثالثة من حالات الريح**، وهي التي تكون ريحًا عاصفة؛ فتؤدي إلى إغراق السفن وهلاك من عليها، بسبب ما كسبته أيدي الناس من الإثم والعدوان والظلم والذنوب والمعاصي، والغالب أن الله يعفو عن كثير من ذنوب العباد، ولا يؤاخذهم بكلها، وإنما يُنبههم بين الحين والآخر ببعض هذه المصائب لعلهم يرجعون عنها ويتوبون منها.

ثم قال سبحانه: ﴿وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾﴾، عند حصول هلاك الله للسفن ومن فيها في البحر بريح عاصفة؛ سيعلم الكفار الذين يجادلون في آيات الله، من هو الذي يُسير هذه السفن ومن هو الذي ينجي الناس في البر والبحر، **وسوف يعترفون بعظمة الله وقدرته وأُلوهيته، كما قال:** ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[لقمان:٣٢]، ويعلمون أنه لا مفر

ولا مهرب عن الهلاك؛ إلا بدعائهم له وحده لا شريك له، فإذا نجاهم إلى البر عادوا إلى الشرك مرة أخرى.

ثم قال جلّ وعلا: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾﴾، هذا بيان لحقارة الدنيا وأنها لا تساوي شيئًا أمام الآخرة، وجاء لفظ شيء في سياق النفي، ليفيد العموم، فمهما عظم هذا الشيء الذي حصلت عليه في الدنيا من مال ومنصب وجاهٍ وغيرها من النعم؛ فهو لا يقارن بما عند الله من خير في الآخرة، بل سماه متاعًا، وهو الشيء الزائل المنقطع الذي لا يستمر كثيراً، وما عند الله من خير في الآخرة، هو الجنة وفيها من نعمٍ عظيمة ورضوان من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على أهلها وهم المؤمنون المتوكلون على الله الذين يعتمدون عليه ويُفوضون أمرهم إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

أما من لم يكن مؤمنًا، فما عند الله له شرٌ وأعظم، وتكون الدنيا نعمة وجنة له، **كما في الحديث:** **"الدنيا سجن للمؤمن، وجنة الكافر"**[(١)]، لأنه سيذهب إلى نارٍ تلظى.

ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾، **وهذه الصفة الثالثة من صفات أهل الجنة،** أنهم يبتعدون عن كبائر الذنوب وقبائحها، مما يتعلق بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أو يتعلق بالمخلوقين، وكلاهما من الكبائر، كالشرك والرياء والزنا والربا ونحوها من الذنوب والمعاصي التي يقبُح فعلُها، وهذا يعني أنهم ليسوا معصومين من الصغائر، وأن ترك الصغائر ليست من شروط الإيمان

(١) رواه مسلم: (٤/ ٢٢٧٢)، برقم: (٢٩٥٦)، عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الكامل، ولكن الإصرار عليها هو الذي يُؤثر على حال العبد، وإلا فهي لازمة للعبد، لا يسلم منها أحدٌ إلا من عصمه الله تعالى من الأنبياء والرسل.

وقوله: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾، **وهذه هي الصفة الرابعة لهم،** فإذا أساء إليهم أحد فأغضبهم سارعوا إلى العفو عنه، ومحو زلته، وهذا يدل على حسن أخلاقهم، وأنهم وصلوا إلى مرتبة عالية من ترويض النفس على الخير والإحسان والخلق الجميل.

ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ﴾، **وهي الصفة الخامسة لهم،** أنهم قد استجابوا لأمر الله، وسارعوا إلى الإيمان به، وفعل الطاعات، وترك المحرمات، بشكل عام.

وقوله : ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، وهي الصفة السادسة لهم، ومع أن الاستجابة تشمل كل ما يأتي بعدها، إلا أنه ذكر هنا الصلاة لأهميتها، وإقامة الصلاة أن تُؤديها كاملة بأركانها وشروطها، والمقصود بها الفرائض وما يلحق بها من النوافل.

وقوله: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ وهذه الصفة السابعة من صفاتهم، وهي صفة تتعلق بطريقة التعامل بين الناس المؤمنين، وهي من الصفات الجماعية للشخص، وهي عكس الصفات الفردية كالانفراد والأنانية والاعتزال ونحوها، فهو يُشاور إخوانه المؤمنين فيما يهمهم جميعًا، وقد ذُكرت هذه الصفة في صفات الأفراد في الفترة المكية والناس ما زالوا مشردين ليس لهم دولة ولا مكان لإقامتها، فدل ذلك على أن الشورى صفة تشمل الأفراد، كما تشمل أيضًا

الجماعة، وأن الشورى ليست صفة خاصة بالحكم، بل صفة شخصية للفرد في نفسِه، هل هو أناني منفرد برأيه، أم شخص يُشاور ويستفيد من آراء الآخرين ويهمه مصلحة البلاد والعباد؟!!

وقوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾﴾، وهذه هي الصفة الثامنة لهم، فهم ينفقون مما رزقهم الله، ويدخل في ذلك أداء الزكاة الواجبة والصدقة المطلقة.

ثم قال: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾، وهذه هي الصفة التاسعة لهم، ومعناها أنهم يدفعون عن أنفسهم البغي ولا يقبلون الذلة من عدوهم، **ولا تعارض بينها وبين صفة:** ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾، فهذه تكون في حالة أن يكون الباغي لا يستحق العفو، فالبعض إذا عُفي عنه ازداد سوءًا، فلا بد أن يُؤدب، أو أن يكون البغي هو الاعتداء على النفس على المال على العرض، فلا بد أن يُنتصَر منه، بينما الإغضاب قد يكون أموراً خفيفة، وعبّر هنا بالانتصار ليدلك على أن المقابلة هنا هي حقٌ مشروعٌ لك.

ثم قال: ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾، **يعني:** إذا أصابك البغي فانتصرت؛ فردّ السيئة بمثلها ولا تزد عليها، وسمى الرد سيئة مع أن المبتدئ المعتدي هو الذي أساء؛ لأن الأصل في السيئة أنها تسوءُ من تقع عليه سواء كانت متعدية أو قاصرة، فاسمها سيئة وليست حسنة، وإنما جاز لك أن تفعل به مثل ما فعل بك فقط، ويتجاوز عن الزيادة القليلة والنقص القليل.

وقوله: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾، وهذا أفضل من الرد على المسيء، وذكر الصلح مع العفو ليبين أنه ليس كل عفو مناسبًا، بعض الناس لما تعفو عنه

يزداد سوءًا، **والمعنى**: إن كان العفو فيه صلاح للمعفي عنه؛ فافعله، واحتسب الأجر من الله، وإلا فلا تعفُ، وهذا تحفيز للعافي أن أجره على العفو سيكون من الله، والله سيُكرمُك فافعل.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٠﴾، **أي**: الذين يتجاوزون في رد السيئة بأكثر منها، فهم ظالمون بهذا الفعل، والله لا يحب الظالمين، فبيّن أن المعتدى عليه له ثلاث حالات: إما أن يعفو وأجره على الله، وإما أن يرد السيئة بمثلها ويأخذ حقه، وإما أن يتجاوز في الرد فيقع في الظلم، فالأولى مرتبة عليا، والثانية مشروعة، والثالثة محرمة.

ثم قال سبحانه: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ۝٤١﴾، ومن رد السيئة عن نفسه بمثلها فلا حرج عليه، **ولا يُقال عنه**: إنه معتدٍ، بل يُقال عنه: إنه انتصر ممن ظلمه، ولا مؤاخذة عليه.

وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾، إنما المؤاخذة تكون على الظالمين الذين يظلمون الناس، والظلم هو: وضع الشيء في غير موضعه، أو أخذ حقوق الآخرين، والبغي هو تجاوز الحدود، والفساد في الأرض بالمعاصي والمنكرات.

وقوله: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾، **هل هناك بغيٌ بالحق؟ وبغيٌ بغير الحق؟**

نعم، فمن رد على من بغى عليه، وأخذُ حقه منه فهو بغي بالحق، ومن اعتدى على غيره ابتداءً فهذا بغي بغير حقٍ.

وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٤٢﴾، اسم الإشارة عائد إلى من يظلم الناس ويبغي في الأرض بغير حق وماتوا بدون توبة، هدد الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ بأنه سيُعذبهم عذابًا أليمًا في الآخرة.

ثم قال: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ٤٣﴾، يجوز لك أن ترد الاعتداء وأن تُجازي السيئة بالسيئة، ولكن الأفضل والأحسن لك أن تصبر وتُسامح وتعفو عمن أساء إليك، ففعلك هذا من الأمور الحسنة التي تعود على المجتمع بالخير والنفع، وتعود عليك بالأجر والثواب، **وعزائم الأمور هي:** أفضلها وأحسنها وأطيبها، ولا يوفق لذلك إلا من كان ذو حظٍ عظيم، **كما قال:** ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ٣٥﴾[فصلت:٣٥].

ثم قال سبحانه: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيّٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦ﴾، ومن يخذله الله بسبب شروده وإعراضه عن الخير، فلا يوجد من يمنح هداية التوفيق غير الله سبحانه.

تنبيه: كل الآيات التي تتحدث عن ضلال البشرية، تبين أن سببه هو الإنسان نفسه، فقد أرسل الله الرسل وأنزل الكتب وجعل له سمعًا وبصرًا وعقلًا وبيّن له طريق الحق وطريق الشر، ومع هذا يُعرض ويتنكب الطريق، فضلاله كان بسبب إعراضه، فحرمه الله هداية التوفيق، أما هداية الإرشاد فقد منحها لكل الخلق حتى لإبليس، وبهذا نعلم بطلان قول فرقة الجبرية، والتي تقول: بأن الله يجبر الناس على الكفر والمعاصي، فالله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ لا يجبُر أحدًا، بل بيّن له الطريقين ثم تركه يختار طريق الهداية أو طريق الضلال فإن اختار الهداية زاده

هدى، وإن زاغ وأعرض أزاغ الله قلبه، جزاءً وفاقاً.

وقولـــه: ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ يَقُولُونَ هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ ٤٤﴾، وهذه رؤية بصرية حقيقية، تُشاهدها يوم القيامة حينما يقف الظالمون على شرُفات النار وينظرون فيها، وقد عرفوا أنهم إليها سائرون، يقول بعضهم لبعض: هل هناك إمكانية أو فرصة تمنح لنا حتى نرجع إلى الدنيا فنتوب ونؤمن؟! وهنا يتبين لهم أنهم كانوا في ضلال مبين، ولكن لا فائدة من الاعتراف الآن، فلا مجال للرجعة، فقد انتهت الحياة، وقامت القيامة، وجاء موعد الحساب.!!

فوائد وهدايات من هذه الآيات:

١ – الصبر والشكر سببان من أسباب الاعتبار بآيات الله، فمن وفقه الله وأعطاه هاتين الصفتين منح الفهم لآيات الله، وأنار الله قلبه وصيرته للحق.

٢ – مكانة الشورى في الإسلام، وأنها صفة شخصية للإنسان العادي، قبل أن يكون حاكما وولي أمر للمسلمين.

٣ – أهمية العفو عن المسيء، وأنها صفة طيبة؛ لأنها تخلّق بأخلاق الله، ومن فعل ذلك مع الخلق فعل الله معه مثله.

٤ – جواز مؤاخذة الظالم بمثل ظلمه دون اعتداء أو زيادة، والعفو والصفح أفضل منه وهو أحاسن الأمور ومحامدها التي ينبغي أن يتخلق بها المسلم.

تفسير المقطع السادس من سورة الشورى

﴿وَتَرَىٰهُمۡ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٖ مُّقِيمٖ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنۡ أَوۡلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ٱسۡتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۚ مَا لَكُم مِّن مَّلۡجَإٖ يَوۡمَئِذٖ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٖ ﴿٤٧﴾ فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ فَرِحَ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞ ﴿٤٨﴾ لِّلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗاۖ وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٞ قَدِيرٞ ﴿٥٠﴾ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٞ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖ﴾، يخبر الله عن الظالمين، وهم المشركون، أنهم سيعرضون على

النار أذلاء خائفين مهانين، بسبب ما اقترفوه من الكفر والعصيان، ينظرون إلى النار نظرات مختلسة، وهذه حالُ من يتعرض للإهانة والعذاب ينظر إلى وسيلة تعذيبه خِلسة، وهكذا الكفار حين ينظرون إلى النار لا يريدون أن يروها بكل حدقة عيونهم؛ لأن فيها ما تشيب له الولدان من أصناف العذاب والنكال.

وقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾، وحين يشاهد المؤمنون هذا المنظر يقولون: هذا هو الخسران الحقيقي، وليس الخسران ما حصل لنا من ذهاب بعض أموالنا أو تعبنا في الدنيا، تلك ابتلاءات قد عوضنا الله غيرها في جنات النعيم، بل الخاسر الحقيقي هو من خسر نفسه وأهله يوم القيامة في ذهابهم إلى النار؛ أما خسارة الدنيا، فإنها تُعوض.

وقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٖ مُّقِيمٖ ٤٥﴾، وبعد إلقائهم في النار لن يخرجوا منها، بل سيذوقون فيها العذاب الدائم الذي لا ينقطع.

ثم قال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنۡ أَوۡلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، ذهب عنهم الأولياء والشركاء الذين كانوا يعبدونهم من دون الله في الدنيا، ولم يأتوا لإنقاذهم من النار التي وقعوا فيه يوم القيامة.

وقوله: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ٤٦﴾، ومن يخذله الله عن اتباع الحق بعد أن استبان له واتضح له بإرسال الرسل وإنزال الكتب؛ فما له من مخرج من النار ولا طريق للنجاة.

هذا الكلام تصويرٌ لما سيتم يوم القيامة، عرضه الله علينا كأننا نراه.

ثـــم قـــال الله: ﴿ ٱسۡتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ﴾، استجيبوا لله أيها الناس الذي خلقكم ورباكم، بالإيمان به وتوحيده واتباع رسله، من قبل أن يأتي اليوم الذي لا دافع له من الله، وهو يوم القيامة، فهو آتٍ لا محالة، مهما أنكره المنكرون وشكك فيه المشككون؛ فاستجيبوا الآن قبل أن تموتوا، وتقفوا بين يدي الله وتتمنوا العودة إلى الدنيا لتؤمنوا.

وقوله: ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلۡجَإٖ يَوۡمَئِذٖ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٖ ﴿٤٧﴾﴾، فإذا متم على الكفر ووقفتم بين يدي الله، فلا ملجأ لكم تلجؤون إليه غير الله، ولا تستطيعون أن تُنكروا ما فعلتم من القبائح، **ولو أنكرتم بألسنتكم؛ ستشهد عليكم باقي الأعضاء، كما قال:** ﴿ ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم ﴾ [يس:٦٥]، فما أمامكم إلا الاعتراف والعقوبة.!!

ثـم قـال سـبحانه: ﴿ فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ ﴾، فإن أعرضوا عن الاستجابة لك يا محمد، والإيمان بك فما أرسلناك لتحفظ أعمالهم، بل مهمتك البلاغ المبين لهم.

وقولـه: ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ فَرِحَ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞ ﴿٤٨﴾﴾، وهذه طبيعة الإنسان أنه يفرح بالنعم ويرغب بالتمتع بها في الدنيا، والرحمة هنا عامة تشمل كل النعم، وإذا أصابته السيئة؛ لا يصبر عليها، والسيئة هنا عامة، تشمل كل النقم والمصائب من الأمراض والأسقام والفقر ونحوها، التي تصيبه بسبب عمله السيء، فيكفر بنعم الله الأخرى، ولا يشكر الله عليها، وينظر فقط إلى نقطة الابتلاء وينسى بحر النعم،

وهذا من طبيعة الإنسان، فإنه جَحود للنعمة، إلا من هذب نفسه بالإيمان والتقوى والصلاح، فإنه يعرف حق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليه ويشكره.

ثم قال سبحانه: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾، بيّن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن له ملك السموات والأرض، وما دام الملك ملكه، وأنتم أيها الخلق من مُلكه؛ فلا تعترضوا على الله في ما يخلفه.

وقوله: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾﴾، يُعطي بعض الناس ذرية من الإناث فقط، ولا يُعطيهم ذكوراً، فهذا أمر الله، فليحمدوا الله وليرضوا بما قسم الله لهم، ويعطي بعض الناس ذرية من الذكور فقط، ولا يُعطيهم إناثًا، وهذا أمر الله، فليحمدوا الله وليرضوا بما قسم الله لهم، ويعطي بعض الناس ذرية من الذكور ومن الإناث، وهذا أمر الله، فليحمدوا الله وليرضوا بما قسم الله لهم، **والصنف الرابع من الناس:** من حرم الذرية كلها، فلا أولاد له لا ذكوراً ولا إناثًا، وقد أصيب هو أو زوجتُه بالعقم، وهو عدم القدرة على الإنجاب، وهذا أمر الله، فليحمدوا الله وليرضوا بما قسم الله لهم، ولو تفكرنا في الرسل وهم أكرم الخلق على الله؛ لوجدنا هذه الأصناف موجودة فيهم، **فلوط** عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كانت ذريته من الإناث فقط، **وإبراهيم** عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كانت ذريته من الذكور فقط، **ونبينا** محمد ﷺ كانت ذريته من الذكور والإناث، ولكن الذكور ماتوا في حياته كلهم، **وعيسى** عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ **وكذلك يحيى** عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لم يكن لهما أولاد لا ذكوراً ولا إناثًا، فهم من الصنف الرابع، فعلى الإنسان أن يرضى بما أعطاه الله.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ۝٥٠﴾، فهذا الذي يدبره الله للخلق ليس عن جهل ولا ضعف، بل عن علم مطلق، وقدرة تامة، فلا شيء يقف أمام قدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، الذي يقول للشيء كن فيكون.

ثم قال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾، من صفات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أنه بائنٌ من خلقه، مستوٍ على عرشه، ليس بينه وبين الخلق اختلاط؛ ولا يصح للبشر أن يكلموا ربهم وجهًا لوجه إلا في الآخرة؛ لأنه خبّأ لهم هذه النعمة العظيمة وخص المؤمنين بها دون غيرهم، كما قال: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[يونس:٢٦]، فالحسنى الجنة، والزيادة هي النظر إلى وجه ربهم الكريم سبحانه، وهي أعظم نعمة في الجنة.

وقد طلب موسى من ربه النظر إليه، فقال له: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾[الأعراف:١٤٣]، لأن خِلقة البشر في الدنيا، لا تستطيع أن تستوعب رؤية الله جل وعلا العظيم، بل أوحى إليهم بواحدة من هذه الوسائل الثلاث، وهي، الأولى: أن يقذف في قلبه ما أراد من الوحي، كما في الحديث: "**إن روح القدس نفث في روعي: إن نفسا لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب**"(١)، أي: ألقى في قلبه ونفسه.

والثانية: أن يكلمه من وراء حجاب، كما حصل لمحمد ﷺ ليلة المعراج، وفرض عليه الخمس الصلوات، وكما كلم موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، في قوله: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء: (١٠/ ٢٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع: (١/ ٤٢٠)، برقم: (٢٠٨٥).

رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ﴾[طه:١٢].

والثالثة: أن يُرسل رسولًا بالوحي، وهو جبريل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، فقد أرسله إلى سائر الأنبياء.

وقوله: ﴿فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾، أن يُوحي الله بإذنه ما يريده من الأحكام، فيوصله جبريل إلى الأنبياء.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٞ ٥١﴾، **أي:** عليُّ المكانة، وعليُّ القدر، وعليُّ الذات، وحكيم في أفعاله فيضع الشيء في موضعه.

ثم قال جلّ وعلا: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَا﴾، كما أوحينا إلى الرسل من قبلك؛ أوحينا إليك هذا القرآن، وسماه روحًا؛ لأن به تحيا النفوس، كما أن الأجساد تحيا بالأرواح، فالله لما خلق آدم من طين نفخ فيه من روحه، فصار حيًا، وهكذا أثر القرآن في النفوس.

وقوله: ﴿مِّنۡ أَمۡرِنَا﴾ **أي:** بأمر الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، سواءً كان أمرُه الشرعي أو أمره الكوني.

وقوله: ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾، لم تكن قبل البعثة تعلم ما هو القرآن الذي أوحينا إليك به، ولا كنت تستطيع أن تكتب، **فقد كان** ﷺ أميًا لا يقرأ ولا يكتب، ولا كنت تعرف ما الإيمان الكامل التفصيلي الواجب عليك، لأن محمداً ﷺ لم يكن مشركًا قبل البعثة، بل كان على بقايا من دين إبراهيم الخليل، ولم يسجد لصنم، ولم يقع فيما وقعت فيه الجاهلية من الشرك، فكان

عنده شيءٌ من الإيمان المجمل، أما الإيمان التفصيلي الكامل فقد جاءه بعد إنزال القرآن عليه ﷺ.

وقوله: ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ﴾ أي: جعلنا القرآن سبباً لنور الإيمان الذي يُقذفه الله في القلب، يهتدي به من شاء الله له الهداية، كما قال: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾[الزمر:٢٢].

ثم قال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾،أي: تدل وترشد الخلق إلى طريق مستقيم، وهو الإسلام الموصل إلى الجنة.

هل يوجد تعارض بين هذه الآية وبين قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص:٥٦]؟ الجواب: لا يوجد تعارض، لأن الهداية نوعان: هداية دلالة وإرشاد، وهذه بيد الأنبياء والرسل، وتحصل للعبد بالقراءة والاطلاع والسؤال والاستفسار ومعرفة الحق من الباطل، وهداية التوفيق وهذه بيد الله سبحانه يمنحها لمن يشاء.

ثم وصف الله الصراط المستقيم، بقوله: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، فهو منهج الله وشرعه- سبحانه - وقد أرسل الرسل وأنزل الكتب لتدل الناس إليه، لأنه هو الخالق المالك المدبر المتصرف في خلقه، وعليهم أن يسيروا منهجه وشرعه الذي دعاهم إليه.

وقوله: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾، فالأمور كلها تعود وترجع إلى الله سبحانه، وهو الذي يحكم فيها.

فوائد وهدايات من هذه الآيات:

١- وجوب المسارعة إلى امتثال أمر الله تعالى واجتناب نهيه والاستجابة له قبل الموت.

٢- أن مهمة الرسل هي البلاغ المبين، وأن الهداية للخلق بيد الله، يمنحها من يشاء.

٣- أن من طبيعة الإنسان أنه يفرح بالنعم، ويرغب بالتمتع بها في الدنيا، وإذا أصابته المصائب قنط وجحد نعم الله الأخرى، إلا من هذب نفس بالإيمان والتقوى والصلاح، فإنه يعرف حق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليه، ويشكره على كل نعمه، ويصبر على نقمه.

٤- أن الله يوحي إلى أنبيائه بطرقٍ شتى لحكمٍ يعلمها سبحانه، وما أوحاه إليهم يمثل الروح الذي تكون به حياة البشرية وهدايتها.

٥- أن الهداية التي نسبت إلى الرسل عليهم السلام، هي هداية الإرشاد، وأما هداية التوفيق فهي بيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يمنحها من يشاء.

تفسير سورة الزخرف

تفسير المقطع الأول من سورة الزخرف

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ (١) وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ (٢) إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ (٣)
وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ (٤) أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا أَن
كُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّسۡرِفِينَ (٥) وَكَمۡ أَرۡسَلۡنَا مِن نَّبِيّٖ فِي ٱلۡأَوَّلِينَ (٦) وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُواْ
بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ (٧) فَأَهۡلَكۡنَآ أَشَدَّ مِنۡهُم بَطۡشٗا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلۡأَوَّلِينَ (٨) وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ
خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ (٩) ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا
وَجَعَلَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ (١٠) وَٱلَّذِي نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ فَأَنشَرۡنَا بِهِۦ
بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ (١١) وَٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡفُلۡكِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مَا
تَرۡكَبُونَ (١٢) لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ رَبِّكُمۡ إِذَا ٱسۡتَوَيۡتُمۡ عَلَيۡهِ وَتَقُولُواْ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي
سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ (١٣) وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ (١٤) وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنۡ عِبَادِهِۦ جُزۡءًاۚ
إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ مُّبِينٌ (١٥) أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخۡلُقُ بَنَاتٖ وَأَصۡفَىٰكُم بِٱلۡبَنِينَ (١٦) وَإِذَا بُشِّرَ
أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحۡمَٰنِ مَثَلٗا ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٌ (١٧) أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي
ٱلۡحِلۡيَةِ وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٖ (١٨) وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًاۚ
أَشَهِدُواْ خَلۡقَهُمۡۚ سَتُكۡتَبُ شَهَٰدَتُهُمۡ وَيُسۡـَٔلُونَ (١٩) وَقَالُواْ لَوۡ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُمۗ مَّا لَهُم
بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ (٢٠)﴾.

شخصية السورة:

سورة الزخرف؛ سورة مكية بالإجماع[١]، نزلت قبل الهجرة، وسميت بهذا الاسم لحديثها عن زخارف الدنيا، **ومقصدها العام**: بيان المبادئ القرآنية الصحيحة، ونقض التصورات الجاهلية الزائفة.

ابتدأت بقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿حمٓ ①﴾، وهما حرفان من حروف لغة العرب التي نزل بها القرآن، ومع ذلك كان معجزًا للعرب فلم يستطع أحدٌ أن يأتي بشيءٍ من مثله.

ثم قال سبحانه: ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ②﴾، **الواو** هنا واو القسم، **والكتاب** مقسمٌ به، والمقصود به القرآن الكريم؛ لأنه مُبيِّنٌ لشرع الله واضحٌ في دلائله وبراهينه، **وجوابُ القسم، هو قوله**: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا﴾، حيث أنزل الله تعالى هذا القرآن بلسانٍ عربي، ومحمد ﷺ من أوسط العرب.

وقوله: ﴿لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ③﴾ **أي**: لكي تعقلون وتفهمون أحكامه، فلو نزل بلغة غير لغة العرب، **وأُعطي للعرب لقالوا**: كيف نفهمه، وهو ليس بلغتنا، فجعله الله حجةً عليهم وأنزله بلغتهم.

وقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ④﴾، **أي**: وإن هذا القرآن الكريم في أم الكتاب، وهو اللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض، وله عند الله مكانة عالية من الشرف

(١) ينظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية (٥/ ٤٥)، وروح المعاني، للألوسي (١٣/ ٦٣).

والقدر، وهو مُحكَمٌ لا تناقض فيه ولا اختلاف، ولا يتطرق إليه الخلل ولا الزيادة ولا النقصان.

ثم قال سبحانه مخاطبًا كفار مكة: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ۝٥﴾، أي: هل تتوقعون أن ندع إنزال القرآن عليكم، وإنذاركم وتخويفكم ودعوتكم إلى التوحيد بسبب انغماسكم في الشرك والكفر؟! وهو سؤال استنكاري، بل رحمة الله تعالى تقتضي عكس ذلك، وكلما كان الإنسان شاردًا عن الله؛ فوعظه وإرشاده وتذكيره أولى من تركه، فهو محتاج إلى من يرده إلى جادة الصواب، والمسرف هو الذي يُكثر من فعل القبائح من الشرك والظلم ونحوها.

ثم قال سبحانه: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦﴾، في هذه استكمال لبيان القاعدة السابقة، وهي: أنه كلما كان الإنسان منحرفًا؛ كانت الحاجة إلى رده إلى جادة الصواب أبلغ، والمعنى: قد سبقكم إلى الانحراف والفساد والإسراف كثير من الأمم، فما تركناهم، بل أرسلنا فيهم أنبياء كثُر لكي يردوهم إلى الحق.

وقوله: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٧﴾، وكان حالهم أنهم لم يُؤمنوا بل أعرضوا واستهزأوا وكفروا بأولئك الأنبياء الذين أتوا لينقذوهم من الكفر والانحراف.

وقوله: ﴿فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾، فأهلك الله كل من كفر واستهزأ بالرسل من الأمم السابقة التي كانت أشد منهم قوةً وفجوراً وفساداً في الأرض،

فلم تمنعنا قوتهم من أن نهلكهم؛ لأن الله لا يعجزه شيءٌ.

وقوله: ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٨﴾، أي: وقد سبق أن قصصنا عليكم طريقة هلاكهم، والمثل هنا السيرة والطريقة.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٩﴾، ولئن سألت يا محمد كفار قريش: من خلق السموات والأرض؟، لأجابوك: إن الخالق لها ولهم هو الله العزيز العليم، فهم لا ينكرون ربوبية الله سبحانه، ولكن مشكلتهم الشرك في توحيد الألوهية، فلا يعترفون أن الله هو يستحق للعبادة وحده، بل يشركون به غيره، بسبب تشبيههم الخالق بالمخلوقين، حيث يقولون: إن العظيم من الخلق لا يوصل إليه إلا بواسطة شخص دونه في المرتبة، والله أعظم من ذلك، ويصعب أن نعبده مباشرة، ولا بد من آلهة دونه نعبدها، فتوصلنا إليه، كما قال الله عنهم: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾[الزمر:٣] وهذا سبب الشرك الذي حصل في البشرية.

والعجيب أنهم يعبدون أصنامًا صنعوها هم، وهذا من غفلتهم وقلة حيلتهم، وبقيت الشبهة موجودة عند بعض المسلمين حتى اليوم، ممن يطوفون وينذرون لقبور الأولياء، بحجة أن هؤلاء من عباد الله الصالحين، نتقرب إليهم ليوصلونا إلى الله، ولو كانوا صالحين، فهم اليوم محتاجون إلى دعاء الأحياء، ولا يستطيعون أن ينفعوا أنفسهم فضلاً عن غيرهم، وهي شبهة باطلة، فالله قريب من خلقه لا يحتاج إلى واسطة بينه وبينهم، كما قال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾[البقرة:١٨٦].

ثم قال: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ ﴾، بدأ يُعدد نعمه عليهم لكي يقنعهم بأنه المستحق للعبادة وحده لا شريك له، فهو الذي مهّد الأرض للخلق وصير فيها طرقًا وسهلها لكي يسير فيها الإنسان ويصل إلى مقصده من خلالها فلا يضل.

ثم قال: ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ﴾، وهو الذي أنزل المطر من السماء، بحسب احتياج الأرض، فلو زاد لغرقت، ولو قلّ ليبست، فإذا نزّله بقدرٍ صار سببًا لحياة الأرض، فالنشر هو الإحياء، أي: أحيينا به الأرض اليابسة التي لا زرع فيها قبل نزوله عليها، فإذا نزل المطر عليها اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج.

وقوله: ﴿ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ ﴾، أي: سيُخرجكم من قبوركم أحياء؛ كما أحيا الأرض الميتة؛ وفيه إشارة إلى إثبات ما ينكره الكفار من البعث يوم القيامة.

ثم قال: ﴿ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا ﴾ أي: من نعمه وقدرته خلق الأصناف المتقابلة كلها، كالليل النهار، والشمس القمر، النور الظلام، والسماء الأرض، والفرح الحزن، وهكذا، هذه كلها تُسمى أزواجًا، ويأتي الزوج بمعنى الذكر والأنثى من كل نوع، من الحيوانات، فهذه أيضًا خلقها الله، وهذا يدل على كمال قدرته جلّ وعلا.

وقوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ ﴾، يعني: صيّر لكم مراكب من الفُلك وهي السفن التي تجري على ظهر الماء، وسخر لكم وهيأ

لكم من الأنعام ما تركبون، كالجمل ونحوه، ومن هنا تبعيضية، فليس كل الأنعام تُركب، **ولذلك جاء في الحديث:** **"أن شخصًا ركب على بقرة، فقالت: ما خُلقت لهذا"**(١).

وقد سخر غيرها من الحيوانات لتركب، كما قال: ﴿ وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗ ﴾[النحل:٨].

وقوله: ﴿ لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ رَبِّكُمۡ إِذَا ٱسۡتَوَيۡتُمۡ عَلَيۡهِ ﴾، فإذا ركبتم على ظهر السفينة أو على ظهر الحيوان، فتذكروا نعمة هذا التسخير لكم من الله.

وقوله: ﴿ وَتَقُولُواْ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ ١٣ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ١٤ ﴾، هذا دعاء الركوب، فإذا ركبنا شيئًا مثل السيارة والحصان والسفينة والطيارة ونحوها، نقول هذا الدعاء بنصه، حيث نسبح الله الذي سخر لنا هذا المركوب، والحال ما كنا له مطيقين، ولا عليه قادرين، لو لم يُسخره لنا، ونتذكر أننا سنرجع إلى الله، وننقلب إليه، فلن نبقى في هذه الحياة مخلدين فيها، بل نرجع إلى الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ فلنستعد لملاقاته بالعمل الصالح.

وما سبق من ذكر النعم هي من توحيد الربوبية الذي يستدل به على توحيد الألوهية، ولذلك قال الله بعدها: ﴿ وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنۡ عِبَادِهِۦ جُزۡءًا ﴾ **أي:** ومع ما سبق من نعم عليهم من الله إلا أن المشركين جعلوا لله شريكًا ادّعوا نسبته إلى الله، **فقد**

---

(١) ينظر: السير والمغازي، لابن إسحاق (٢٨١)، وتفسير القرطبي (١٢/ ١١٨).

كانت قريش والعرب تقول: إن الملائكة بناتُ الله، **وقالت اليهود:** عزير ابن الله، **وقالت النصارى:** المسيح ابن الله، فهؤلاء كلهم صيروا لله من خلقه شريكًا، ونسبوا إليه الولد زوراً وبهتانًا، وإن كان السياق يخاطب كفار قريش فحسب.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾، فهذا الإنسان المشرك الذي فعل ذلك، كثير الجحود لربه، مجاهر بفعله القبيح.

ثم رد الله على المشركين قولهم: إن الملائكة بنات الله، فقال: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾﴾، لقد نسبتم إلى الله الولد، تعالى الله عن قولكم، واخترتم له من أنواع الولد ما لا ترضونه لأنفسكم، وهن البنات، باعتبار تفكيرهم السقيم، فقد كانوا لا يقبلون أن تنسب البنت لهم، لأن الأنثى لا قيمة لها عندهم، وتمثل عاراً عليهم، ولذلك كانوا يدفنونها حية، فعلى منطقكم هذا كيف يمنحكم الذكور، ويمنح نفسه الإناث؟!!، وهو بهذا يحاجهم بحسب اعتقادهم.

ثم قال: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾﴾، وإذا بُشر المشرك بأن زوجته ولدت بنتًا، تغير وجهه إلى السواد من شدة الحزن، وأصابه القهر من ذلك.

ثم قال: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلْحِلْيَةِ﴾، هذا وصف لحال البنت، وأنها تربى على العناية بالتزين والتجمل بالكُحل والذهب والفضة والملابس، ونحوها، لجذب الرجال إليها بسبب نقص فيها، وهذه صفة فطرية في الأنثى.

ثم قال: ﴿وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ١٨﴾، **أي**: أن المرأة إذا غضبت لا تستطيع أن تتكلم كلامًا واضحًا، بل تتشوش ذاكرتها بسبب الغضب، وتتلعثم لسانها، فلا تُبين عما في نفسها، وفي هذا سبق علمي، فقد اكتشف الأطباء حديثًا أن دماغ المرأة يختلف عن دماغ الرجل، وما سبق هو وصفٌ لضعف المرأة، ومع ذلك نسب المشركون البنات لله، فاليهود والنصارى كانوا أقل قبحًا منهم حين نسبوا له البنين، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عما يصفون.!!.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ﴾، هذا إخبار عن المشركين، الذين وصفوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن بالأنوثة، وأنهم بنات الله، والملائكة لا يُوصفون بذكورة ولا أنوثة، لأنه لا يوجد بينهم تزاوج وليس عندهم شهوة، بل هم أجسام نورانية، خلقها الله لتعبده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقوله: ﴿ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ١٩﴾، أحضروا خلق الله للملائكة، وعرفوا جنسهم، وأنهم إناث؟!!، وهو سؤال استنكاري، لأنهم لم يحضروا ولم يشاهدوا ذلك، فإن الله خلق الملائكة قبل آدم، فإذنْ هم مفترون على الملائكة، وسيكتب افتراؤهم هذا، ويسألون عنه في الآخرة.

وقال سبحانه: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾، **بنوا كلامهم الباطل على مقدمتين، إحداهما**: أن عبادتهم لهم بمشيئة الله تعالى.

والثانية: أن ذلك مستلزم لكونها مرضية عنده تعالى، وقد أخطأوا في فهم المشيئة وجعلوها شيئًا واحداً.

والصواب: أن مشيئة الله على نوعين: مشيئة كونية لا تتخلف ولا تستلزم

محبة الله ورضاه، **ومشيئة شرعية** قد تتخلف، ولكنها تستلزم محبة الله ورضاه، وكون أن الله لم يَرْضَ بعبادتهم لغير الله؛ فلا يستلزم أن يعجَّل عقوبتهم، بل منحهم سنة الإمهال لعلهم أن يتوبوا، وقد منح الله العبد حرية الاختيار للحق أو الباطل، ووضح له ذلك بأرسل الرسل وأنزل الكتب وجعل له السمع والبصر؛ فإذا اختار طريق الحق؛ أعطاه الله الثواب والأجر على اختياره، وإذا اختار طريق الباطل؛ عاقبه الله على اختياره!.

وقوله: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾﴾، **أي**: هذه شبهة باطلة داحضة؛ لأنها ليست مبنية على علم وحجة وبرهان، وإنما على جهل وادعاء؛ فهم كاذبون في قولهم.

فوائد وهدايات من هذه الآيات:

١- أن المشركين لا ينكرون توحيد الربوبية، ولكنه لا ينفعهم عند الله، بل لا بد من إثبات توحيد الألوهية له سبحانه.

٢- أن كل نعمة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تقتضي شكرًا لها من العبد.

٣- أن المشركين وقعوا في الظلم حين نسبوا الإناث إلى ربهم سبحانه، وكرهوا ذلك لأنفسهم.

٤- بطلان الاحتجاج على المعاصي بالقدر.

تفسير المقطع الثاني من سورة الزخرف

﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ
ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ
إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ
جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ
فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا
تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ
يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ
قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ
﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ
فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾﴾، **أي:** هل أعطى الله المشركين كتابًا قبل القرآن يُبيح لهم الشرك واتخاذ آلهة من دون الله، فهم مستمسكون به ومستمرون عليه؟! **الجواب:** لا، لم يكن لديهم كتب ولا رسل، بل كانوا يعبدون الأصنام بلا حجة ولا برهان.

ثم قال: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾، بل حجتهم في الشرك هي تقليد الآباء والأجداد، فقد وجدوا آباءهم على ملة، وهي ملة الشرك والكفر، فتابعوهم عليها تقليداً لهم.

وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾، **أي:** وهذه طريقة كل الكفار سواءً في قريش أو مَن كان قبلهم، فهم سائرون على هذا الطريق وماضون على آثارهم لا يغيرون ولا يبدلون.!!، **والمترفون هم:** الكبراء والأغنياء وأصحاب النعمة فيهم، فكل الرسل رد عليهم أقوامهم بما ردت به قريش عليك، وخص المترفين بالذكر لأنهم هم المجموعة الحاكمة وأصحاب المال والجاه والسلطان الذين يخافون على مصالحهم لو اتبعوا الرسل.!!

وقوله: ﴿قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾﴾، **أي:** قال رسول الله مخاطباً قومه: إن الذي جئتكم به هو أهدى مما كان عليه آباؤكم، فقد كانوا في ظلم وطغيان وشرك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ووأد للبنات وإفساد في الأرض، ونحوها من القبائح، والذي جئتكم به هو عبادة الله وحده وترك الظلم والشرك والاستبداد، والأمر بالأخلاق الحسنة، كالعفة والصدق ونحوها، فهذا هو أهدى لكم، فرفضوا عرضه، وقالوا: لا نقبل التغيير ولا التبديل، بل جحدوا ما جاء به جملةً وتفصيلًا، وهذا يدل على أن القضية عندهم قضية مصيرية لا تقبل النقاش، وأنها مشروع حياة وموت بالنسبة لهم، ولذلك قدموا رقابهم في بدر، وحاربوا على ذلك في أُحد والخندق.

فقال الله ردًا عليهم: ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٢٥﴾، فلما قابلوا هذه النعمة بالكفر والطغيان؛ انتقم الله منهم في أكثر من موطن، فمنهم من قُتل في بدر، ومنهم من قُتل في أحد، ومنهم من قُتل في الخندق، ومنهم من قتل في أماكن أخرى، وهذا انتقام الدنيا، أما في الآخرة فلا شك أن عذاب النار ينتظرهم، وليس هذا الانتقام خاصًا بقريش بل هو سنّة ماضية في كل الأمم التي كذبت الرسل، فانظر أيها الرسول كيف كانت نهاية المكذبين، وكيف أهلكهم الله؟!!

ثم قال سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ٢٦﴾، ذكر الله لنا نموذجًا من نماذج المؤمنين الذين حققوا الولاء والبراء، وهو إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، فإبراهيم عرف الحق فاتبعه، ولم يتّبع الآباء والأجداد في الباطل، بل لما اتضح له الحق تبرأ من قومه، وتبرأ مما يعبدونه من دون الله من الأصنام والأوثان، وسائر الآلهة.

واستثنى عبادة الله وحده؛ فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ ٢٧﴾، فاستثنى العبادة النقية الصافية لله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، وتبرأ مما دونه من المعبودات، فهو الذي فطره وخلقه وأوجده من العدم، وفي هذا إرشاد إلى أن الخالق هو المستحق للعبادة وحده، فكيف يخلقك الله وتعبد غيره، وهو الذي سيهديه إلى الحق وإلى الطريق المستقيم، وهذا من رحمة الله بالخلق أنه لم يتركهم بدون هداية، بل أرسل إليهم الرسل وأنزل عليهم الكتب وبيّن لهم طريق الحق من طريق الضلال.

ثـم قـال الله: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾، **أي:** وصـيّر إبراهيم هـذه الكلمـة التـي هـي: لا إلـه إلا الله، كلمـة ثابتـة غيـر منقطعـة وباقيـة في ذريته من بعده، فـلا يـزال مـن يوحـد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ولا يُشرك بـه شيئًا إلـى أن بُعث محمد ﷺ، وجدد ملة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، والعلـة مـن بقـاء هـذه الكلمـة في ذرية إبراهيم، وعدم اندثارها لكي تكـون سـببًا في تـوبتهم إلـى الله وعـودتهم إلـى التوحيد حينما يسمعون من يُفرده بالعبادة، ويتركوا الشرك وعبادة الأصنام.

ثم قـال الله تعـالى: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾﴾، **أي:** لـم أعاجل هؤلاء المشركين ولا آباءهم بالعقوبة بسبب كفـرهم وإشـراكهم، بل أعطيتهم فرصة من العمر يتمتعون في هـذه الحيـاة حتى جاءهم الحـق، وهـو القـرآن الكـريم، وجـاءهم الرسـول الواضـح لهـم، وهـو محمـد ﷺ، وهـذه مـن رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بهم.

ثـم قـال الله: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾، **أي:** ولمـا جاء محمد ﷺ قريشًا بالحق، وهو القرآن الكـريم، قـالوا: هـذا الـذي جئـت بـه سحر، وردوا نبوته، وجحدوا ما أُرسل به.

وقولـه: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾، وعللـوا كفرهم بأن محمداً لا يصلح لها، مع أنه أفضلهم وأعظمهـم وأكـرمُهم علـى الله، **واقترحوا أن تكون الرسالة فيمن عنده مال وولد، من إحدى القريتين**، والمقصود بها مكة والطائف، **فمن مكة** اقترحوا الوليـد بـن المغيـرة، **ومـن الطـائف** اقترحـوا عروة بن مسعود الثقفي، وقد كانا من أغنى أهل تلك القريتين.

فرد الله عليهم بقوله: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾، أهم يُوزعون النبوة على الخلق، فالنبوة اصطفاء، كما قال: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾[الحج:٧٥]، وصادرة عن علم، كما قال: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام:١٢٤]، فالأمر ليس إليكم، فالنبوة رحمة ومِنّة وفضل من الله على عباده.

وقولـه: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ﴾، وهذا من الاستدلال بالأدنى على الأعلى، والمعنى: كما قسم الله الرزق بين الخلق وجعل بعضهم أغنياء وبعضهم فقراء، فهو كذلك من يمنح النبوة من شاء من عباده، وطالما ليس للخلق استطاعة في تقسيم أرزاقهم الدنيوية؛ فكيف بغيرها مما هو أكبر منها، فجعل الله هذا غنياً وهذا فقيراً على سبيل الابتلاء والاختبار، والحكمة من هذا التقسيم للخلق حتى تستمر الحياة وتُعمر الأرض، فلو كان الناس كلهم أغنياء لما عمل أحد عند أحد، ولما خدم أحد أحداً.

وقوله: ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ أي: سخر الله بعض الخلق لخدمة البعض الآخر، وجعل الحاجة مطّردة بين الخلق، فأنت تحتاج إليه، وهو محتاج إليك، فالفقير محتاج إلى المال من الغني، والغني محتاج لخدمات يُقدمها الفقير، وهكذا، فهذه طبيعة الحياة التي خلقها الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، حيث جعل كل واحد محتاجاً للآخر، وبهذا قامت الحياة.

ثم قال: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ٣٢﴾، بيان بأن رحمة الله التي هي فضله وكرمه ومنته بأن وفّقك للطاعة وجعلك من الصالحين خيرٌ مما يجمعه الآخرون من مال الدنيا، فإذا أعطاك الله الهداية وأعطى غيرك المال، فالهداية

أفضل من المال، فأنت فقير ولكنك تعيش في راحة وسعادة وطمأنينة، خير من غني يعيش قلقًا واضطرابًا وتعاسة، لذلك ينبغي للمسلم -حتى لا يُنكر نعمة الله ولا يجحدها- أن ينظر في النعم التي منحه الله إياها، ولا يقتصر على نعمة المال فقط، **فبعض الفقراء قد يقول**: ما أعطاني الله مالاً وأعطى فلانـًا، لقد أعطاك الله الصحة وسلبك المال، وأعطى الغني المال وسلبه الصحة، وهكذا، **فنعم الله كثيرة فلا تقصرها بالمال، كما قال**: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ ﴾ [النحل:١٨].

فوائد وهدايات من هذه الآيات:

١- خطر التقليد الأعمى، الذي يجعلك لا تعرف الحق من الباطل.

٢- أن التقليد من أسباب ضلال الأمم السابقة، وأن البراءة من الكفر والكافرين لازمة وهي من شروط الإيمان.

٣- أن بقاء التوحيد في ذرية إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ كان بسبب دعائه لربه بذلك.

٤- أن النبوة تكريم إلهي لا علاقة لها بالموازين البشرية، بل هي رحمة يعطيها الله من يشاء، كما أن تقسيم الأرزاق خاضع لحكمة الله أيضـًا.

تفسير المقطع الثالث من سورة الزخرف

﴿وَلَوۡلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ لَّجَعَلۡنَا لِمَن يَكۡفُرُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ لِبُيُوتِهِمۡ سُقُفٗا
مِّن فِضَّةٖ وَمَعَارِجَ عَلَيۡهَا يَظۡهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمۡ أَبۡوَٰبٗا وَسُرُرًا عَلَيۡهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾
وَزُخۡرُفٗاۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ وَمَن
يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمۡ لَيَصُدُّونَهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ
وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ فَبِئۡسَ
ٱلۡقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ إِذ ظَّلَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ
تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ أَوۡ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذۡهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنۡهُم
مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوۡ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِي وَعَدۡنَٰهُمۡ فَإِنَّا عَلَيۡهِم مُّقۡتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسۡتَمۡسِكۡ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ
إِلَيۡكَۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسۡـَٔلۡ مَنۡ
أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿وَلَوۡلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ لَّجَعَلۡنَا لِمَن يَكۡفُرُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ لِبُيُوتِهِمۡ سُقُفٗا مِّن فِضَّةٖ﴾ ولولا أن يتوجه الناس جميعًا إلى الكفر، ويتحولوا عن الإيمان بسبب إعطائهم زخارف الدنيا؛ لجعلَ سقوف بيوت كل من كفر بالله من فضة، ومصاعدها التي يطلعون بها إلى غرفهم العالية من فضة.

وقوله: ﴿وَلِبُيُوتِهِمۡ أَبۡوَٰبٗا وَسُرُرًا عَلَيۡهَا يَتَّكِـُٔونَ ٣٤ وَزُخۡرُفٗا﴾، **أي:** ولجعل لبيوتهم أبوابًا من فضة وجعل لهم أسرّة من فضة يتّكئون عليها، ويجعل لهم أيضًا زخرفًا.

والزخرف يأتي على معنيين: الزينة المطلقة، وهو ما يتخذه الناس في منازلهم من الفرش والأمتعة والآلات ونحوها(١)، **أو الذهب الخالص** غير الزخارف(٢)، وكِلا المعنيين مُحتمل هنا.

فإذا كانت البيوت والسقف والمعارج والمصاعد من فضة، فممكن تكون الأسرة والأبواب من ذهب، وهذا مزيد من النعم التي يمنحها الله تعالى لمن كفر به سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ حتى يزداد استدراجًا بها وفتنة، ولو فعل الله ذلك لكفر الناس أجمعون؛ لأن الناس يفتنون بالدنيا، فبعض الناس اليوم قد يكفر ويترك دينه؛ لمجرد حصوله على أشياء حقيرة من الدنيا، فالله تعالى ما أراد أن يبتلي الخلق بهذه الفتنة حتى لا يكفروا جميعًا.

ويبقى سؤال: إذا كان هذا لا يصلح؛ لأن الناس سيكفرون، لماذا لم يكن عكسه؟! وهو أن من آمن يكون له بيت من فضة ومن ذهب والناس سيؤمنون أجمعون؟!، **الجواب:** أن الله تعالى أراد أن يكون إيمان الناس خالصًا لله، جزاؤه الجنة، وفيها ما هو أعظم من زخارف الدنيا كلها!.

ولذلك علل عطاء الدنيا بقوله: ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا

---

(١) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر: (٢١/ ٦٠٢).

(٢) ينظر: المصدر السابق: (٢١/ ٦٠١).

﴿وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ٣٥﴾، فسماه متاعًا؛ لأنه زائل، ولو كان من ذهب وفضة فسينتهي، فمن خصائص الدنيا أنها لا تدوم، ومن حصل على هذه النعم الدنيوية من أهل الكفر في الدنيا، فهو محروم منها في الآخرة، التي هي دار القرار والخلود والدوام، ونعمها خاصة بالمتقين المؤمنين، فأُجِّلت لهم هذا النعم إلى الجنة التي بناؤها لبنة من فضة ولبنة من ذهب[1]، وفيها سُرر عليها يتكئون، وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وهم فيها خالدون، لا ينتهي نعيمها ولا هم يموتون، وهذا يعنى أن الحياة الدنيا لا تساوي عند الله جناح بعوضة، وأن هذه النعم الدنيوية التي يمنحها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لبعض خلقه في الدنيا، لا تدل أن من حصل عليها مُكرم عند الله، فإن الدنيا يعطيها الله من أحب ومن لا يحب.

ثم قال الله سبحانه: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾، **أي:** ومن يُعرض عن الإسلام والقرآن والحق الذي جاء به محمد ﷺ.

والعشو: مأخوذٌ من العَشِي، وهو ضعف الرؤية بعد العشاء، وهو مرض يُصيب العين، ويُسمى صاحبه بالأعشى، وهو الذي لا يبصر باللّيل[2].

والمقصود هنا ضعف البصيرة، وأنه لا ينظر إلى الحق نظرة تفحص وقبول، بل حاله مع الحق كحال الأعشى مع الطريق؛ ومن كانت هذه حاله مع الحق؛ فإن الله يُسلط عليه شيطانًا يُغويه ويُغريه بالباطل؛ لأن القلب كالإناء إما

---

(١) أخرجه الترمذي، ت بشار: (٤/ ٢٥٣)، برقم: (٢٥٢٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع: (٣١١٦).

(٢) ينظر: العين، للخليل بن أحمد: (٢/ ١٨٨).

أن تملأه بالحق، أو يمتلئ بالباطل، فمن أعرض عن ذكر الرحمن؛ جاءه ذكر الشيطان المُلازم له الذي لا ينفك عنه، فينام معه، ويقوم معه.

وقوله: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾، أي: إن الشياطين يبعدون الكفرة والمعرضين عن ذكر الله وعن الطريق المستقيم، ويظن هؤلاء الغاوون أنهم على هداية، وهم في الحقيقة في ضلال مبين، ومن أكبر المصائب أن تكون منحرفًا ضالًا مُجرمًا وتحسب نفسك على خير وهدى، فلا تفكر في التوبة وتصحيح الانحراف، فهذا هو الحُمْق بعينه.

فالأحمق هو الذي لا يدري، ولا يدري أنه لا يدري، ولو كان عنده أدنى شعور بالخطأ؛ لدفعه ذلك للتوبة، وهو ممن قال الله عنهم: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾[فاطر:٨]، وقال فيهم: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾[الكهف:١٠٣-١٠٤].

ثم قال سبحانه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾﴾، هذا وصف لحال الضال المعرض عن الحق يوم يلقى الله يوم القيامة، واتضح له حقيقة ضلاله وانحرافه عن الحق ورأى ما أعده الله له من العذاب بسبب كفره وإعراضه؛ يتبرأ من الشيطان، ويتمنى أنه ما صاحبه، ولا سار معه في الدنيا، وتمنى لو كان بينه وبينه أبعد مسافة، فقد كان العرب يعبرون عن المسافة البعيدة ببُعد المشرقين، والمقصود: بعد المشرق عن المغرب.

وقوله: ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾، اعتراف منه بأن صاحبه كان سيئا، سبحان الله!! أفاق بعد غفلة طويلة، وبدأ يُفكر بطريقة صحيحة، ولكن في وقت لا ينفع فيه

هذا الاعتراف، كما قال الله: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾[ق:٢٢]، فلو كُشف عنه غطاء الغفلة في الدنيا؛ لما صادق ولا صاحب ولا جالس السيئين من شياطين الإنس، وهذا هو حال أصدقاء السوء من الإنس والجن يوم القيامة، يتمنى بعضُهم أن لا يكون له صداقة مع غيره، كما قال الله تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾[الزخرف:٦٧]، فالخلة والصداقة تنتهي يوم القيامة، ويلعن بعضهم بعضًا، إلا من كانت خلته وصداقته على إيمان وتقوى، فهذه تبقى ولا تنتهي.

ثم قال الله: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾﴾، **أي:** بسبب ظلمكم وكفركم دخلتم النار جميعًا، ولن تنتفعوا من الاشتراك بالعذاب في النار، كما يُنتفع من ذلك في الدنيا، فالشخص حين يُعذب لوحده يشعر بالألم النفسي، فإذا كان مع مجموعة خفف عنه ذلك لوجود غيره معه، بخلاف دخول الشخص مع قرينه الذي أغواه في عذاب جهنم، فإنه لا ينفع في تخفيف العذاب عنهم، بل اشتراكهم فيه زيادة لهم في العذاب النفسي، فكل واحد يسب الآخر، ويلومه، كما قال: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف:٣٨]، فيزيدهم ذلك ألمًا وحسرةً وندامةً.!

ثم قال الله: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾﴾، هذا بيان لحال الذي أعرض عن ذكر الله، فصار لا يسمع ولا يرى الحق، فانشغالك يا محمد بدعوته كالذي ينشغل بتكليم الأصم، أو كالذي يطلب من شخص أعمى أن يرى الطريق، وهذا تشبيه بليغ لحال هؤلاء الذين

وصلت بهم الانتكاسة في أسماعهم وأبصارهم إلى حد الصمم والعمى، فهو لا يسمع ولا يرى إلا ما يرغب فيه من الباطل، وفي هذا إِشارة إلى أن الإنسان قد يُصاب بشيء من ضعف البصيرة بالحق في بداية إعراضه عنه، فإذا استمر إعراضه؛ قوي فيه ذلك المرض حتى تعمى البصيرة.

وقد ذكر هنا ثلاث حواس يصل الإنسان بها إلى الحق: السمع والبصر والقلب، **فالسمع** أصيب بالصمم، **والبصر** أصيب بالعمى، **والقلب** في ضلال مبين، فهو لا يعرف الحق من الباطل، والعياذ بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فكيف يمكن دعوة من هذه حاله إلى الحق؟!!.

ثم قال: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾﴾، **أي:** لو قدّرنا أنك تمُوت قبل أن نُعذبهم ونُهلكهم، فمصيرُهم الانتقام عاجلًا أو آجلًا.

وقوله: ﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾﴾، أو نريك ما وعدناهم من العذاب في الدنيا؛ فإنّا عليهم مقتدرون، فلا يعجز الله شيء، وقد أراه الله ذلك بعينه حين قذفهم في قليب بدر بعد أن قُتل من صناديد الكفر عدد كبير، كما ثبت ذلك في السيرة[1]، **والمعنى:** أن الله سينتقم منهم أثناء حياتك أو بعد وفاتك، وقد تحقق ذلك، فبعض المكذبين أهلكهم الله بين يديه وهو حي، وبعضهم أهلكهم الله بعد وفاته.

ثم قال الله لنبيه: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾، **أي:** استمر على ما أنت عليه من الحق الذي أوحاه الله إليك من القرآن والسنة معًا، فالسنة شارحة ومبيّنة

---

(١) ينظر: إمتاع الأسماع، للمقريزي: (١٢/ ١٤٢).

للقرآن الكريم، والاستمساك: هو بذل الجهد للتمسك بالشيء، كما قال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ﴾[الأعراف:١٧٠]، وهذا يدل على صعوبة التمسك بالحق عند نزول الفتن، وفي الحديث: **"القابض على دينه كالقابض على جمرة"**[(١)].

وقوله: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾، **أي:** فأنت على طريق لا اعوجاج فيه وهو الحق.

ثم قال الله لنبيه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ **أي:** إن هذا القرآن لشرفٌ لك وشرف لقومك، فقبل أن تبعث وينزل عليك القرآن، كان العرب مجموعة أسر متقاتلة متناحرة في جزيرة العرب، ولما بعث فيهم محمد ونزل عليه القرآن بلغتهم؛ صار لها شرف وأصبحوا خير أمة أخرجت للناس، فالقرآن الكريم رفع من شأن العرب، بل ويرفع الله تعالى به كل من قرأه، ولو كان من غير العرب، **كما في الحديث:** **"إن الله يرفع بهذا القرآن أقوامًا ويضع به آخرين"**[(٢)].

والناظر اليوم في حال العرب يدرك سبب ضعفهم وتخلفهم، فما أشبه الليلة بالبارحة، لقد تركوا ما فيه عزهم وشرفهم؛ فذهب مجدهم وضعف شأنهم!!.

وقوله: ﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾، **أي:** ستُسألون عن هذا الشرف يوم القيامة ماذا فعلتم لأجله، وهو أسلوب تهديد ووعيد لهم إن قصروا.

---

(١) أخرجه أحمد: (١٥/ ٣٣)، برقم: (٩٠٧٣)، والترمذي، ت بشار: (٤/ ٩٦)، برقم: (٢٢٦٠)، وابن حبان في صحيحه: (٢/ ١٠٨)، (٣٨٥)، وهو حديث حسن بشواهده.

(٢) أخرجه الدارمي (٤/ ٢١١٨)، برقم: (٣٤٠٨)، وابن حبان في صحيحه: (٣/ ٤٩)، برقم: (٧٧٢)، وإسناده صحيح.

ثم قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لنبيه: ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾، لم يسأل النبي ﷺ أحداً، بل كان على قناعة تامة بأن التوحيد هو الحق، وأن الشرك هو الباطل، وأن كل الأنبياء جاءوا بالدعوة إلى التوحيد والنهي عن الشرك، ولا يوجد إلهٌ من دون الرحمن معبود بحق، وأن الآلهة المعبودة اليوم في الأرض من دون الله كلها باطلة.

فوائد وهدايات من هذه الآيات:

١- بيان حقارة الدنيا بالنسبة للآخرة، وأن الله لم يُرد أن يفتن الخلق بها وإلا لمنح من كفر به بيوتـًا من ذهب وفضة.

٢- بيان خطر الإعراض عن القرآن الكريم، وعن ذكر الرحمن، وأن من فعل ذلك تسلطت عليه الشياطين، كحال الذين يُصابون اليوم بالسحر والعين والحسد وغيرها.

٣- وجوب التمسك بما أنزل على رسول الله ﷺ من الوحي، وهو القرآن والسنة التي شرحت وبينت القرآن.

٤- أن القرآن شرف عظيم لرسول الله ﷺ، ولأمته من بعده، وخاصة العرب الذين بُعث فيهم، وهذا الشرف سيُسألون عنه، يوم القيامة.

٥- اتفاق جميع الرسل على التوحيد ونبذ الشرك، ولا يوجد آلهة تُعبد من دون الله بحق في جميع الديانات بل هي آلهة باطلة.

تفسير المقطع الرابع من سورة الزخرف

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ
﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ
أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ
عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ
فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا
تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ
مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ
كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾
فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

قول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ ﴾، ذكر في هذه الآيات قصة موسى مع فرعون بشيء من الإيجاز، وقد تكررت في القرآن كثيرًا؛ **وذلك لأنها تُمثل نموذجين، النموذج الأول**: يمثل الحق الذي جاء به موسى ومن معه، ويمثل كل حق في كل زمان ومكان.

والنموذج الثاني: يمثل الباطل، وهو فرعون ومن على شاكلته في كل زمان ومكان.

والمناسبة بين ذكر قصة موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مع فرعون هنا؛ أن قريشًا اقترحت في الآيات السابقة أن يكون الرسول رجلاً عظيمًا من إحدى القريتين، بناءً على فهمهم أن النبوة والرسالة لا تكون إلا في الأثرياء والكُبراء، فذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هنا قصة فرعون الذي يُمثل نموذج الأثرياء والكُبراء، وموسى الذي يمثل الأنبياء والرسل، وشتان بينهما، فلو كانت الرسالة في الأثرياء؛ ففرعون أكثر ثراءً من هذين الرجلين المذكورين، ولم تكن الرسالة فيه، بل هي منّة واصطفاء من الله سبحانه، يجعلها فيمن يشاء من عباده.

وموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ رسول من أولي العزم، أرسله الله إلى فرعون، وهو حاكم مصر في عصره، وكان أشد الفراعنة كفرًا وتكبرًا وإسرافًا وعلوًا في الأرض.

والآيات، هي: المعجزات والبراهين الدالة على صدقة، وهي تسع آيات، وأول هذه الآيات كانت العصا التي تتحول إلى ثعبان، فتلقف ما يأفكون من السحر، واليد التي يضعها في جيبه فتخرج بيضاء ذات نور ليس ببرص ولا مرض، وإنما نور يتلألأ، وهي علامة من علامات صدقه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ثم الآيات الأخرى التي أعطاها الله تعالى لموسى بعد أن كذبه فرعون مثل الدم والقُمّل والجراد والضفادع، ونحوها.

والملأ هم: أكابر القوم، ورجالات الدولة، وهم المترفون، من حاشية المُلك والسلطان، وهم الذين لا يُعجبهم الحق ولا اتباع الرسل، وغالبًا يكون ردهم هو التكذيب والكفر.

وقولـــه: ﴿فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٤٦﴾، **أي:** قـال موسـى لفرعـون: أرسلني الله الـذي هـو رب العـالمين إليـك لأخرجـك مـن الظلمـات إلـى النـور وأُخرج بني إسرائيل من عبوديتك إلى عبودية الله وحده.

وقوله: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ٤٧﴾، فلما جاء موسى فرعـونَ وملأَه بالآيات المعجزات والبراهين على صدق رسالته؛ فإذا بهـم يستهزئون بموسى وآياته، فقد طلب فرعون من موسى آية؛ فألقى موسى عصاه فإذا هي ثعبان، ثم ردها فإذا بها عصا، فكان الذين حوله يضحكون استهزاء بها.

ثم قال الله تعـالى: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾، **أي:** ومـا نجعلهم يرون معجزة من معجزات موسى إلا والتي بعدها أكبر منهـا، **والمعنـى:** أن الآية تظهر لمن رآها أنها أكبر من أختها، أو أن القوم يختلفـون في عظمـة تلـك الآيات فكل واحد يقول: هذه أعظم، هذه أكبر، والكل محتمل، **والفائدة من هذا الاختلاف** عظمة تلك الآيات وكِبرها وأنها خارقة للعادات.

وقوله: ﴿وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ٤٨﴾، **والمقصود بالعذاب هنـا:** هـو العذاب الدنيوي بالأشياء التي سلطها عليها كالطوفـان والجـراد والقمـل والـضفادع والدم، ونحوها، فكل هذه آيات وكـان فيهـا نـوع مـن العـذاب عليهم، والهـدف مـن إصـابتهم بـذلك تنبيههم لعلهـم يرجعـون إلـى الله ويتوبـون إليـه ويتركـون الكفـر، ولكنهم لم يستفيدوا من تلك الآيات، بل زادوا عتوًا ونفورًا وتكذيبًا.

وقوله: ﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴾، ولـما كانت تشتد بهم الحال كانوا يأتون إلى موسى يطلبون منه أن يدعو الله لهم بالفرج،

وخطابهم لموسى بالساحر؛ إما على سبيل التعظيم، فإن الساحر كان أعظم شخص في نظرهم، فالسحرة في عهد فرعون كانوا هم قادة الناس، وكانوا هم الفئة التي يعود إليها الناس في كل شؤونهم، فهذه هي الصورة الذهنية للمجتمع الفرعوني، أو على سبيل الاحتقار له، **بمعنى**: لست رسولاً بل أنت ساحر، **والسياق يرجح المعنى الأول**، والتعبير بربك دليل أنهم كانوا لا يؤمنون بربوبية الله، ووعدوا موسى بالإيمان به إن رفع الله عنهم العذاب، كما في قوله: ﴿لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾﴾[الأعراف:١٣٤]، ولكنهم كانوا كاذبين في ذلك، فلم يكونوا عازمين على الهداية، بل كانوا يريدون التخلص من العذاب فقط، وهذه طبيعة من تمرد على الطاعة والإيمان، فلا عهد له ولا ميثاق.

وقوله: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾﴾، **أي**: فلما صرف الله عنهم العذاب؛ نكثوا عهدهم واستمروا في كفرهم.

ثم قال الله: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾﴾، **أي**: جمع فرعون قومه فاجتمعوا، ثم بدأ يُقارن حاله بموسى؛ حتى يظهر لهم أنه أفضل من موسى، وأنه أحق أن يكون ربًا وإلهًا لهم، **وكان مما قاله لهم**: ألست أنا ملك مصر والمتصرف والآمر الناهي فيها؟!!، **هذا من حيث الملك**.

وأما من حيث النعم التي هو عليها، **فقال لهم**: انظروا إلى هذه الأنهار التي تجري تحت قصوري وبين أشجار حدائقي، وكان الفراعنة قد عملوا مجموعة من التُّرَع من نهر النيل باتجاه القصر الذي يسكن فيه فرعون وكانت تقريبًا أربعة

إلى خمسة أنهار صغيرة، تجري من الجهات الأربع إلى قصر فرعون الذي كان يسكن فيه.

ثم قال: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ﴾، أم قيل[(١)]: هي المنقطعة، وهي بمعنى بل، والمعنى: بل أنا خيرٌ من موسى، وقيل: إنها بمعنى الاستفهام، أي: أأنا خير أم موسى، ورجح الثاني الطبري[(٢)]، ومهين، قيل[(٣)]: مَهين، أي: ضعيف لقلة ماله، وأنه ليس له من الملك والسلطان، وقيل[(٤)]: الذي يقوم بمهنة نفسه، ولا يوجد عنده من يخدمه، والمهنة عنوان التواضع.

فقد كان نبينا محمد ﷺ يقوم بمهنة أهله؛ يحلب شاته، ويخصف نعله.

وقيل: حقير وليس له مكانة عند القوم، وهذا القول ضعيف؛ فقد كان موسى وجيهًا في قومه، وكان أفضلهم، وما بعث الله نبيًا إلا من أفاضل أفراد قومه.

وقوله: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ۝٥٢﴾، أي: ليس فصيحًا في الكلام، وقد عرفه بذلك لأنه كان يعيش معه في القصر، وقد قيل: إن سبب عدم الفصاحة، أنهم أتوا بموسى إلى فرعون أثناء تربيته في قصره، وكان ما زال متخوفًا من الرؤيا التي رآها، وبسببها كان يأمر بقتل بني إسرائيل، فأراد أن يختبر موسى وهو طفل

---

(١) ينظر: التفسير البسيط للواحدي: (٢٠/ ٥٦).

(٢) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢١/ ٦١٨).

(٣) ينظر: تفسير الماوردي = النكت والعيون (٥/ ٢٣٠).

(٤) ينظر: تفسير العز بن عبد السلام (٣/ ١٥٨).

صغير، فوضع له في إناءين مختلفين جمرةً وتمرة، فأخذ موسى الجمرة ليأكلها فأصابت لسانه ولم يأخذ التمرة، فازداد هلعًا(١)، وهذا العيب الطارئ على موسى، قد دعا الله برفعه عنه، كما في قوله: ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةً مِّن لِّسَانِي ٢٧ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ٢٨ وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرًا مِّنۡ أَهۡلِي ٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ٣٠﴾[طه:٢٧-٣٠]، فاستجاب الله له، كما في قوله: ﴿قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾[طه: ٣٦]، فذهب ما كان يجدُه في لسانه من عدم قدرته على النطق، وجعل هارون وزيرًا بجواره ورسولًا معه، وربما لم يعرف فرعون أن هذا العيب قد ذهب عن موسى بعد أن بُعث!!.

ثم قال: ﴿فَلَوۡلَآ أُلۡقِيَ عَلَيۡهِ أَسۡوِرَةٞ مِّن ذَهَبٍ﴾، **أي:** إن موسى إنسان عادي، وليس بتلك الشخصية الثرية الغنية التي تمتلك أساور من ذهب، والأساور جمع سوار وهو يلبس على السواعد، وقد كان ذلك من عادات الملوك، حيث يضعون على رؤوسهم التيجان وعلى أيديهم الأَساور.

ثم قال: ﴿أَوۡ جَآءَ مَعَهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مُقۡتَرِنِينَ ٥٣﴾، فإذا لم يكن معه هذه النعم التي تدل على مكانته؛ فلا بد أن يأتي معه ملائكة مصاحبون له لا يفارقونه، يشهدون له بالرسالة.

ثم قال الله: ﴿فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾، بيان لحال قومه معه، وأنهم ليست لديهم عقول رزينة، وإنما فيهم سخَافة وسطحية في التفكير، فأطاعوه في الكفر، وفي تكذيب موسى، وقبلوا قوله أنه أحسن حالاً من موسى، ويظهر أن سبب سخفهم هو كثرة بطشه وظلمه وجبروته عليهم، فأغلقوا باب التفكير على

(١) ينظر: عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، للسمين الحلبي: (٤/ ٢٣).

عقولهم، وخافوا أن يقولوا له: لا، وهكذا هي حال الطواغيت مع شعوبهم في كل عصر ومصر.

ثم قال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾، وهو بيان لسبب الاستخفاف بهم، وهو فسقهم، ولو كان فيهم صلاح واستقامة لما أطاعوه، فإن الفاسق يتبع الفاسق، والصالح يتبع الصالح، ففسقهم جعلهم يقبلون بمثل هذه الأباطيل ويعتقدون أن فرعون هو الإله، وأن موسى ليس بنبي!!.

ثم قال الله: ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾، فلما أغضبونا بفعلهم هذا، والله تعالى يغضب إذا انتهكت محارمه، **وفي الحديث:** **"ألا وإن لكل ملك حمى، وحمى الله محارمه"**(١).

وإذا انتهكت المحارم؛ فإن الله يغضب وينتقم ممن انتهكها، والقصة هنا موجزة، وقد استمر موسى سنين عديدة يدعو فرعون وقومه.

وقد ذكر بعض المفسرين(٢) **في قوله:** ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ ﴾[الأعراف:١٢٩]، أن بين هذه البشارة وبين هلاك فرعون أربعين سنة، فانتهى حالهم إلى غضب الله عليهم وانتقامه منهم بقوله: ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾، حيث أغرق فرعون وجنوده أجمعين في البحر بحسب ما جاء تفصيل ذلك في سور وآيات أخرى.

---

(١) أخرجه أحمد: (٣٠/ ٣٢٠)، برقم: (١٨٣٦٨)، ومسلم (٣/ ١٢١٩)، برقم: (١٥٩٩).

(٢) ينظر: تفسير الطبري: ١٥/ ١٨٧، وتفسير البغوي - طيبة (٤/ ١٤٨).

وقولـه: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ٥٦﴾، أي: صيّر الله فرعون وقومه قدوة في الباطل والشر لمن أتى بعدهم وعمل بعملهم، وأن يُهلكهم الله كما أهلكهم، والمثل هو الحال الذي يُتّعظ به ويُعتبر منه، وفي هذا إرشاد للمكذبين من قوم محمد ﷺ من قريش، أن ينتبهوا لأنفسهم فيؤمنوا؛ حتى لا يصير مصيرُهم مثل مصير فرعون وقومه المكذبين.

فوائد وهدايات من هذه الآيات:

١ - أن السخرية من الحق صفة من صفات أهل الكفر والشرك.

٢ - أن نكث العهود وعدم الوفاء بها صفة من صفات الكفار والمشركين.

٣- أن الفاسق خفيف العقل، يستخفه من أراد استخفافه، وأن من أراد أن يزكو عقلُه فعليه بالطاعة والاستقامة والعبادة فهي سبب لرزانة العقل وزيادة الوعي.

٤ - أن غضب الله يوجب الخسران لأهل الضلال وسبب لانتقام الله منهم.

٥ - أن أهل الضلال يسعون إلى تحريف دلالات النصوص الشرعية لكي يُضلوا بها أتباعهم، ولو أرادوا الحق لوجدوه واضحًا في القرآن والسنة.

تفسير المقطع الخامس من سورة الزخرف

﴿ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓاْ
ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ
أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِي ٱلۡأَرۡضِ
يَخۡلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلۡمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمۡتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسۡتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا
يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم
بِٱلۡحِكۡمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي
وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسۡتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٌ لِّلَّذِينَ
ظَلَمُواْ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةً وَهُمۡ لَا
يَشۡعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۢ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا
خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ ﴿٦٩﴾
ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖۖ
وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ
ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ كَثِيرَةٞ مِّنۡهَا تَأۡكُلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾.

قول الله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾﴾، لما
نزل قول الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ

﴿جَهَنَّمَ﴾، الآيـة[الأنبيـاء:٩٨]، فـرح كفـار قـريش بهـذه الآيـة واتخـذوها وسـيلةً للمجادلة والخصومة مع النبي ﷺ، وقالوا: أنت تُحدثنا أن عيسى بن مريم؛ رسول الله، فقد عبده النصارى، وجعلوه إلهًا، وكل من عُبد من دون الله سيكون حصبُ جهنم مثله مثل الأصنام، فرضينا أن نكون نحن مع عيسى في النار، فهذا هو المثال الذي ضربه أحدُ كفار قريش ويُسمى عبد الله بن الزبْعري، وكان صاحب جدال[1]، **وشبهته هذه باطلة من وجوه**[2]:

الأول: أن الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ قـــال: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾، عبّر بـ"ما" وهي لغير العاقل، وعيسى عاقل فلا يدخل في هذا العموم، حتى **قيل**: إن النبي ﷺ قال له: "**أنت تجادل ولا تعرف لغة قومك**".

الثاني: أن هذا خطاب لكفار قريش، فما علاقة النصارى فيه.

الثالث: لو افترضنا أن الآية عامة ويدخل فيها عيسى وغيرُه، فقد جاء بعدها مباشرةً الاستثناء لهم، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ﴾ [الأنبياء:١٠١]، فعيسى وكل من عُبد من الصالحين بغير رضاه، ممن سبقت لهم الحسنى، وهي الجنة باعتبارهم مؤمنين.

ثم قال الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَ﴾، وقالوا: إذا كان عيسى وهو خير منا ومن أصنامنا، فهو نبيٌ مرسلٌ ويدخل النار، فندخل نحن مع آلهتنا معه ولا حرج.

(١) ينظر: تفسير الرازي :(٢٧/ ٦٣٩)، وتفسير ابن كثير ت سلامة (٧/ ٢٣٣).
(٢) ينظر: تفسير الرازي: (٢٧/ ٦٤٠).

وقولــه: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾، يعنــي: هــم بــذلك يريــدون الجــدال والخصومة، وليس الهدف من الحوار والنقاش الوصول إلى الحق.

وقولـه: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ۝٥٨﴾، بيـان لحـالهم وأنهـم مجبولـون علـى الخصومة والجدال بالباطل.

ثم قال الله عن عيسى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾، فعيسى لـم يكـن إلهـًا ولم يدعي الألوهية، ولم يطلب من قومه أن يعبدوه، بل هـو عبدٌ مـن عباد الله، أنعم الله عليه بالنبوة، وفي هذا ردٌ على النصارى الـذين جعلـوه جزءًا مـن الإلـه، وردٌ على اليهود الذين جعلوه شريرًا وابنُ زانية.

وقولـه: ﴿وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ۝٥٩﴾، صـيّرناه مثـالًا يحتـذي بـه بنـو إسرائيل، فهو أنموذج في الأخلاق والاستقامة والصلاح، وجعلناه دليلًا وحجةً يُستدل به على قدرة الله فقد خلقه من دون أبٍ فصار مثل آدم من وجه، كما قـال الله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ۖ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ﴾[آل عمران:٥٩]، فعيسى خُلق من أمٍ دون أب، وآدم خُلق من دون أبٍ وأُمٍ.

ثم قال الله: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ۝٦٠﴾، لـو أراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يُسكِن الأرض ملائكة لفعل، وتكون الملائكة هـي المستخلفة في الأرض[١]، وفي هـذه الحالـة لـن يكـون هنـاك فجـورٌ ولا معصية ولا كفـر في الأرض، وقيل[٢]: لأولدناكم ملائكة، أي: يصير الإنسان يلد ملَكًا من الملائكة

(١) ينظر: تفسير ابن كثير ت سلامة (٧/ ٢٣٦).

(٢) ينظر: تفسير الألوسي = روح المعاني (١٣/ ٩٣).

يخلُفه، وفي هذه الحالة يُمكن أن يُرسل إليهم مَلَكًا رسولًا من أنفسهم، لأنه لا يصلُح أن يُرسل ملَكًا إلى بشر بصورته أو بهيأته الملكية، وهم بصورتهم البشرية، والأول الأرجح لدلالة السياق عليه.

والغرض من ذكر هذه الآية مع قصة عيسى، أنهم استغربوا أن يكون عيسى بهذا الوصف، فبيّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لهم أنه قادر على أن يخلق ملائكة يعيشون ويستخلفون في الأرض، وليس مجرد أن يخلق إنسانًا من دون أب، فقدرة الله لا يحدها حدود.!!

ثم قال الله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾، الضمير عائد إلى عيسى، **وقيل**[١]: إلى القرآن.

وقوله: ﴿لعلم﴾، قرأ الجمهور بكسر العين وتسكين اللام؛ **والمعنى** أنه يُعلم به قرب الساعة، وفي قراءة بفتحهما؛ بمعنى العلامة والدليل[٢]، **وقد ثبت في الحديث**[٣]: **"أن عيسى سينزل قبل يوم القيامة حكمًا عدلًا في أمة محمد، فيقتل الدجال، ويكسر الصليب، ويحكم بالإسلام على شريعة محمد ﷺ"**، فنزول عيسى في آخر الزمان من علامات الساعة الكبرى.

وقوله: ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾، **أي:** فلا تشكوا في أمر الساعة فإنها واقعة لا محالة؛ لأن كفار قريش كانوا ينكرون قيام الساعة وينكرون البعث والنشور.

(١) ينظر: زاد المسير في علم التفسير (٤/ ٨٢).

(٢) ينظر: المصدر السابق: (٤/ ٨٢).

(٣) أخرجه أحمد ط الرسالة (١٣/ ٢٨٠)، برقم: (٧٩٠٣)، وإسناده صحيح.

وقوله: ﴿وَٱتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ٦١﴾، واتبعوني فيما آمركم به من التوحيد الذي جئتكم به من عند الله، فهو الطريق الحق الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف.

ثم قال: ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٦٢﴾، أي: ولا يصرفنكم الشيطان عن هذا الصراط بإغرائه وإغوائه وتزيينه الباطل لكم فهو عدو واضح العداوة لكم.

ثم قال الله: ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ﴾، ولما جاء عيسى قومَه بالتوحيد والنبوة والرسالة مصحوبة بالحُجج والبراهين الدالة على صدقه؛ كذبوه، وبيّنات عيسى معروفة وقد ذكرها الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، منها: أنه يُبرئ الأكمه والأبرص ويُحيي الموتى بإذن الله.

وقوله: ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِ﴾، أي: من فروع الشريعة، فجميع الأنبياء يتفقون في التوحيد وأصول الدين، وتختلف شرائعُهم، فجاء عيسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ بعد أن كان قد وقع بنوا إسرائيل في خلاف وشقاق في كثير من المسائل، فبيّن لهم ما اختلفوا فيه من المسائل الفرعية، ووضح لهم الحق فيها، وشريعة عيسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ هي تكملة لشريعة موسى، وفيها بعض الزيادات.

وقوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ٦٣﴾، اتقوا الله، وأطيعوني فيما أمرتكم به فأنا رسول من الله إليكم.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ٦٤﴾، هذا ما قاله

عيسى لقومه عند بعثته بأنه عبدٌ مربوبٌ لله، وليس إلهًا، فاعبدوا الله وحده لا شريك له، فالتوحيد هو الطريق الذي لا اعوجاج فيه.

وقوله: ﴿فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ﴾، **فاختلفت طوائف النصرانية** بعد رفع عيسى في عيسى؛ **فمنهم من قال:** هو الله أو هو الإله، **ومنهم من قال:** إنه ابنُ الله، **ومنهم من قال:** إنه ثالثُ ثلاثة الأب والابن وروح القدس إلهًا واحدًا، وهذه الثلاث الطوائف ما زالت موجودة إلى اليوم في النصرانية.

وقوله: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمٍ أَلِيمٍ ٦٥﴾، توعدهم بسبب ظلمهم لأنفسهم بالشرك بالعذاب الأليم الذي ينتظرهم يوم القيامة.

ثم قال الله سبحانه: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٦٦﴾، هل ينتظر هؤلاء المُكذبون الساعة على سبيل الاستهزاء؛ لأنهم لا يؤمنون بها، فهل ينتظرون إلا أن تأتيهم بغتة وهم لا يحسون بمجيئها، لأنه لا يعلم متى تأتي إلا الله، فالأنبياء والرسل لا يعلمون موعدها، وقد كانوا يسألون رسول الله كثيرًا عن الساعة، فيقول: **"علمُها عند الله"**.

ثم قال الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ﴾، **أي:** الأصدقاء الذين تحابوا من أجل الدنيا والمصالح الشخصية؛ تتحول صداقتُهم وخُلّتهم يوم القيامة إلى عداوة؛ لأن الذي تحابوا من أجله قد انتهى، وهو الدنيا فقد تركوها وراء ظهورهم، بينما المتقون يبقى حبُهم وصداقتُهم وخُلّتُهم؛ لأن الذي تحابوا فيه حيٌ لا يموت، وهو الله، وهذه الآية تُبين وجه الصداقة والمحبة والأخوة الحقة، وأنها التي تكون في الله ومن أجل الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ؛

وغيرها تتحول إلى عداوات يوم القيامة، ويبقى المتقون على منابر من نور، كما في الحديث: "**المتحابون في الله على منابر من نور يوم القيامة يغبطهم النبيون والشهداء**"(١).

ثم قال الله: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ٦٨﴾، **الخطاب موجه للمتقين** في ساحة المحشر لا خوف عليكم مما يأتي، ولا حزن يصيبكم على ما فاتكم من الدنيا وفراق الأهل والأحبة، فإن الآخرة خيرٌ وأبقى لهم.

ثم قال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ ٦٩﴾، **المقصود بالآيات هنا** الحجج والبراهين والأدلة، أو الآيات التي كانت تأمرهم بالتوحيد والطاعة، وتنهاهم عن الشرك والمعصية، فقد كانوا بها مصدقين، ولأوامرها ونواهيها منقادين ومستسلمين، فجمعوا بين عمل القلب وعمل الجوارح.

ثم قال الله لهم: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ ٧٠﴾، أمر الله المتقين بدخول الجنة، هم وأمثالهم في الإيمان والتقوى والصلاح، أو هم وزوجاتهم المؤمنات في الدنيا، فإذا دخلوها حل بهم السرور والحبور، وحصل لهم التنعم بما فيها من النعيم المقيم الذي لا ينقطع.

ثم قال: ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖ﴾، هذا بيانٌ لبعض ما يتنعم به أهل الجنة، فهناك خدم من الولدان المخلدين يترددون على أهلها، وهم متكئون على أرائكهم، فيقدمون لهم الأكل بصحاف من ذهب، والشرب

---

(١) أخرجه أحمد: (٢٨/ ٣٨٩)، برقم: (١٧١٥٨)، ومسلم (٤/ ١٩٨٨)، برقم: (٢٥٦٦)، والترمذي: (٤/ ١٧٥) برقم: (٢٣٩٠)، بنحوه.

بأكواب من ذهب؛ لأنهم حرموا أنفسهم من استخدام الذهب في الدنيا، فعوضهم الله عنها في الآخرة، **والأكواب** هي الكاسات التي بدون مقبض.

وقوله: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ﴾، **أي:** وفي الجنة كل ما تطلبه وترغب فيه الأنفس، والنفوس في الجنة قد صارت راقية، ولن تطلب إلا شيئًا طيبًا.

وقد سألني أحد الأشخاص ذات مرة، وكنت أتحدث عن الجنة، وكان يحب القات[1]، **فقال لي:** هل في الجنة قاتٌ؟! **فقلت له:** الآية عامة، ولا مانع من وجوده إذا اشتهته نفسك، ولكن اعلم أنك إذا دخلت الجنة، فلن تشتهي إلا شيئًا طيبًا، وهذه الأشياء التي يُتقزز منها في الدنيا، لن تشتهيها النفس في الآخرة.

وقوله: ﴿وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾، فكل ما في الجنة منظره جميل، ورؤية العين للشيء الجميل يزيد من الرغبة فيه، ولذلك يتفنن أصحاب المحلات التجارية بتنظيم الأشياء وإظهارها بمظهر جميل يلفت النظر إليها، ويدفع من رآها إلى شرائها.

وقوله: ﴿وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٧١﴾، وهذا تطمين لأهل الجنة، باستمرارهم في هذه النعم، وعدم نفاذها من بين أيديهم، لأن تذكر الموت وفراق هذه النعم؛ ينغص على أهل الجنة نعيمهم.

ثم قال الله: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ٧٢﴾، وتلك الجنة التي وصفنا لكم شيئًا من نعيمها، حتى تشتاقوا إليها، حصلتم عليها

(١) **القات** شجرة يمضغها أهل اليمن، ويخزنوها في أفواههم لساعات طويلة في اليوم، ولها أثر منشط، ومن استخدمها يُدمن عليها.

بسبب أعمالكم، فالباء هنا سببية، وليست باء الثمن، فباء السبب أن العمل الصالح كان سببًا في رحمة الله للعبد، وأن دخوله الجنة كان برحمة الله، وباء الثمن أن العمل الصالح ثمن للجنة.

وقوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ٧٣﴾، سبق أن ذكر الطعام الذي يقدم بالصحائف والشراب الذي يقدم بالأكواب، وذكر هنا الفاكهة المطلقة الكثيرة، فهي متنوعة بأشكالها وأنواعها ومذاقها، يأكل منها أهل الجنة، ولا تنقطع عنهم هذه الفاكهة، نسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يجعلنا وإياكم من أهل الجنة.

فوائد وهدايات من هذه الآيات:

١ - أن أهل الضلال يجادلون بالباطل، وليس هدفهم الوصول إلى الحق.

٢ - أن نزول عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ علامة من علامات الساعة الكبرى.

٣ - أن عداوة الشيطان لبني آدم مستمرة، وقد حذرنا الله منه مرارًا وتكرارًا، لكنه يُخادعنا ويزين لنا الأعمال فنتبعه.

٤ - أن الخُلة والصداقة بين الفساق تنقطع يوم القيامة، ولا يبقى إلا الخلة والصداقة بين المؤمنين الصادقين؛ لأنها لله وفي الله.

٥ - أن دخول الجنة برحمة الله، والعمل الصالح سبب لذلك.

تفسير المقطع السادس من سورة الزخرف

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾، لما ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الآيات السابقة جزاء المتقين، **ذكر هنا جزاء الكافرين المجرمين**، وهذا أسلوبٌ معهودٌ من القرآن الكريم وهو المقارنة بين أحوال المؤمنين وأحوال الكافرين، **ذكر هنا جزاء المجرمين**، بأنهم ماكثون في جهنم أبدًا لا يخرجون منها، **والمقصود**

بالمجرمين هنا الذين كفروا بالله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، لأن الحكم بالخلود في النار لا يكون إلا للكفار. **أما العصاة من المؤمنين** فإنهم لا يُخلدون في النار.

وقوله: ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ وَهُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ ٧٥﴾ **أي:** هم في عذاب دائم بنفس القوة والشدة، فلا يحصل لهم تخفيف ولا راحة منه، وهم يائسون فيه من رحمة الله، **فجمع لهم بين ثلاث صفات: الخلود** وعدم الخروج من النار، **واستمرار العذاب** بنفس القوة وعدم تخفيفه عنهم بأي حال من الأحوال، **وإصابتهم باليأس** من رحمة الله، فصاروا فيها مبلسين.

ثم قال الله: ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ٧٦﴾، **أي:** لم يظلمهم الله بهذا العذاب، بل هم الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والشرك والإعراض عن الحق بعد أن اتضح لهم.

ثم قال سبحانه: ﴿وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَ﴾، ومع أنهم في يأس وقنوط من رحمة الله، إلا أنهم من شدة العذاب يُنادون مالكًا -وهو خازن النار- بين الحين والآخر، **قائلين له:** ليمتنا ربك، فقد تعبوا من هذه الحياة التعيسة في العذاب، كما جاء في وصفها: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ١٣﴾[الأعلى:١٣]، **ومعلوم** أن الإنسان إذا وصل إلى مرحلة شديد من الألم؛ يتمنى الموت، فإذا مات انفصل روحُه عن جسده، فلم يحس بالعذاب، فأهل النار يُريدون أن تنتهي حياتُهم ليتخلصوا من شدة العذاب، **فيردّ عليهم مالكٌ، بقوله:** ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ٧٧﴾، **قيل**(١): بعد ألف سنة أجابهم بهذا الجواب، ولم يردّ عليهم في الحال، **أي:** إنكم

(١) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢١/ ٦٤٦).

باقون على حياتكم بهذا الحال.

ثم بيّن لهم سبب ذلك، فقال: ﴿لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾، لقد جاءكم الدين الحق على لسان رسولنا الذي أرسل فيكم من قومكم في الدنيا، فدفع أكثركم كرههم للحق إلى التكذيب به وإنكاره، وهذا يدل على أن من آمن بالحق قليل، وهي سنة ماضية، كما قال: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]، **وقوله:** ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ﴾ [الأنعام:١١٦]، فالكثرة الكاثرة من الناس على ضلال، **وفي الحديث**(١): "**أن الله يقول لآدم: ابعث بعث النار، فيقول: وما بعث النار؟! قال: من كل ألفٍ تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار، وواحد إلى الجنة**"، فاستغرب أصحابُه من ذلك، فقال: "**ما أنتم في يأجوج ومأجوج إلا كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأحمر أو الأسود**" **أي:** أن نسبة الذين يدخلون النار من أمة محمد ﷺ قليل.

ثم قال الله: ﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾، **هذا بيانٌ لبعض أعمال الكفار في الدنيا،** فلم يكتفوا بالتكذيب فقط، بل استخدموا مكرهم وكيدهم في إبطال ورد الحق، **والإبرام هو:** دقة المكر، فقد كانوا يدبرون ويخططون ويمكرون ويكيدون للحق وأهل الحق في الدنيا، فأفشل الله مكرهم، لأنه أكثر منهم دقة وإتقانًا في التدبير، كما فعل بمكرهم في دار الندوة، فقد اتفقوا على قتل محمد ﷺ، وأتوا من كل قبيلة بشابٍ وأعطوه سيفًا، وأوقفوه عند بابه، فإذا خرج

(١) أخرجه أحمد: (٣٣/ ١١٤)، برقم: (١٩٨٨٤)، والترمذي: (٥/ ١٧٥)، برقم: (٣١٦٩)، **وقال:** حسن صحيح.

ضربوه بسيوفهم، وتفريق دمه بين القبائل، فماذا فعل الله بهم؟! لقد ألقى على هؤلاء الشباب النوم، وخرج النبي ﷺ، ووضع التراب على رؤوسهم، وهم لا يشعرون.!!

وقولـــه: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ۝٨٠﴾، هل كانوا يظنون في الدنيا أن الله لا يسمع ما كانوا يخفونه من أمر المكر والكيد ويفعلونه سرًا، ويُكلّم بعضهم بعضًا حوله سرًا، بلى قد كان الله يسمع ذلك، فقد وسع سمعُه كل شيء.

وكان الملائكة الكرام الحافظين الموكلين بكل أحدٍ منهم يكتبون سرهم ونجواهم، كما قال: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝١٨﴾[ق:١٨]، فبيّن لهم بهذه الأمور سبب تعذيبه لهؤلاء الكفار، فالله حكَمٌ عدل لا يظلم الناس شيئًا ولكن الناس أنفسهم يظلمون.

ثم قال الله: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ۝٨١﴾، هذا من باب التنزّل مع الخصم عند الحوار والنقاش، فممكن توافق على فكرته ولو كانت باطلة من أجل أن تستدرجه إلى الحق، والمعنى: إن ثبت أن لله ولداً فأنا أولُ العابدين لله، وهذه جملة شرطية، فجواب الشرط لا يتحقق إلا إذا تحقق فعلُ الشرط، وفعلُ الشرط مستحيل أن يتحقق هنا؛ لأن الله لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد.

ولذلك جاء في الآية التي بعدها مباشرةً تنزيه الله عما يصفه به المشركون، فقـال: ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝٨٢﴾، **أي:** تنزه

وتقدّس، جلّ وعلا، عمّا يقوله المشركون ويفترونه من الصاحبة والولد والند والمثيل والشريك، بل هو مربوب لكل ما في السموات وما في الأرض، وهو رب العرش العظيم، وهو أعظم المخلوقات.

ثم قال الله لنبيه: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾﴾، ولما رأى منهم اللجاجة وعدم اتباع الحق بعد وضوحه، أمر الله رسوله أن لا يشغل نفسه بهم ولا بمجادلتهم، فهؤلاء قومٌ خصِمون لا يريدون أن يصلوا إلى الحق، **وأصل الخوض**[1]، هو: المشي داخل الماء وتحريكه.

فانظر كيف يكون حال الماء عند مشيك فيه، يختلط مع حركة الرجلين فيه ذهابًا وإيابًا، وهكذا حال ادعاءات الكفار وباطلهم مختلطة مضطربة لا وضوح فيها، وأحوالهم كلها لعب وغفلة، فليس عندهم جدية ولا عزيمة في البحث عن الحق والوصول إليه، فاتركهم وشأنهم إلى أن يفجأهم يومهم الذي يوعدونه، وهو يوم القيامة.

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾﴾، **أي:** أنه إله من في السماء، وإله من في الأرض، **وبعض من لا يفهم لغة العرب** يظن أن هناك إلهين!! بل هو المعبود بحقٍ في السماء والمعبود بحقٍ في الأرض، وهو إلهٌ واحد، لا إله إلا هو الحكيم العليم، اسمان من أسماء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فالحكيم صيغة مبالغة من الحكمة، وهي الدقة في التقدير ووضع الشيء في موضعه، والعليم صيغة مبالغة من العلم، وهو إحاطة علمه بجزئيات الأشياء.

(١) ينظر: المحكم والمحيط الأعظم (٥/ ٢٧٨).

وقولـــه: ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾﴾، أي: تعاظم خيره وفضلُه وازداد، ولا يطلق هذا اللفظ إلا على الله فقط، والبركة هي نمو الخير وزيادته، وهي من الله يمنحها من يشاء، وهو وحده سبحانه مالك الكون كله والمتصرف فيه، وموعد قيام الساعة عنده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهو من الغيب الذي لا يعلمه أحد، وكل الخلق عائدون إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الآخرة، فيُوفي كل واحدٍ منهم جزاء عمله.

وقوله: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾، أي: لا تملك الآلهة المزعومة التي عُبدت من دون الله أن تشفع عند الله، فهو المالك للشفاعة وحده، ولا يشفع أحد عنده إلا بعد إذنه للشافع، ورضاه عن المشفوع عنه، كما قال: ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾[النجم:٢٦].

وقوله: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾، أي: لا تتم الشفاعة إلا من مؤمنٍ شاهدٍ لله بالحق وهو يعلم مُقتضيات هذه الشهادة، ولا يستفيد منها إلا من شهد بالحق وهو يعلم مُقتضيات هذه الشهادة كذلك، وهو الموحد العاصي الذي مات دون توبة فدخل النار، فيُشفع فيه الموحدون من أهل الجنة، فيخرج منها بسبب توحيده، فلا يشفع كافر لكافر، ولا يشفع مؤمن لكافر.

وقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾﴾، الواو استئنافية، والمعنى: أن هؤلاء المشركين يعترفون بأن الله هو الخالق الرازق، ولكنهم لا يعبدونه وحده لا شريك له، بل يشركون به غيره، فكيف صرفوا عن عبادته إلى عبادة غيره، مع اعترافهم بربوبيته لهم؟، وهو سؤال استنكاري تعجبي، من

صنيعهم مع ربهم سبحانه.

وقوله: ﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ ٨٨﴾، **الواو** عاطفة، **والمعنى**: كما يعلم الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ علم الساعة، فهو يعلم مقولة رسوله الشاكي إليه أن قومه لا يؤمنون، وقيله: مصدر قال يقول قولًا وقيلةً.

وقوله: ﴿فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ وَقُلۡ سَلَٰمٞۚ﴾، هذا جواب الله لشكوى رسوله من عدم إيمان قومه، أمره أن يعرض عنهم ولا يتألم لذلك، فليس مسؤولًا عن إدخال الإيمان إلى قلوبهم، **وقل لهم**: سلام؛ كقوله: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ٦٣﴾[الفرقان:٦٣]، وليس المقصود به رد السلام على الكافر، فقد جاء النهي عن ذلك، بل معناه سلّمنا الله من شركم، لأنه ليس بيدك من القوة ما تردهم بها إلى الحق.

ويرى بعض أهل العلم(١) أن هذه الآيات وأمثالها التي فيها الصفح والإعراض ونحوها، أنها قد نُسخت بآية السيف.

والراجح أن كل آيات الصفح والعفو والإعراض مُحكمة، وآيات السيف أيضًا محكمة، وكل نوع منها يعمل به بحسب الحالة التي عليها المسلمون، فآيات الإعراض والصفح يعمل بها عندما يكون المسلمون في حالة ضعف، وآيات السيف يعمل بها حينما يكون المسلمون في حالة قوة.

وقوله: ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ٨٩﴾، هذا تهديد ووعيد من الله للكفار، بأنه سوف

---

(١) ينظر: تفسير البغوي - إحياء التراث (٤/ ١٧١) وغيره.

يُعاقبهم على كفرهم وتكذيبهم برسول الله ﷺ، وقد حصل لهم شيء من العقوبة في بدر والخندق وغيرها، وعذاب النار في الآخرة ينتظر من مات منهم على الكفر.

فوائد وهدايات من هذه الآيات:

١- يأس الكفار من الخروج من النار.

٢- كراهة الحق خطرٌ عظيم، ويُخشى على صاحبه أن يكون من أهل النار.

٣- أن المكر الذي يفعله الماكرون يعود عليهم ولو بعد حين.

٤- اختصاص الله تعالى بعلم وقت قيام الساعة.

٥- توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية.

تفسير سورة الدخان

تفسير المقطع الأول من سورة الدخان

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ
۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ
هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٧ لَآ
إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ
۝٩ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝١٠ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١١
رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ۝١٢ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ۝١٣ ثُمَّ
تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ۝١٤ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ۝١٥ يَوْمَ نَبْطِشُ
ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ۝١٦﴾.

شخصية السورة:

سورة الدخان[1]؛ سورة مكية[2]، نزلت قبل الهجرة، **وسُميت بهذا الاسم**

(١) وآياتها تسع وخمسون في الكوفي وسبع في البصري وست في عدد الباقين، ينظر: روح المعاني، للألوسي، (١٣/ ١٠٩).

(٢) ينظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، (٥/ ٦٨).

لذكر لفظة الدخان فيها، **ومن مقاصد هذه السورة** بيان ما كان عليه المشركون من كفر وتكذيب، وبيان ما ينتظرهم من العقوبة العاجلة والآجلة بسبب كفرهم وتكذيبهم.

وقد بدأت السورة بحرفي ﴿حمٓ﴾، **الحاء والميم**: من حروف الهجاء التي تتكون منها لغة العرب، **وذكرها الله** سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ في بداية بعض السور، إشارةً إلى بلاغة القرآن الكريم، فهو مكوّن من هذه الحروف التي تتكون منها لغة العرب، إلا أنه بليغ ومُعجِز.

وقوله: ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ٢﴾، **الواو** أداة قسَم، **والكتاب المبين** مُقسَمٌ به، **وللمفسرين قولان في المقصود بالكتاب، قيل**: هو اللوح المحفوظ الذي هو أم الكتاب وسُجلت فيه مقادير الخلق قبل خلق السموات والأرض[1]، **وقيل**: هو القرآن[2] المبيّن فيه ما يحتاج الناس إليه من حلال وحرام وغير ذلك من الأحكام، **وهو الراجح، بحسب سياق ما بعده، وهو قوله**: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍ﴾، **وهذا جواب القسم**، والذي أنزل في الليلة المباركة هو القرآن الكريم.

والليلة المباركة هي: ليلة القدر، وهي ليلة من ليالي الوتر من العشر الأواخر من شهر رمضان، بحسب النصوص الواردة في ذلك[3]، وقد أنزل الله القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا في ليلة

(١) ينظر: غرائب التفسير وعجائب التأويل، لمحمود بن حمزة بن نصر: (٢/ ١٠٥٩).

(٢) ينظر: جامع البيان، لابن جرير الطبري (٢١/ ٥٦٢).

(٣) رواه البخاري: (٣/ ٤٧)، برقم: (٢٠٢١).

القدر، **وابتدأ نزوله على رسول الله** ﷺ أيضًا في ليلة القدر، بالآيات الخمس الأولى من سورة العلق، وكان ذلك في ليلة خمسٍ وعشرين من شهر رمضان، **ثم استمر يتنزل على قلب النبي** ﷺ ثلاثًا وعشرين سنة، بحسب الأحوال والأحداث، والليلة تبدأ من غروب الشمس إلى طلوع الفجر، **وليلة القدر** تتكرر في رمضان من كل عام، وتتنقل بين الليالي منه، **وأُخفي تحديد موعدها**؛ حتى يتنافس الناس ويجتهدوا في البحث عن أجرها وثوابها في كل الليالي، لقوله ﷺ: **"من قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا غُفر له ما تقدم من ذنبه"**(١).

وفي ذلك مزية وشرف للقرآن الكريم، حيث اختار له شرف الزمان وهو: ليلة القدر، **وشرف المكان وهو**: مكة شرّفها الله، **وشرف الحامل له وهو**: جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، **وشرف المنَزّل عليه وهو**: محمد ﷺ، **وشرف الأمم وهي**: أمة محمد ﷺ، خير أمة أخرجت للناس.

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣﴾، بيانٌ لبعض غايات إنزال القرآن وهو التعليم والتخويف من عذاب الله، ولا شك أن القرآن الكريم قد احتوى آيات كثيرة، لو قرأها الإنسان بتفكر لانخلع قلبه من شدة ما تحمله من معانِ الإنذار والتخويف.

ثم قال: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤﴾، أي في ليلة القدر يُفصل كل أمرٍ ذي حكمة، لا يغير ولا يبدل، من أمور الكون الشرعية التي تتعلق بالأمر والنهي والحلال والحرام، أو الأمور الكونية التي تتعلق بالخلق والإيجاد والمصائب

(١) رواه البخاري: (٣/ ٢٦)، برقم: (١٩٠١)، ومسلم (١/ ٥٢٣)، برقم: (٧٦٠).

والأمراض وغيرها، فكل هذه الأوامر تصدر في هذه الليلة من كل عام، **وأنواع التقدير أربعة:**

الأول: ويُسمى التقدير الأزلي؛ وهو الذي تم قبل خلق السموات والأرض، فخلق القلم وأمره أن يُكتب كل أقدار الخلق في اللوح المحفوظ، كما جاء في الحديث: **"أول ما خلق الله القلم قال له: اكتب، قال: ما أكتب؟ قال: اكتب ما كان وما يكون إلى قيام الساعة"**(١).

الثاني: التقدير العمري؛ وهذا يشمل عمر الإنسان كله، لكنه خاص بكل شخص، كما جاء الحديث: **"إن أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يومًا، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله إليه ملكًا بأربع كلمات، فيكتب عمله، وأجله، ورزقه، وشقي أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح"**(٢)، فيُستخرج من اللوح المحفوظ ما يخص الشخص من أقدار في عمره كله.

الثالث: التقدير السنوي؛ وهو ما يتم في هذه الليلة المباركة، ليلة القدر، فيُستخرج من اللوح المحفوظ ما يخص تلك السنة من الأقدار لعموم الخلق.

الرابع: التقدير اليومي؛ كما في قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾[الرحمن:٢٩]، وهذا هو ما يحدث في ذلك اليوم من أقدار مكتوبة في اللوح المحفوظ، فانتظمت أنواع التقديرات ودخلت بعضُها في بعض، ولكنها لا تخرج عن التقدير الأزلي المكتوب في اللوح المحفوظ.

---

(١) رواه أبو داود: (٤/ ٢٢٥)، برقم: (٤٧٠٠) وصححه الألباني.

(٢) رواه البخاري، (٤/ ١١١)، برقم: (٣٢٠٨)، ومسلم (٤/ ٢٠٣٦)، برقم: (٢٦٤٣).

ثم قال: ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥﴾، فالأمر كله مصدره الله، سواءً كان كونيًا أو شرعيًا، إنا كنا مُرسِلين إلى الناس الرسل، ومنهم محمد ﷺ.

ثم قال: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦﴾، **أي:** إن إرسالنا الرسول وإنزالنا القرآن الكريم، إنما هو رحمة من الله بالخلق، فحاجة الناس إلى إرسال الرسل وإنزال الكتب، أعظم من حاجتهم إلى الأكل والشرب، ففيها صلاح أحوالهم في الدنيا والآخرة، وأتى بالاسم الظاهر مكان المضمر، ليدل على معنى بليغ، وهو أن ربوبية الله اقتضت رحمته لخلقه، فهو الذي أوجدهم ورباهم ورعاهم ثم رحمهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب عليهم لهدايتهم إلى الحق، **والسميع**: صيغة مبالغة من السمع، **والعليم**: صيغة مبالغة من العلم، وجمع بينهما؛ ليشعر بأنه يسمعُ كلام من تكلم، فإن سكت علم ما في صدره، وهذا هو حال الخلق.

ثم قال: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٧﴾، وهو السموات والأرض وما بينهما من عوالم كثيرة لا تُعد ولا تُحصى، إن كان عندكم يقين بربوبية الله، فهو المستحق للعبادة وحده لا شريك له، لأن من كان هذا وصفه فهو الإله وحده، وهذا يدل على أن التفكر في مخلوقات الله يُوصل العبد إلى درجة اليقين بأن الله هو الإله الحق، ولذلك أمرنا الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ أن نتفكر في هذا الكون، ذلك الكتاب المفتوح الذي يدل على عظمة الله وقدرته.

ثم قال: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨﴾، فهو المستحق للعبادة وحده، وهو الإله الذي يُعبد بحق، وإن عُبدت آلهة غيره فقد

عُبدت بالباطل، فهي لا تخلق ولا ترزق ولا تحيي ولا تميت، فمن يُحيي الخلق من العدم، ويُميتهم بعد أن أوجدهم، هو من يستحق العبادة، وهذا الفعل لا يملكه إلا الله وحده، فالإحياء والإماتة حق لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ومظاهر ذلك تراها في كل جوانب الحياة، وهو ربكم وهو ربُ آبائكم الأولين.

ثم قال: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ٩﴾، بيان لحال الكفار وأنهم لم يصلوا إلى درجة اليقين في استحقاق الله للعبادة وحده لا شريك له، فهم ما زالوا في مرحلة الشك، وهم غير جادين في التفكير للوصول إلى الحق، بل يعيشون حياة الغفلة واللهو، ولو فتح قلبه وعقله للتفكر؛ لاهتدى.

ثم قال: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ١٠﴾، فانتظر يا محمد! هؤلاء المكذبين حين تأتي علامة من علامات نزول العذاب بهم، وهذه العلامة هي الدخان المبين الذي يرونه بأعينهم.

وقد اختلف المفسرون على قولين في معنى الدخان وزمانه، القول الأول[1]:

إنه في الدنيا، وقد وقع لأهل مكة المكذبين من قريش، حين دعا عليهم بالقحط والسنين، وقال: **"اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف"**[2]، فانقطعت عليهم الأمطار، وذهبت الزروع والثمار، حتى كادوا أن يموتوا من الجوع، فكان أحدُهم يرى ما بينه وما بين السماء على هيئة دخان من شدة جوعه، فلما اشتد عليهم ذلك، جاؤوا إلى النبي ﷺ، وقالوا له: نناشدك الله والرحم، أن ترفع عنا ذلك،

(١) ينظر: جامع البيان، لابن جرير الطبري (٢١/ ١٣).

(٢) رواه البخاري، (٦/ ١٣١) برقم: (٤٨٢١)، ومسلم (٤/ ٢١٥٦)، برقم: (٢٧٩٨).

ونُؤمن لك، فدعا الله فرُفع عنهم ذلك، ولكنهم عادوا مرةً ثانية إلى الكفر.

والقول الثاني(١): إن الدخان لم يأت بعد وأنه آية من آيات قيام الساعة، كما في الصحيح(٢): **"لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات بينات" وذكر منها**: الدخان، **وقال**: **"يأتي الناس دخانٌ عظيم فيكون على المؤمنين كما يُشبه الزكام، وأما الكفار فيدخل من مناخرهم وأدبارهم وعيونهم حتى يُهلكهم"**(٣)، وعلى أثره تكون الساعة، فهو أول علامات الساعة، **ومالَ بعض من المفسرين**(٤) إلى القول الثاني، **وبعضهم**(٥) **مالَ إلى القول الأول**، ولكل قول قرائن تؤيده، كما سيأتي.

وكان ابن مسعود يرى أنه الدخان الذي أصاب قريشاً(٦)، **وكان ابن عباس**: يرى أنه دخان يوم القيامة الذي هو من علامات الساعة(٧).

وقوله: ﴿يَغْشَى النَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾، **أي**: يُصيب الناس جميعًا، وهذا من ضمن ما استدل به ابنُ عباس أنه يوم القيامة، فالعذاب الأليم هو الشديد، ولا يوصف به إلا عذاب يوم القيامة.

وقوله: ﴿رَّبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾، وهذا مما استدل به ابن

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير، ت سلامة: (٧/ ٢٤٧).

(٢) رواه مسلم، برقم: (٢٩٠١).

(٣) رواه البخاري (٦/ ١١٤)، حديث رقم (٤٧٧٤) عن مسروق، بنحوه.

(٤) ينظر: تفسير ابن كثير ت سلامة (٧/ ٢٤٨).

(٥) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢٢/ ١٩).

(٦) ينظر: المصدر السابق: (٢١/ ١٤).

(٧) ينظر: تفسير البغوي، (٧/ ٢٢٩).

مسعود أن العذاب دنيوي وبإمكانهم الإيمان إذا كشف عنهم، أما ابن عباس فيرى أن هذا حكاية عن قول الكفار حال نزول العذاب بهم يوم القيامة، وهو تنبيه للناس الآن، فطالما سيكون فيه عذاب أليم للكفار يوم القيامة ويتمنى الكافر أن يكشف عنه ليعود إلى الدنيا ويؤمن؛ فليؤمن اليوم.

ثم قال: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾﴾، وهذا يدل على أنها يوم القيامة، حيث لا ينفع الإيمان، فقد انتهى وقت العمل، وجاء وقت الجزاء، وكان بإمكانهم الإيمان في الدنيا حين دعاهم الرسول إليه.

وقوله: ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾﴾، ولكنهم كفروا به وأعرضوا عن طاعته، واتهموه بتهمتين: أنه عُلّم هذا القرآن من غيره، وإنه مجنون.

والعجيب أنهم نسبوا هذا التعليم إلى رجل لا يعرف اللغة العربية، ولذلك قال الله رداً عليهم: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾[النحل:١٠٣]، فهي تهمة باطلة، وشبهة عارية عن الحجة، فلا هو مُعَلّم، ولا هو مجنون، ولا هو ساحر، ولا كاهن، ولا شاعر، فكلها اتهامات باطلة لرسول الله ﷺ، هو بريء منها.

ثم قال الله: ﴿إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾﴾، معنى هذا أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ علم منهم عدم الإيمان، وأن دعاءهم إنما هو دعاء مضطر وليس دعاء متيقن ومقبل على الإيمان، ولو رفع عنهم العذاب لعادوا للكفر مرة أخرى. **وهذا من قرائن ابن مسعود** أن الآية في قريش، ثم هددهم بقوله: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾، **والبطشة الكبرى عند ابن مسعود هي**

غزوة بدر[١]، فقد حصل لعدد كبير من قريش الهلاك والانتقام، **ويرى ابن عباس أن البطشة الكبرى** هي العذاب الذي سيكون يوم القيامة لمن كفر وكذب بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ[٢].

والذي يظهر لي هو عدم التعارض المطلق بين قولي ابن مسعود وابن عباس، ولم يستبعد ابن جرير الطبري[٣] أن كلا المعنيين محتمل في معنى الآية، وهو كما قال، **فيمكن أن يقال بوجود دخانين أحدهما**: ما أصاب قريش، **والآخر**: سيكون قبل يوم القيامة، خاصة إذا صح سبب نزول الآية في قريش، والله أعلم.

فوائد وهدايات من هذه الآيات:

١ - أن الله شرّف القرآن وشرّف أهله، وما تشاهدون اليوم من حال العرب في تفرقهم وتمزقهم وتخلفهم هو أثر من آثار تضييعهم للقرآن.

٢ - أن ليلة القدر؛ هي الليلة المباركة، وذلك لكثرة بركاتها.

٣- أن بعثة الرسل وإنزال الكتب مظهر من مظاهر رحمة الله بالخلق.

٤ - أن الدخان علامة من علامات قيام الساعة.

---

(١) ينظر: تفسير البغوي: (٧/ ٢٣٠).

(٢) ينظر: جامع البيان، لابن جرير الطبري (٢٢/ ٢٣).

(٣) ينظر: المصدر السابق: (٢٢/ ١٩).

تفسير المقطع الثاني من تفسير سورة الدخان

﴿۞ وَلَقَدۡ فَتَنَّا قَبۡلَهُمۡ قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَ وَجَآءَهُمۡ رَسُولٞ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنۡ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ
ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعۡلُواْ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي
وَرَبِّكُمۡ أَن تَرۡجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ لِي فَٱعۡتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ مُّجۡرِمُونَ ﴿٢٢﴾
فَأَسۡرِ بِعِبَادِي لَيۡلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوًاۖ إِنَّهُمۡ جُندٞ مُّغۡرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمۡ تَرَكُواْ
مِن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ﴿٢٦﴾ وَنَعۡمَةٖ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَۖ
وَأَوۡرَثۡنَٰهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدۡ نَجَّيۡنَا
بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرۡعَوۡنَۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيٗا مِّنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ
ٱخۡتَرۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ عِلۡمٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيۡنَٰهُم مِّنَ ٱلۡأٓيَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٞاْ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ إِنَّ
هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنۡ هِيَ إِلَّا مَوۡتَتُنَا ٱلۡأُولَىٰ وَمَا نَحۡنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمۡ
صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمۡ خَيۡرٌ أَمۡ قَوۡمُ تُبَّعٖ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ مُجۡرِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا قَبۡلَهُمۡ قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَ﴾، **الواو** استئنافية، **والفتنة** هي الابتلاء والاختبار بالخير والشر، ولا شك أن ابتلاء الله قوم فرعون كان بالأمرين معًا، وقد كانوا من حيث التاريخ قبل قريش.

وقوله: ﴿وَجَآءَهُمۡ رَسُولٞ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾﴾، **أي:** جاء إلى قوم فرعون رسولٌ كريم،

وهو موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ووصف هنا بصفة الكرم المطلق، فهو كريم في أخلاقه، وكريم في تعامله، وكريم في نسبه وأصله، فمطلق صفة الكرم واضحة فيه في جميع جوانب حياته، كيف لا والله يقول فيه: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾﴾ [طه:٤١].

وقوله: ﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿١٩﴾﴾، **وكانت مهمة إرسال موسى** عَلَيْهِ السَّلَامُ **إلى فرعون وقومه في أمرين، الأول:** أن يتركوا بني إسرائيل وشأنهم، ويمكنوا موسى من دعوتهم وتربيتهم، كما قال: ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٠٥﴾﴾[الأعراف:١٠٥]، وقد كان بنو إسرائيل مستضعفين لدى فراعنة مصر، وهم بقايا ذرية يوسف وإخوانه الذين أدخلهم إلى مصر وقت السنين القحط التي حصلت في أيام يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، وفصلتها سورة يوسف.

والثاني: أني مرسلٌ من الله إليكم، أدعوكم إلى عبادة الله وتوحيده، وهذا يدل على أن رسالته كانت إلى هؤلاء القوم وليست عامة، وفي الحديث: **"كان الرسول يُبعث في قومه خاصة، وبُعثت إلى الناس عامة"**(١)، فأنا مؤتمن على بلاغ هذه الرسالة إليكم، ومقتضى الأمانة أن يُبلغ الوحي كما أنزل لا زيادة فيه ولا نقصان، وحذرهم من التكبر بترك عبادة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والاستعلاء على خلق الله، فقد جاءهم بحجة وبرهان واضحة وهي المعجزة، وقد كانت في العصا التي تحولت إلى ثعبان وإدخال يده في شق القميص الذي في صدره ثم يخرجها بيضاء من غير مرض ولا علة.

(١) رواه البخاري، (١/ ٧٤)، برقم: (٣٣٥).

ثم قال لهم: ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾﴾، لما كفروا به وكذبوه واستمروا في أذيته استعاذ بالله ولجأ إلى الله، رب الجميع، وفيه إشعار أن فرعون ليس برب ولا إله.

والرجم(١): قد يكون معناه الكلام السيء باللسان من سب وشتم ولعن ونحوه، وقد يكون الرجم بالحجارة، وقد استعاذ موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بربه سبحانه من أن يُؤذوه بهذا أو بذاك، فأعاذه الله منهم.

ثم قال لهم: ﴿ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾﴾، **أي:** اتركوني وشأني أدعو بني إسرائيل إلى الإيمان، لأنهم لم يؤمنوا به ولا تركوه يدعو بني إسرائيل ليؤمنوا به، بل كانوا يُخوفونهم بالعقوبة لو آمنوا بموسى، كما قال الله: ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾[يونس:٨٣]، **أي:** آمن به قلة، وهم خائفون بسبب البطش والنكال الذي كان يفعله بهم آل فرعون.

وقوله: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾، فاستمر يدعوهم فترة من الزمن حتى يأس من استجابتهم، فدعا ربه أن يُنجيه وبني إسرائيل، وأن يُهلك فرعون وجنوده، فقد بلغوا من الإجرام غايته، وأعظمه الكفر والشرك بالله تعالى، فضلًا عن أذية الخلق، فاستجاب الله دعاء موسى بهلاك فرعون وقومه وجنوده.

---

(١) ينظر: تاج العروس (٣٢/ ٢١٨).

وأمر الله موسى أن يخرج ببني إسرائيل من مِصر ليلًا على وجه السِر، فقال له: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾، وأبلغه أن فرعون إذا علم بخروجكم لن يترككم بل سيتبعكم وسيلحق بكم، وفعلاً لحق بهم فرعون عند شروق الشمس، كما قال: ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ﴾[الشعراء:٦٠]، وكان بإمكان فرعون أن يتركهم، أو أن يُرسل جنودًا لملاحقتهم ويبقى هو في مصر، ولكن سبحان الله! ذلك تدبير الله، أبى إلا أن يخرج بنفسه ليقود الجيش، كما قال: ﴿فَلَمَّا تَرَاءَا الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ [الشعراء:٦١-٦٢]، فأوحى الله إلى موسى أن يضرب البحر بعصاه، فشُق له في البحر اثنا عشر طريقًا؛ لأن بني إسرائيل كانوا اثني عشر فخذًا، وكان بينهم من العداوة ما لا يجعلهم يجتمعون في طريق واحد، ولا يشربون من عين واحدة، ثم نظر موسى إلى فرعون قد لحق به.

فأراد أن يضرب البحر مرة ثانية ليعود كما كان، فقال الله له: ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾﴾، اترك البحر ساكنًا كما هو عليه ولا تضربه، وفعلًا تركه كما هو، وجاء فرعون فوجد اثني عشر طريقًا فدخل فيها، ولم ينتبه أن هذه معجزة لموسى ولقومه، فعاد البحر كما كان والتئم ماؤه مع بعضه، وغرق فرعون وجنوده، واختصر قصتهم هنا وفصّلها في سور أخرى.

ثم قال: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾﴾، **السؤال هنا تعجبي** لكثرة نعم الله عليهم، من الجنات وهي البساتين المتنوعة، **والعيون** وهي الأنهار، **والزرع** وهو ما يقتاتونه من الحبوب،

والقصور التي كانوا يقيمون فيها، وعيشهم الرغيد الذي كانوا عليه، وغيرها من النَعم كانت سبب سرورهم، والنَّعمة ماذا؟ **هناك نَعمة ونِعمة، ما الفرق بين النعمة بالفتح والنعمة بالكسر؟** **النَّعمة بالفتح** من التنعُّم، **والنِّعمة بالكسر** من الإنعام[1]، فهؤلاء كانوا متنعمين، قد ظهرت آثار النعمة عليهم في أكلهم وشربهم وملبسهم ووجوههم، والسرور ظاهر عليهم بسببها.

ثم قال الله: ﴿كَذَٰلِكَۖ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ٢٨﴾، **أي:** من ملك مصر بعد القبط[2]، **وقيل:** إنهم بنو إسرائيل[3]، كما في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٥٩﴾[الشعراء:٥٩]، وضعّف هذا القول ابن عطية[4]؛ معللاً ذلك بأنه لم يرو أن بني إسرائيل رجعوا إلى مصر في شيء من ذلك الزمان ولا ملكوها قط، **ووافقه على ذلك ابن عاشور**[5].

وأن المراد ليس أرض مصر، وإنما ورثوا النعمة التي كانت مع فرعون، فانتقلت إلى بني إسرائيل في الأرض التي نزلوا فيها.

ثم قال: ﴿فَمَا بَكَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ٢٩﴾، وهل تبكي السماء والأرض على الشخص إذا مات؟ **نعم**، ولكن كيفية بكائها لا يعلمها إلا

---

(١) ينظر: تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٤/ ٢٧٦).
(٢) ينظر: تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥/ ٧٣).
(٣) ينظر: الوجيز للواحدي (ص: ٩٨٤)، وتفسير ابن كثير ت سلامة (٧/ ٢٥٣).
(٤) ينظر: تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥/ ٧٣).
(٥) ينظر: التحرير والتنوير (٢٥/ ٣٠٣).

الله، **وفي الحديث**: أن "ما من إنسان إلا وله بابٌ في السماء ينزل منه رزقه ويطلع منه عمله الصالح، فإذا مات أُغلق هذا الباب فيبكي عليه بابُه الذي أُغلق"(١).

وقد يكون البكاء بمعنى: الحزن عليه، فهؤلاء لم يكن معهم عمل صالح يصعد إلى السماء، ولا عبادات في الأرض تفتقدها بموتهم، فما تأثرت عليهم لا السماء ولا الأرض، **وقيل**(٢): هو أسلوب فيه تهكم بهم وبحالهم المنافية لحال من يعظم فقده، وهو دليل على حقارتهم وعدم مكانتهم عند الله وعند خلقه، وما كانوا مؤخرين، بل جاءهم أجلهم، فقُضي عليهم.

ثم قال: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾، فبدأ يعدد نعمه على بني إسرائيل، فقد نجاهم مما كانوا فيه من العذاب المهين للأنفس، وهو ما كان يفعله بهم آل فرعون، كما قال: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾[البقرة:٤٩]، ونجاهم من فرعون ذلك المتعالي المتكبر المتجاوز للحدود في فعل الكفر والمعاصي والمنكرات ونحوها.

ثم قال الله عن بني إسرائيل: ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾﴾، يختار الله من أهل كل زمان خلقًا معينًا يفضلهم على غيرهم، وفي عصر بني إسرائيل كانوا هم أحسن الموجودين، فاختارهم في أن يكونوا محلاً لرسالته

(١) أخرجه والترمذي، برقم: (٣٢٥٥)، وأبو يعلى (٧/ ١٦٠)، والطبراني في المعجم الوسيط: (٦/ ٢٩٦)، برقم: (٦٤٥٩)، وإسناده ضعيف.

(٢) ينظر: تفسير الزمخشري: (٤/ ٢٧٧).

كقوله: ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[الجاثية:١٦]، أي عالم زمانهم.

وقولـه: ﴿وَءَاتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاؤٌا مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾﴾، والآيـات التـي منحها الله لبني إسرائيل هي غير الآيات التي جاء بها موسى لفرعون، فآيات موسى لفرعون هي معجزاته كالعصا واليد والجراد والقمل والضفادع والدم، ونحوها، أما الآيات التي منحها الله لبني إسرائيل كشق البحر، وإنزال المنّ والسلوى عليهم، وتظليلهم بالغمام، ونحوها من النعم، وهذه النعم هي نوع من الاختبار البين الواضح لهم، هل يشكرون الله عليها أم لا؟!!

ثم قـال: ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٦﴾﴾، **القائلون هم** كفار قريش؛ والخطاب موجه لهم من قبل، وكانت قصة موسى وقومه، جملة معترضة، ذكرها الله لقريش للعظة والعبرة، وقولهم هذا يدل على أنهم ما زالوا مصرين على إنكار البعث والنشور، بحجة باطلة وهي: إن كنتم صادقين في إثبات البعث والنشور؛ فابعثوا لنا آباءنا الذين ماتوا قبل فترة، حتى نراهم أحياء، وهذا فهم سقيم فالحديث ليس عن بعث يحصل في الدنيا، بل عن بعث يحصل يوم القيامة للحساب والجزاء، والله قادر على إحياء الموتى في الدنيا، وقد أخبركم في قصص كثيرة أنه بعَثَ أناساً في الدنيا كأصحاب الكهف، وقصة عزير وحماره، ونحوها.

ثم قال مخاطباً مشركي مكة: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾، هل هم خير أم قوم تبّع، **وتُبع** اسم حميري يطلق على من يملك اليمن، **والمقصود به هنا** تُبع

الأوسط أبو كُريب أسعد الحميري اليماني الذي كان في الفترة بين موسى وعيسى، وكان مشركًا ثم اهتدى للإسلام على دين موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقد ملك اليمن ووصل ملكه إلى الحيرة في العراق، ومرّ بمكة وطاف بالبيت وكسى الكعبة وهو أول من كساها، ومرَّ على يثرب وقال له من معه من علماء اليهود: إن هذه المدينة سيهاجر إليها نبيٌّ، فعظمها، ولما ذكروا له اسم محمد، قال أبياتًا من الشعر فيه، خلاصتها؛ لو بُعث وهو حي لاتبعه وأسلم معه، كان أهل المدينة يحفظونها إلى بعثة محمد ﷺ[١].

وقال النبي ﷺ في أول أمره عنه: **"لا أدري أتبّع رجل صالح أم لا"**[٢]، ثم أوحى الله إليه بحاله، فقال: **"لا تسبوا تبّعًا فإنه كان قد أسلم"**[٣]، وقد ذكره الله في موضعين في القرآن فقط، هنا وفي سورة ق، وذم قومه لأنهم كفروا به، فأهلك الله قومه ونجاه، وإنما ذكر قوم تُبع لقريش؛ لأنه من قحطان، وقريشًا من عدنان، فهم أبناء عمومه، ولأنهم في جزيرة العرب مثلهم، ولأنهم من آخر الأمم التي أُهلكت ولم يهلك بعدهم أحد، فكان في ذلك عظة وعبرة لقريش.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾، وأشار إلى باقي

---

(١) ينظر: تفسير الطبراني (١٦/ ١٤٥).

(٢) رواه أبو داود (٧/ ٦٥)، (٤٦٧٤)، وصححه الألباني، في السلسلة الصحيحة (٥/ ٢٥١)، برقم: (٢٢١٧).

(٣) رواه أحمد (٣٧/ ٥١٩)، برقم: (٢٢٨٨٠)، وصححه الألباني، في صحيح الجامع (٥/ ٥٤٨)، برقم: (٢٤٢٣).

الأقوام الكافرة كقوم عاد وصالح وغيرهم التي كانت قبل قوم تبع، وبيّن أنه أهلكهم جميعًا بسبب كفرهم وتكذيبهم، فقد كانوا بلغوا من الإجرام غايته، وفي هذا تحذير لقريش إن ساروا بسيرتهم.

فوائد وهدايات من هذه الآيات:

١ - أهمية لجوء العبد إلى الله ودعائه، فالدعاء سلاح المؤمن على أعدائه.

٢- مشروعية الدعاء بالهلاك على الكافر المكذب المؤذي المعتدي، والدعاء بالهداية للكافر غير المؤذي.

٣- أن الكون يعيش مع المؤمن يفرح لفرحه ويحزن لموته، وأن الكافر لا مكانة له ولا قيمة.

٤- الفهم السقيم عند المشركين لقضية البعث والنشور، فالحديث ليس عن بعث يحصل في الدنيا، بل عن بعث يحصل يوم القيامة للحساب والجزاء.

تفسير المقطع الثالث من سورة الدخان

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ
وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى
عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ
شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ
﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾
ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى
مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ
﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا
يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن
رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ
إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

قوله الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾، **المعنى** أن الله خلق السموات والأرض لحكمة وغاية، وهي تحقيق التوحيد وإقامة العدل بين الخلق، كما قال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ [ص:٢٧]، **وأكّد ذلك بقوله:** ﴿مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾، ما

خلقناهما إلا لإحقاق الحق وإقامته في الخلق، ولكن أكثر الناس، وهم المشركون، لا يعلمون الحكمة والغاية من ذلك، وهذا يدل على أن القليل من الناس، وهم المؤمنون يعلمون الحكمة، فمن وفقه الله ونظر في هذا الكون علم الحكمة من خلقه.

ثم قال: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَـٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾﴾، **يوم الفصل:** هو يوم القيامة، **وسُمي بذلك؛** لأن الله يفصل فيه بين العباد، **والميقات هو** الزمن المحدد مسبقًا في علم الله، الذي يجتمع فيه الخلق أجمعين للحساب والجزاء، وهو من آثار الغاية من الخلق؛ فالحياة لا تنتهي بانتهاء الحياة الدنيا، بل تبدأ حياة جديدة بعدها هي امتداد لما قدمه الخلق لها في الدنيا.

ثم قال: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾، هذا بيان لحال الخلق يوم القيامة، لا يغني قريب عن قريبه، ولا صديق عن صديقه، ولا صاحب عن صاحبه، كما قال: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾[عبس:٣٧]، **والمقصود بالخطاب هنا عموم الخلق.**

ثم استثنى منهم المؤمنين، فقال: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾﴾، استثنى الله من هذه الحال من وقعت عليه رحمة الله من الخلق، وهم المؤمنون، فإنهم يشفعون في أقاربهم، وختم الآية بذكر اسمين من أسمائه الحسنى، فالعزيز الذي كمُلت قوته وعزّ جاهه؛ فعذب وبطش بالكفار، والرحيم الذي رحم عباده المؤمنين ولطف بهم، فإن الناس في الحشر مؤمن وكافر، فالكافر ينال عقابه بعدل الله وعزته وقدرته، والمؤمن ينال ثوابه بفضل الله ورحمته، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ثم بيّن سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ ما ينتظر الكفار في جهنم، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ٤٣ طَعَامُ ٱلۡأَثِيمِ ٤٤﴾، **هذه الشجرة** من أخبث أنواع شجر البادية، وتعرفها قريش، وهي شجرة رائحتها نتنة، وطعمها شديد المرارة، فما بالك بشجرة تنبت في النار، كما قال: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٞ تَخۡرُجُ فِيٓ أَصۡلِ ٱلۡجَحِيمِ ٦٤ طَلۡعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ٦٥﴾[الصافات:٦٥-٦٦]، ثمارها من شدة قبحها تشبه رؤوس الشياطين، وهو نوع من التخيل للشياطين عند العرب، لأنهم لم يروها من قبل، ولكنهم يتخيلونها في أقبح صورة، والأثيم هو الكافر الذي وقع في الإثم العظيم، وهو الشرك بالله تعالى، فإذا أكلوا منها كانت: ﴿كَٱلۡمُهۡلِ يَغۡلِي فِي ٱلۡبُطُونِ ٤٥ كَغَلۡيِ ٱلۡحَمِيمِ ٤٦﴾، **والمُهل، قيل**: النحاس المذاب من شدة حرارته[١]، **وقيل**: الزيت المغلي[٢] الذي يتحول إلى كُريات متحركة من شدة غليانه، يستمر الغليان في بطون من أكلها، كالماء الحار الذي تطلع منه فقاعات من شدة غليانه، وهو تشبيه بليغ لحال معدة الكافر وأمعائه أثناء وصول هذا المُهل إليه واستقراره فيها.

ثم قال سبحانه: ﴿خُذُوهُ فَٱعۡتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ ٤٧﴾، هذا أمرٌ لزبانية جهنم أن يأخذوا هذا الأثيم الفاجر، والعَتْلُ[٣]: هو الدفع بشدة وقوة من الخلف، بحيث يساق سوقًا شديدًا ويُلقى في منتصف النار الذي تكون النار فيه أكثر اشتعالًا.

---

(١) ينظر: زاد المسير، لأبي الفرج ابن الجوزي (٣/ ٨١).

(٢) ينظر: جامع البيان، لابن جرير الطبري، (٢٢/ ٤٤).

(٣) ينظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٥/ ١٧٥٨).

ثم قال: ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾﴾، لم يُكتف باحتراقه من أسفل بالنار المشتعلة، بل يُصب عذاب الحميم على رأسه؛ فينزل إلى أطراف قدميه، وهذا هو العذاب الحسي، وهناك عذاب معنوي له، وهو الكلام الجارح والتوبيخ الذي يسمعه الكافر المعذب من الملائكة، فيقولون له: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾، **ذُق**، هذه الكلمة تقال مع الطعامٍ الطيب، ذُق العسل، ولكنها هنا قيلت للعذاب الأليم، وهو نوع من التوبيخ والتهكم، ونادوه بصفتي العزيز والكريم، تهكّمًا، **وقيل أن هذه الآية المقصود بها** أبو جهل[1]، فقد قال له النبي ﷺ في مكة: **"إني أُمرت أن أُنذرك وأقول لك: أولى لك فأولى، أولى لك فأولى"**[2]، فقال: أتقول لي هذا الكلام، وأنا العزيز الكريم، والله لأفعلن بك كذا وكذا. فيُقال له يوم القيامة هذا الكلام؛ ليُذكّروه بما قال لرسول الله في الدنيا، والآية عامة تصلُح لكل كافر، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

ثم قال: ﴿إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾، الخطاب للكفار الذين كانوا في الدنيا يشككون وينكرون البعث والنار، كما قال: ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الطور:١٥]، وهو تقرير لهم بأن البعث حق وأن الجنة حق وأن النار حق.

ثم قال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾﴾، بعد أن انتهى من حال الكفار والمجرمين بهذه الصورة القاتمة المفزعة المخيفة، نقل القارئ إلى حال وصورة حسنة للمؤمنين؛ لكي يقارن بين الحالين، فالمؤمن المتقي في مقام

---

(١) ينظر: المحرر الوجيز، لابن عطية (٥/ ٧٧).

(٢) ينظر: تعظيم الصلاة، للمروزي (١/ ١٣١)، برقم: (٥٦).

أمين، والمَقام هو المكان الذي يقيم فيه، وأمين صفة له، **أي:** مملوءٌ بالأمن الحسي والمعنوي.

ثم بيّن مكانه، فقال: ﴿فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ۝٥٢﴾، فالمقام في الجنات وهي البساتين الكثيفة ذات الأنهار والمياه المستمرة التي لا تنقطع.

ثم قال: ﴿يَلۡبَسُونَ مِن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ۝٥٣﴾، ذكر وصف ثيابهم وأنها من السندس وهو الحرير الرقيق، والإستبرق وهو الديباج الغليظ، والسندس يُلبس غالبًا مما يلي الجلد، والديباج يُلبس غالبًا فوقه، كونه مُوشى ومُزينًا، فلا يُقال له إستبرق حتى يكون عليه الزينة، ويجلس بعضُهم مقابلًا لبعض، وهذا يدل على العلاقة الحميمة بينهم، وانتزاع الغِل من قلوبهم.

ثم قال: ﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ ۝٥٤﴾، وأنعمنا عليهم بنعمة الزواج، فقرنّاهم بالحور العين اللاتي خلقن لهم، **والحور:** هو نقاء البياض، **والعين** جمع عيناء، وهي العظيمة العينين من النساء[1].

ويزوّج كل واحد بما يستحقه من الحور العين، فالشهيد له اثنان وسبعون حورية، كما جاء في الحديث[2]، وغيره له زوجتان من الحور العين[3]، وهؤلاء الحور العين هن زوجاتهم من أهل الجنة من غير زوجاتهم اللاتي كن معهم في الدنيا، وتُنتزع الغيرة من بين النساء ويعشن في سلامٍ ووئام.

(١) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢٢/ ٥٣).

(٢) رواه ابن ماجة (٢/ ٩٣٥)، برقم: (٢٧٩٩)، وصححه الألباني.

(٣) رواه البخاري (٤/ ١١٩)، برقم: (٣٢٥٤).

ثـم قـال: ﴿يَدۡعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ٥٥﴾، **أي:** يطلبـون ممـا تشتهيه الأنفس من الفواكه فتأتي إليهم، فيأكلونها وهم مسرورون وآمنون من الفزع والعذاب والموت، ومن انتهاء النعمة، ومن الخروج من الجنة؛ لأن الإنسان مهما نُعِّم إلا أنه تأتيه مثل هذه الخواطر فتفزعه، فمنح الله أهل الجنة خاصية الأمان فيها.

ثم قال: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلۡمَوۡتَ﴾، فلا يوجد موت في الآخرة سواءً لأهل النار، أو لأهل الجنة، فقد جاء في الحديث: أن النبي ﷺ قال: **"إذا دخل أهلُ النارِ النارَ، ودخل أهلُ الجنةِ الجنةَ، يُؤتى بالموت على صورة كبشٍ، فيُرفع بين أهل النار وأهل الجنة، فيُقال: يا أهل النار ما هذا؟ فيقولون: هذا الموت قد عرفناه، ويقال لأهل الجنة: ما هذا؟ فيقولون: هذا الموت قد عرفناه؛ فيُؤمر به فيذبح، ويُقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت"**[(١)].

وقوله: ﴿إِلَّا ٱلۡمَوۡتَةَ ٱلۡأُولَىٰ﴾، **(إلا) هنا** بمعنى بعد، **أي:** لا يذوقون فيها الموت بعد الموتة الأولى، والموتة الأولى هي التي يغادر بها الناس الحياة الدنيا، فإذا بُعثوا فلا موت، بل خلود في الجنة أو النار.

﴿وَوَقَىٰهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ٥٦﴾، استكمالا لهذا النعيم العظيم في الجنة؛ وقاهم الله من عذاب النار؛ لأن النعمة دفعُ مضرة، وجلبُ منفعة، فدفعُ المضرة في الوقاية من عذاب الجحيم، وجلب المنفعة في دخول الجنة؛ ولذلك يُشرع

---

(١) رواه البخاري، (٦/ ٩٣)، برقم: (٤٧٣٠)، ومسلم، (٤/ ٢١٨٨)، برقم: (٢٨٤٩).

الدعاء بهذين الأمرين(١)، اللهم إني أسألك الجنة وأعوذ بك من النار، ليحصل لك الأمران معـًا.

وقوله: ﴿فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٥٧﴾، **أي:** ما حصلوا عليه من نعيم؛ إنما هو فضلٌ من الله، فإن أعمال العباد لا تُساوي جزاء النعم التي تنعموا بها في الدنيا، فهذه النعم التي أنت فيها لو قيست بعبادتك؛ لكان عندك الزائد من النعم، وإنما يمنح الله الجنة لعباده فضلًا منه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، وذلك اسم إشارة إلى النجاة من النار والنعيم في الجنة، هو الفوز والفلاح الذي لا أعظم منه في جنات النعيم إلا النظر إلى وجه الله العظيم في جنات النعيم.

ثم خُتمت هذه السورة بما بدأت بالإشارة إليه وهو القرآن الكريم، فقال: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٥٨﴾، يسر الله قراءة القرآن بلسان محمد ﷺ، ولسانُه هو أفصحُ الألسنة، **والمقصود بذلك** لغة العرب الفصيحة السهلة المُيسرة التي يعرفها الناس، ونزل القرآن بها؛ لعل المشركين ينتفعون بالقرآن، وتتحرك فيهم الحمية للغتهم، فيكونوا أول من يؤمن به، ولكن إذا حُرم الإنسان التوفيق وقع في الخذلان مهما أثرت فيه من حمية،!!

ثم قال: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ إِنَّهُم مُّرۡتَقِبُونَ ٥٩﴾، **أي:** انتظر وهم ينتظرون، لمن تكون العاقبة، وشتان بين انتظار محمدٍ ﷺ وأصحابه، وبين انتظار المشركين، فالسنّة الكونية أن العاقبة للمتقين، والآية في بدايتها وعدٌ لرسول الله بالنصر، وفي خاتمتها وعيدٌ للكفار بالهلاك، حين يأتي الأجل المكتوب لذلك.

---

(١) ينظر الحديث في مسند أحمد:(٢٥/ ٢٣٤)، برقم:(١٥٨٩٨)، وسنن أبي داود:(١/ ٢١٠).

فوائد وهدايات من هذه الآيات:

١ - أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ خلق هذا الكون لحكمة، وأعظم الحكم والغايات هي عبادة الله وإقامة العدل بين الخلق.

٢ - أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يجمع للكافر بين العذاب الحسي والعذاب المعنوي، من أجل مزيد من التعذيب له.

٣- أن الفوز العظيم هو بالنجاة من النار ودخول الجنة، فليحرص الإنسان على أسباب ذلك.

٤ - أن هذا القرآن مُيسر، يسّره الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ للخلق، فيقرأه الأعجمي ويفهمه، ويستوعبه الطفل ويحفظه.

تفسير سورة الجاثية

تفسير المقطع الأول من سورة الجاثية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٣
وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٤ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ
فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٥ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ
فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝٦ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ
مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٨ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ
عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٩ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ
وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٠ هَٰذَا هُدًى وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ۝١١﴾.

شخصية السورة:

سورة الجاثية[١]؛ سورةٌ مكية[٢]، نزلت قبل الهجرة، تتحدث عن الكون وما فيه

(١) وتسمى سورة الشريعة وسورة الدهر؛ لذكرهما فيها، ينظر: روح المعاني للألوسي، (١٣/ ١٣٦).

(٢) ينظر: المحرر الوجيز، (٥/ ٧٩).

من الآيات الشرعية والكونية، وتنقضُ حجج مُنكري البعث، وتُبطل شبههم.

ابتدأت السورة بقوله: ﴿حمٓ ١﴾، وحم، حرفان من حروف الهجاء يتكوّن منهما القرآن، ومع هذا صرتم عاجزين أمام بلاغته، ولم تأتوا بمثله.

وقوله: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ٢﴾، يخبر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنه نزّل القرآن الكريم على قلب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وأن مصدر هذا الكتاب هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فالقرآن كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وقد سبق معنا في تفسير سورة الدخان، أن التنزيل كان جملة واحدة في ليلة القدر إلى سماء الدنيا، وأن ابتداء تنزيله على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ كان في ليلة القدر، ثم استمر يتنزل ثلاثًا وعشرين عامًا، هي مدة حياته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بعد البعثة.

قوله: (العزيز) في قوته وقدرته فلا يغلبه أحد. **و(الحكيم)** الذي لا يوجد في فعله خللٌ ولا خطأ، بل أفعالُه كلها حكيمة، فذكر هذين الاسمين مع تنزيل الكتاب؛ إشارة إلى سلامة الكتاب من الخلل والنقص والبطلان في أحكامه وأخباره.

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ٣﴾، جعل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للعباد كتابين منظورين: كتاب الكون المفتوح، والكتاب المنزل هو القرآن، وفي هذين الكتابين آيات يدعوان إلى الإيمان، فمن نظر في ملكوت السموات والأرض سيجد آيات وعلامات وبراهين وحجج، تدله على الله الخالق المستحق وحده للعبادة، وهذه الدلائل المبثوثة في الكون ينتفع بها المؤمنون دون غيرهم، لأنهم ينظرون إليها نظرة تأمل وتفكر.

ثم قال: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾، وفي خلق البشر آيات، كما قال: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[الذاريات:٢١]، ولو تأملت في الأجهزة والخلايا التي يتكوّن منها جسمُك، وخاصة اليوم مع تقدم وسائل العلم الحديث؛ لاكتشفت عظمة الله وقدرته في خلق هذا الإنسان!!، وفي ما خلق ونشر من حيوانات تدب وتتحرك في هذا الكون آيات أخرى، وكلما دقَّ وصغُر حجم الحيوان، كلما كان فيه آية أعظم على قدرة الله وعظمته، فلو تأملت في الذرّة، أو في المخلوق الذي يسمى (الفيروس) الذي لا يُرى إلا بالمكبر (الميكروسكوب)؛ لتعجبت من عظيم صنع الله وقدرته!!، ولذا خص الموقنين بالانتفاع من هذه الآيات لدقتها، فالمتأمل فيها يزداد إيمانه ويرتقي إلى أن يصل إلى رتبة اليقين، وهي أعلى مراتب التصديق.

وقوله: ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾﴾ وهذه آيات أخرى تحتاج إلى شيء من التفكر وإعمال العقل فيها، وهي: آية اختلاف الليل والنهار، فالليل يختلف عن النهار في تكوينه ودخوله وخروجه وظلمته ونوره، ويختلفان في عدد الساعات زيادةً ونقصانًا، وآية إنزال الرزق من السماء، وهو المطر، وإحياء الأرض به بعد موتها بالجفاف، وآية تصريف الرياح، وهي تقليبها وتحويلها، فهذه آيات وبراهين وأدلة ينتفع منها من يتفكر ويتدبر، ويُعمِل عقله في تأملها فتدله على الخالق الحكيم الذي يستحق العبادة سبحانه.

ثم قال: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾، لما انتهى من بيان آيات الله

المبسوطة في الكون، أشار إلى الآيات المتلوة في القرآن الكريم على رسوله محمد ﷺ، بصدق لا كذب فيها ولا خلل.

ثم قال: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾، فمن لم يفتح الله قلبه للإيمان بعد سماعه لكلام الله وتأمله في آياته المشتملة على البراهين والأدلة والحجج؛ فلن يدله على التصديق والإذعان شيء آخر، وهو إشارة إلى استبعاد الإيمان ممن حُرم التوفيق وحصل له الخذلان!!.

ثم قال سبحانه: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧﴾، توعد بالهلاك لكل أفاك أثيم.

والأفّاك: صيغة مبالغة من الإفك، وهو الكذب المختلق.

والأثيم: صيغة مبالغة من الإثم، **فالأفّاك** كثير الكذاب، والأثيم كثير الإثم، وهذا دعاء من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وتوعد لمن كان هذا حاله بالويل والثبور، ثم وصف هذا الأفّاك الأثيم بصفتين قبيحتين.

فقال: ﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٨﴾، **فالصفة الأولى:** صفة الإصرار على الكِبر والإعراض عن الإيمان بعد سماعه لآيات الله، فيستكبر عن فهمها والتأثر بها، وكأنه ما سمع شيئًا منها، فتوعده الله بعقوبته بالعذاب الأليم في الآخرة لاستكباره وكفره.

ثم قال: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٩﴾، **والصفة القبيحة الثانية هي:** الاستهزاء بما علم وحفظ من القرآن، أو بما سمع من أحكام الدين، كحال ذلك الشخص الذي حفظ قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾[الماعون:٤]،

ولم يحفظ ما بعدها؛ فاتخذها محلاً للسخرية والاستهزاء، **وقال عنها**[(١)]:

ما قال ربك ويلٌ للأُوْلَى سكروا ... ولكنه قال: ويل للمصلينا

فهذا نوعٌ من الاستهزاء بعد أن علم شيئًا من آيات الله، فاستدل بها على أن الويل للمصلي وليس للسكران!!، ومن كان هذا حاله؛ فهو كافر وقح قليل الأدب، جمع بين الكفر وسوء الخُلُق وقلة الأدب مع الله ومع خلقه، وقد توعده الله بالعذاب المهين، الذي فيه إهانة للنفس.

ما السر في توعد الله لصاحب الصفة الأولى بالعذاب الأليم، ولصاحب الصفة الثانية بالعذاب المهين؟!، **الجواب**: أن الاستكبار والإصرار عليه كفر، يستحق صاحبه العذاب الأليم الذي يلمس الأجساد فيؤلمها، **أما الاستهزاء ففيه** إهانة للآخرين من الناحية النفسية؛ فكان الجزاء بعذاب مهين لصاحبه من الناحية النفسية في الآخرة، بجوار العذاب الحسي؛ لأن الجزاء من جنس العمل، والله أعلم.

ثم فصّل لنا نوع العذاب الأليم ونوع العذاب المُهين، فقال: ﴿مِّن وَرَآئِهِمۡ جَهَنَّمُۖ وَلَا يُغۡنِي عَنۡهُم مَّا كَسَبُواْ شَيۡـًٔا﴾، **وراء**: هنا بمعنى أمام، **والأصل في وراء** أنه ما يُواري الشيء ويُغطيه عنك، فجهنم تنتظرهم حين موتهم وانتقالهم إلى الآخرة، ولا ينفعهم ما كسبوا من المال والأولاد والجاه والسلطان، ونحوها مما كان سببًا في تكبرهم وإصرارهم على الكفر واستهزائهم بآيات الله وبالمؤمنين، كما قال: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ﴿٢٩﴾﴾[الحاقة:٢٨-٢٩].

---

(١) ينظر: أضواء البيان، للشنقيطي، (٩/ ١٢٤)، هذا البيت الشعري مشتهر أنه لأبي نواس الشاعر العباسي (١٩٩هـ)، لكني لم أجده في ديوانه ولا في كتب الشعر التي ترجمت له.

وقولـــه: ﴿وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١٠﴾ ولــم يـــنفعهم أيضـًا تلك الآلهة التي عبدوها من دون لله، فلم تقم بنصرهم في الدنيا ولا في الآخرة، وتوعدهم بالعذاب العظيم، فجمع لهم بين ثلاثة أوصاف للعذاب: أليم؛ يُؤلم أجسادهم، ومُهين؛ يُهين أنفسهم، وعظيم؛ في وصفه وحجمه، وإذا قال العظيم عن شيء أنه عظيمٌ فلا تسأل عن عظمته!!.

ثـم قـال: ﴿هَٰذَا هُدًىۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ عَذَابٌ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٌ ١١﴾، هـذا القرآن هو الهدى الذي يهدي به الله من يشاء من عباده، وهم المؤمنون، وأما الكافرون بآيات الله الكونية والشرعية، فقد أعد الله لهم في الآخرة عذابـًا من رجزٍ أليم، وهو العذاب الناتجُ عن اصطدام آلة العذاب بجسد الشخص، فيشعر بالألم الشديد الموجع جسديـًا ونفسيـًا له؛ لتركه الهدى وإعراضه عنه.

فوائد وهدايات من هذه الآيات:

١- أن الإصرار على الكفر والكِبر والاستهزاء بآيات الله، كلها صفات سيئة يتصف بها أهل الكفر والضلال.

٢- أن نعـم الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ كثيـرة وعظيمـة، لا تُعـد ولا تُحـصى، وهـي مبثوثة في الكون كدلائل وبراهين على وجود الله، فمن تأمل فيها قادته إلى الإيمان والتوحيد لله جلّ وعلا.

٣- أن من لم يفتح الله قلبه للإيمان بعد سماعه لكلام الله وتأمله في آياته المشتملة على البراهين والأدلة والحجج؛ فلن يدله على التصديق والإذعان شيء آخر.

تفسير المقطع الثاني من سورة الجاثية

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ
﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ
﴿١٣﴾ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ
﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ
ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ
بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾، امتن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على الخلق بنعمٍ كثيرة لا تُعد ولا تُحصى، ومنها تسخير البحر، بأن جعل ظهر مائه مُسطحًا أملسًا تسير عليه السفن، ويسّر حركة الرياح لتحريك السفن الشراعية على سطحه، وهذا قبل أن تأتي السفن الحديثة التي تتحرك بالوقود، **والمقصود بأمره هنا هو الأمر الكوني، فالفائدة الأولى** من تسخير البحر وجريان الفُلك، هي: حمل الناس ونقل الأمتعة والسفر والانتقال من مكان إلى آخر، **والفائدة الثانية، هي**: ابتغاء الخلق

من فضل الله، وهو التجارة والارتزاق بالعمل في البحر، كما قال: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾[الجمعة:١٠]، ويشمل استخراج اللؤلؤ والمرجان والأسماك والحيوانات البحرية والملح، ونحوها، ويدخل في ذلك صناعة السفن، ولو لم يُوجد البحر لما صنعوا سفنًا، وبيّن الحكمة من هذا التسخير لهذه النعم أن تشكروا الله عليها، وشكر الله يكون باللسان والقلب وسائر الجوارح، وأعظم الشكر أن يقرّ العبد بألوهية الله وأن يعبده ويُطيعه في أمره ونهيه.

ثم قال: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾، **وهذا نوع آخر من التسخير**، فقد سخّر للخلق كل ما في السموات من مجرات شمسية وكواكب ونجوم ونحوها، وما في الأرض من جبال وأودية وأشجار ومياه ونحوها من أجل أن ينتفعوا بها، كل ذلك منه لا من أحدٍ غيره، فهو مصدر المنة والعطاء سبحانه، فالنعم كلها منه، كما قال: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾[النحل:٥٣]، وفي هذا التسخير علامات وحجج وبراهين على أنه يستحق العبادة دون سواه، ينتفع بها من تفكر وتأمل فيها، وهو نوع من الاستدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية.

ثم قال: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ ﴾، قل يا محمد، للمؤمنين معك يتجاوزون عن تصرفات الكفار الذين لا يرجون أيام الله، وهي وقائعه في الخلق، فهم لا يُبالون بنعم الله، ولا يخافون نقمه سبحانه، وهذا دليل على غفلتهم وإعراضهم، والآية مكية، فطلب من المؤمنين بسبب ضعفهم وقلة

حيلتهم التجاوز والإعراض عن الكفار الأقوياء، وهذا هو المطلوب من المؤمن في فترة الاستضعاف.

وقوله: ﴿لِيَجۡزِيَ قَوۡمَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٤﴾، بيانٌ لعلة التجاوز، واختلف المفسرون في بيان من هم القوم، **فقيل**[١]: المقصود بهم المؤمنون، نكّرهم تعظيمًا لشأنهم، **والمعنى**: اعفوا والله سيجزيكم على عفوكم خيرًا.

وقيل[٢]: المقصود بهم الكفار ونكّرهم تحقيراً لهم، **والمعنى**: اعرضوا عنهم، واتركوا عقوبتهم على الله، والأول أولى؛ لأن السياق القرآني يؤيده.

ثم قال سبحانه: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَا﴾، وهذه قاعدة عامة تشمل كل عمل، فالعمل الصالح مردوده وثمرته لصاحبه، والعمل السيء مردوده وثمرته عليه، وهي تشمل العلاقة مع الله والعلاقة مع الخلق، وتشمل أعمال الدنيا وأعمال الآخرة، فيجب أن ينتبه لها الإنسان وهو يُقدِم على عمل أي شيء.

وقوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ ١٥﴾، والمرجع كله إلى الله، إن عملت صالحًا؛ فستجده عند الله، وإن عملت سيئةً؛ فستجدها عند الله، فالله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ يجمع حسناتك وسيئاتك في صحائفك، وستجدها عندما ترجع إليه، كما قال: ﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ﴾[آل عمران:٣٠]، **أي**: مُحضرًا، وحُذف لدلالة ما سبق عليه.

ثم قال: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ

(١) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٢٧/ ٦٧٤).

(٢) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢٢/ ٦٦).

﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦﴾، يذكر الله ما امتنه على بني إسرائيل من نِعَمٍ ومِننٍ؛ فأعطاهم التوراة، وأعطاهم الحكم والنبوة، حيث جعل فيهم ملوكًا، وجعل فيهم أنبياء، فكان الملك ناصرًا للنبوة، ورزقهم الله من النعم الطيبة مثل المنّ والسلوى ونحوها، وفضلّهم على عالَم زمانهم، كونهم كانوا في ذلك الزمن هم أحسن حالًا وأقل فسادًا من غيرهم، ولما بُعث محمدٌ ﷺ، صارت أمته خير أمة أُخرجت للناس، ولو آمنوا لكانوا من أمته ولأعطاهم الله أجرين[1].

ثم قال: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾، وأعطاهم بيّنات من الأمر **وهي:** الدلائل، والبراهين، والحُجج الشرعية التي تدلهم على الحق وتدعوهم إليه، وتُوضح لهم الباطل وتدفعهم عنه.

ثم قال: ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾، كيف يكون العلم سببًا للاختلاف، وهو في الأصل سبب للائتلاف؟!!، **الجواب:** بسبب البغي والحسد في أهله، حيث يستخدمون العلم في تحقيق أهوائهم ورغباتهم الشخصية، وتعلموه لغير الله، وفهموه فهمًا خاطئًا؛ فأدى ذلك إلى فرقتهم واختلافهم، وقد حذرنا الله من ذلك، كما قال: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[آل عمران: ١٠٥]، **وفي الحديث:** **"لتتبعن سَنن من كان قبلكم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه، قالوا: اليهود والنصارى، يا رسول الله؟! قال: فمن؟!"**[2]،

(١) ينظر: الحديث في مسند أحمد: (٣٢/ ٢٩٩)، برقم: (١٩٥٣٢)، والبخاري، برقم: (٣٠١١)، ومسلم، برقم: (١٥٤).

(٢) أخرجه أحمد: (١٤/ ٨١)، برقم: (٨٣٤٠)، والبخاري: (٤/ ١٦٩)، برقم: (٣٤٥٦)، =

ولكن للأسف فقد وقع ذلك في أمة محمد ﷺ، فما تسمعونه اليوم عن الفرق المختلفة التي تنتسب للإسلام ويُكفّر بعضُها بعضًا ويقتل بعضُها بعضًا، هو ثمرة للبغي والظلم والحسد الذي وقع فيه بعض من ينتسب للعلم من أهل الإسلام، والله المستعان.

فوائد وهدايات من هذه الآيات:

١ - أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عندما يُعدّد نعمه على خلقه على سبيل الامتنان بها عليهم؛ يريد بذلك أن يذكرهم بها ليشكروه ويوحدوه ويُطيعوه وأن لا يغفلوا عن ذلك.

٢ - أن العفو والصفح والتجاوز عن من آذاك وأساء إليك منقبة لك، وهو من عزم الأمور.

٣ - أن الواجب نحو المفسد والظالم أن يؤدب ويُؤخذ على يديه؛ لأنه لو تُرك لأفسد في الأرض.

٤ - أن العلم إذا اقترن بالحسد والبغي والهوى؛ أفسد أكثر مما يُصلح.

٥ - أن العلم وحده لا يكفي، وأن الورع وحده لا يكفي، فلا بد في العالم منهما معًا، العلم حتى تعرف الحجة والبرهان، والورع حتى تبتعد عن البغي والظلم والعدوان.

= ومسلم: (٤/ ٢٠٥٤)، برقم: (٢٦٦٩).

تفسير المقطع الثالث من سورة الجاثية

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾
إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۖ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ
﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا
السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَاءَ مَا
يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ
وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ
وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ﴾ ثم حرفُ عطف يُفيد التراخي، **والمعنى:** أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أرسل محمدًا ﷺ بشريعة جديدة ناسخة للشرائع السابقة، **والمقصود بالأمر هنا الأمر** الشرعي، وهو الحلال والحرام الذي يتعبد به الإنسان لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

والشريعة: معناها الطريقة والسنة المتبعة، كما قال: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[المائدة:٤٨]، **فالمِنهاج:** هو الطريق السالك المستقيم، **والشريعة:** هي الأحكام التي تُبيّن كيفية السير في هذا الطريق، **وأصل الشريعة** من الشُّرعة وهو

منبع الماء[١]، وهو يدل على الصفاء والنقاء والحياة، فإن الماء أساس لكل حياة، وهكذا شريعة الإسلام صافية نقية، وبها تحيا البشرية الحياة السعيدة.

وقوله: ﴿فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾، **أي:** اعمل بها وسِر عليها، ولا تلتفت إلى غيرها من شرائع أهل الكتاب السابقين، ولا من شرائع الآباء والأجداد التي كانت تدين بها قريش فكلها من أهواء الذين لا يعلمون، فكل ما خالف الإسلام فهو من الأهواء، لأنها صادرة عن جهل وعدم علم، وهذا الوصف ينطبق على كفار قريش، وينطبق على أهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين حرّفوا وبدّلوا دينهم، فلم يبق إلا دين الإسلام الصافي الذي جاء به محمد ﷺ.

ثم قال: ﴿إِنَّهُمۡ لَن يُغۡنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۚ﴾، فإن اتبعت أهواءهم وسرت في طريقهم فلن ينفعوك، في الدنيا سيخلطون عليك الحق بالباطل، وفي الآخرة لن يدفعوا عنك عذاب الله.

ثم قال: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۖ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾﴾، وهي قاعدة عامة؛ أن الظالم لا يُوالي إلا ظالماً، فلا تصدقهم في وعودهم، وابتعد عنهم، فإن اتبعت شيئاً من أهوائهم؛ لحقت بهم، وصرت ظالماً معهم، وهو تحذير من الظالمين وأعمالهم، فالمحبة والنصرة نتيجة وثمرة لاتفاق العقيدة؛ لأن القلوب عند بعضها، فاستمر على اتباع الحق؛ لتكون من المتقين، الذين وليّهم الله سبحانه، فإن ولاية الله الحقة تتناسب طردياً مع التقوى، فعلى قدر ما

(١) ينظر: المصباح المنير: (ص: ١٦٢).

عندك من التقوى؛ تحصل على مثلها من الولاية والنصرة من الله.

ثم قال سبحانه: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٢٠﴾، هذا القرآن بصائر، بصائر جمعُ بصيرة، والبصيرة هي الحجة والشاهد[1]، وهي وسيلة الإبصار والنظر، فالقرآن يُضيء للناس طريق الهداية ويوضحها ويبينها، ويُخرجهم بنور هدايته ودلائله وبراهينه وحججه من الظلمات إلى النور، وهو لكل الناس، فمن وفقه الله فأبصر الحق وعمل به، فأجر ذلك لنفسه، ومن حرمه الله فعُمي عن رؤية الحق فهلك وضل، فوزر ذلك على نفسه، كما قال: ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا﴾[الأنعام:١٠٤]، والقرآن هدى، يهدي للتي هي أحسن، كما قال: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾[الإسراء:٩]، وهو أيضًا رحمة للخلق في الدنيا والآخرة، وخص بالانتفاع به من كان عنده يقين بأن هذا القرآن كلام الله، أما من عنده شك في القرآن؛ فلن يحصل على هذه الثمار الطيبة، فاليقين بالله وبكتابه هو الأساس للاستفادة من القرآن، فاملأ قلبك يقينًا حتى يصير القرآن حجة لك وهدى ورحمة، فبعض الناس قد يتعامل مع القرآن على سبيل التجربة، **فيقول مثلاً:** نجرب نستشفي بالقرآن، أو نجرب ندعوا الله، هذا لا يجوز مع القرآن، ولا مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، يجب أن يكون لدينا يقين مطلق ليس فيه ذرة شك، ونحن نتعامل مع الله وكتابه، حتى نحصل على الثمرة العظيمة التي جعلها الله لهذا اليقين.

ثم قال سبحانه: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

(١) ينظر: التعريفات الفقهية (ص: ٤٥).

وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾، هل يظن الذين يرتكبون القبائح ويفعلون السيئات، فالاجتراح بمعنى الكسب، كما قال: ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم﴾[الأنعام:٦٠]، هل يظنون أن الله سيُعاملهم كما يُعامل المؤمنين؟، كلا، كما قال: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [القلم:٣٥-٣٦]، فميزان الله يتصف بالعدل، ومن ظن أن الله سيُعامل المجرم كما يُعامل المؤمن؛ فقد اتهم الله بالظلم، سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ عمّا يقولون علوًا كبيرًا، وهذا الظن ناتج عن الكِبر والغرور والاعتداد بالنفس، فالكفار أغلبُهم من الأثرياء والأغنياء، فإذا سمعوا من المؤمنين أن الكافر سيُعذب في النار، وأن المؤمن سيدخل الجنة، قالوا: نحن أكرمنا الله بالدنيا بالمال والجاه والغنى وحرمكم منها، وسيُكرمُنا الله بالآخرة، كما أكرمنا في الدنيا؛ بناءً على تصور باطل لديهم، ونسوا أن الله جعل هذه الدنيا دار ابتلاء؛ يُعطيها لمن يُحب ومن لا يُحب، ولكنه لا يُعطي الدين والآخرة إلا لمن يحب، فليس العطاء في الدنيا دليلاً على الإكرام، ولا المنع دليلاً على الإهانة، كما قال: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا﴾[الفجر:١٥-١٧]، فليس الأمر كما تزعمون، بل هذا الحكم الذي حكمتم به قبيح وسيّء، وينسب الظلم إلى الله تعالى، وهو حكَمٌ عدل بل سيجعل الله للمؤمن حياةً تخصه، وللكافر حياةً تخصه، وجزاء المؤمنين في الآخرة غير جزاء الكافرين.

ثم قال: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾، خلق الله الكون كله بالعدل، وخلقه لإقامة العدل، ومن إقامة الحق عدم المساواة بين المجرم والمسلم، ولا

بين الطيب والخبيث، فإن هذا من الظلم، والله تنزّه عن الظلم.

ثم قال: ﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾، وهذه إحدى الحكم والغايات من إقامة الحق، أن تأخذ كل نفس جزاء ما عملت من خير أو شر، ولا يظلم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أحدًا، بل هو سبحانه الحَكَم العدل، وفي هذا إشارة إلى أن الناس قد يظلم بعضُهم بعضًا تبعًا لأهوائهم.

ثم قال سبحانه: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾، **رأيت:** تأتي بمعنى النظر أو العلم، هل نظرت، أو هل علمت يا محمد حال الشخص الذي صار إلهه هواه؟!! وهو الإنسان الذي لا دين له ولا قيم ولا مبادئ، بل دينُه وقيمه هو ما تهواه نفسه، فيصير مُنقادًا وطائعًا وسائرًا في فلكها؛ **فالإله:** هو الذي يُطاع ويخضع لأمره، وهذا يحصل كثيراً عند تعارض أمر الله مع الهوى وشهوة النفس، فمن ترك أمر الله وأطاع أمر الهوى، فقد جعل الهوى إلهًا من دون الله، والهوى غالبًا يكون مخالفًا للشرع، كما قال: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[ص:٢٦]، فالشرع يقوم على مخالفة هوى النفس.

وقوله: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾، **للعلماء فيها تفسيران:**

الأول: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ علم من هذا الشخص في الأزل أنه لن يهتدي؛ فحرمه التوفيق لمعرفة الحق مع وضوحه له.

والقول الثاني: أن ضلال هذا الشخص لم يكن بسبب الجهل بالله، بل كان

بسبب عناده وانحرافه وإعراضه بعد حصول العلم له بأن الله حق وأن الدين حق بإرسال الرسل وإنزال الكتب، والقول الأول هو سببٌ للقول الثاني، ويمكن الجمع بينهما.

وقوله: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾، **الأصل أن الختم** يكون على القلب، أما السمع فيكون فيه الوقر، أو ما يُسمى الضرب، كما قال: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ﴾[الكهف:١١]. لكنه جعل الختم عليهما معًا وقدّم هنا السمع، وفي آية البقرة قدّم القلب، فقال: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾[البقرة:٧]، **والسبب** -والله أعلم- يعود إلى اختلاف نفسية السامع، فمن كان قلبه قد امتلأ إجرامًا وكفرًا وإعراضًا، فيقع الختم على قلبه أولًا، ولو سمع فلن يستفيد، ومن كان قلبُه فارغًا، فيكون الختم على سمعه أولاً؛ فلا يصل الهدى إلى قلبه، أما البصر فيغطى فلا ينظر إلى الحق، وهذه طرق اكتساب العلم والوصول إلى الحق، فإذا تعطلت عليه هذه الطرق حرم الهداية، والمقصود بتعطيلها هو حرمانها من الانتفاع بالحق، فهي مُعطلة عن قبول الحق، وإلا فهو يسمع الحرام ويتلذذ به، ويرى الحرام ويستمتع به، وقلبُه يُفكر في عشرات القضايا الدنيوية وناجح فيها.

وقوله: ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾، هذا سؤال استنكاري، والمعنى: فأنى تحصل له الهداية بعد تعطيل هذه المنافذ؟!! فلا أحد يفتحها ويصلحها إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فمن وجد في نفسه إعراضًا أو ضعفًا عن الخير والقَبول، فليلجأ إلى الله ليفك عنه عوائق الهداية والوصول إلى الحق.

وقوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، التذكر: هو الاتعاظ، والواجب على الإنسان إذا شاهد شخصًا به هذه الصفات، أن يتّعظ منه، ويقول: الحمد لله الذي هداني وعافاني، وأن يجعل ذلك سببًا لتذكر أن الهداية بيد الله، وأن الله هو من يمنحها، ورد النعمة إلى مُعطيها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فوائد وهدايات من هذه الآيات:

١- وجوب اتباع الشرع وترك ما يُخالفه.

٢- أن ميزان الله غير ميزان البشر، ومن عدله ألّا يُساوي بين المؤمنين والكافرين في الجزاء.

٣- أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خلق السموات والأرض وما بينهما لإقامة الحق بين الخلق.

٤- أن الهوى قد يُصبح إلهًا من دون الله، فاحذر منه.

تفسير المقطع الرابع من سورة الجاثية

﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ
إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمۡ
صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يَجۡمَعُكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا
يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَخۡسَرُ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ
كُلَّ أُمَّةٖ جَاثِيَةٗۚ كُلُّ أُمَّةٖ تُدۡعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ
إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدۡخِلُهُمۡ رَبُّهُمۡ
فِي رَحۡمَتِهِۦۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ
وَكُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ﴿٣١﴾﴾.

قول الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا﴾، هذا القول قول الدهرية من الكفار ومن وافقهم من مشركي العرب، **والمعنى:** نحن نعيش في هذه الحياة ثم نموت، ثم لا بعث ولا نشور، ولا جزاء ولا حساب، ولماذا قدّم لفظ (نموت)، **قيل**[1]: البعض يموت والبعض يستمر، فهذه طبيعة الحياة الدنيا،

(١) ينظر: تفسير ابن كثير ت سلامة (٧/ ٢٦٩)، والبحر المديد في تفسير القرآن المجيد (٥/ ٣١٥).

وقيل[١]: أنهم كانوا في الأصل عدمًا، فكانوا في حكم الميت، ثم أحياهم الله، **والقول الأول هو الأرجح**؛ لأن حياتهم كانت موجودة ومشكلتهم كانت في إنكار البعث.

وقوله: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾، المقصود بالدهر هنا تصريف السنين، وتعاقب الليل والنهار، وكأنهم بهذا القول يُنكرون أن الله هو الذي يُحيي ويُميت، ونسبوا الهلاك والموت إلى طبيعة الحياة، وهو كلامٌ باطل، بل الله هو الذي يقلّب الليل والنهار، **كما الحديث القدسي**: **"يؤذيني ابن آدم؛ يسب الدهر، وأنا الدهر، بيدي الأمر أقلّب الليل والنهار"**[٢]، **والدهر** ليس من أسماء الله، وإنما الله تعالى هو المتصرف في الدهر، وهو الزمن، ويُجمع على دهور.

وقوله: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾، وهذا ردٌّ على قولهم الباطل السابق، وأنه صدر منهم بدون علم ولا حجة، بل قالوه على سبيل الظن والتوهم.

ثم قال: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾، وإذا تليت عليهم آيات القرآن المشتملة على البراهين والأدلة على إثبات البعث والنشور، كانت حجتهم في معارضتها؛ ابعثوا لنا آباءنا الذين ماتوا من قبل حتى نراهم؛ فنصدق أن هناك بعثًا ونشوراً، وعبّر عن شبهتهم بالحجة؛ لاعتقادهم أنها حجة، وهي في الواقع شبهة باطلة وداحضة، فالحديث ليس عن بعث الناس في الدنيا، وإنما إثبات البعث في الآخرة، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ

---

(١) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٢٧/ ٦٧٨).

(٢) أخرجه أحمد ط الرسالة: (١٣/ ١١١)، برقم: (٧٦٨٣)، ومسلم، برقم: (٢٢٤٦).

قادر أن يبعث لهم آباءهم ليروهم، وقد ضرب الله عدة أمثلة في القرآن للبعث، كقصة عزير وحماره وقصة طير إبراهيم الخليل وغيرها، وكل ذلك يدل على أن الله قادر على إحياء الموتى وإعادة الناس من قبورهم أحياء.

فأجاب الله عليهم بقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يَجۡمَعُكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾، قل لهم يا محمد إن الله قادر على إحيائكم ثم إماتتكم، ثم بعثكم وجمعكم إلى يوم القيامة، وهذه مراحل حياة الإنسان، فقد كان عدمًا فأحياه الله من النطفة وجعل منه إنسانًا قويًا، ثم أماته ثم يبعثه، ويجمع الناس بعد بعثهم بين يديه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ للحساب والجزاء، ولا شك في ذلك اليوم وذلك الجمع.

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢٦﴾، ولكن أكثر الناس يجهلون هذه الحقيقة، بسبب أنهم تربوا على دين الآباء والأجداد الذين كانوا يعتقدون أنه لا يوجد بعث ولا نشور، وهل هذه الأكثرية في المخاطبين آنذاك أم باقية إلى اليوم؟!

الجواب: لو نظرنا في عدد الكفار بالله واليوم الآخر من سكان الكرة الأرضية اليوم؛ لوجدناهم أضعاف عدد المؤمنين بالله واليوم الآخر، فدل ذلك على أن أكثر الناس لا يعلمون هذه الحقيقة حتى اليوم، بل يجهلونها أو ينكرونها.

ثم قال الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَخۡسَرُ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ٢٧﴾، فالله هو الذي خلق السموات والأرض وأوجدها وهو من يملكها ويتصرف فيها وبما فيها من مجرات كونية عظيمة، هو القادر على إعادتهم وبعثهم من قبورهم، فإذا قامت الساعة يوم القيامة، ورأوا بأعينهم ما كانوا يُنكرون من البعث والنشور والحساب والجزاء سيعلمون مقدار خسارتهم

بسبب ما زعموه من باطل، وهو إنكار البعث والكفر بالله، وتُرك ذكر المفعول به ليدل على مُطلق الخسارة التي تقع لهم في الآخرة، وعبّر عن الكفار والمشركين بالمبطلين؛ لعدم وجود شيء من الحق لديهم، بل كل اعتقاداتهم وأعمالهم باطلة.

ثم قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾، الخطاب لنبينا محمد ﷺ، ويصلح لكل من قرأه بعده، وترى أيها الناظر يوم القيامة في ساحات المحشر كل أمة متميزة عن غيرها، قد جلس أفرادها على ركبهم، وذلك من شدة الموقف، وقيل[1]: إن هذا يحصل عند مجيء جهنم، فإنها تزفر زفرة لا يبقى أحد إلا جثا لركبتيه.

وقوله: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾، قيل[2]: كل أمة تُدعى وتُحاكم إلى الكتاب الذي نزل فيها، فأمة محمد يدعون إلى القرآن، وأمة موسى إلى التوراة، وأمة عيسى إلى الإنجيل، وهكذا.

وقيل[3]: المقصود بالكتاب هنا كتاب الإنسان نفسه، وهو صحائف أعماله بعد أن تطير ويلقفها بيمينه أو بشماله؛ يُدعى إلى النظر فيها، ويُمكن الجمع بين القولين، حيث يتم محاكمة ما سُجل على الشخص من الخير أو الشر في صحيفة أعماله؛ بناءً على حكمه في الكتاب الذي نزل على رسوله.

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير ت سلامة (٧/ ٢٧١).

(٢) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢٢/ ٨٢).

(٣) ينظر: تفسير ابن كثير ت سلامة (٧/ ٢٧١).

ثم قال: ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٢٨﴾، الخطاب لكل الأمم حيث يتم مُجازات كل شخص يوم القيامة على أعماله؛ إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

ثم قال سبحانه: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّ﴾، **للمفسرين في معنى كتاب قولان، القول الأول**[١]: أن المقصود بالكتاب هو اللوح المحفوظ.

والقول الثاني[٢]: أن المقصود بالكتاب هو صحائف الأعمال، **والراجح من السياق الثاني.**

وقوله: ﴿يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّ﴾، **أي:** يشهد على صاحبه بما عمل بالعدل دون زيادة ولا نقصان.

وقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٢٩﴾، فقد كانت الملائكة تستنسخ أعمالكم وتدوّنها في صحائف أعمالكم، والعمل هنا يشمل عمل اللسان وهو النطق، وعمل القلب وهو الاعتقاد، وعمل الجوارح وهو التنفيذ.

وفي معنى الاستنساخ للمفسرين قولان، الأول[٣]: أن الملائكة كانت تنسخ ما هو مكتوب باللوح المحفوظ وتُقارنه بما فعله الخلق.

الثاني[٤]: أن الملائكة الموكلين بكتابة أعمال العبد فريقان، **فريق:** يكتب

---

(١) ينظر: تفسير القرطبي (١٦/ ١٧٥).

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير ت سلامة (٧/ ٢٧١).

(٣) ينظر: زاد المسير في علم التفسير (٤/ ١٠٠)، وفتح القدير للشوكاني (٥/ ١٣).

(٤) ينظر: تفسير القرطبي (١٦/ ١٧٦).

العمل اليومي للعبد، كما قال: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[ق:١٨]، ثم يرفعه إلى الفريق الثاني فينظر فيه، فما كان حسنةً أو سيئة نقلوه وثبتوه في صحيفة العبد، وما كان لغواً حذفوه.

ثم قال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾﴾، **الفاء**، فاء التفريع، **والمعنى:** أنه بعد نطق الكتاب بأعمال الخلق؛ **ينقسمون إلى فريقين:** أصحاب الإيمان والعمل الصالح، فهؤلاء يدخلهم ربهم الجنة التي هي رحمته المخلوقة، كما جاء في الحديث القدسي أن الله يقول للجنة: **"أنتِ رحمتي أرحم بك من أشاء"**[(١)]، ودخول الجنة هو حقيقة الفوز الذي كانوا ينتظرونه في الدنيا، وقد جاء في القرآن الفوز موصوفًا بثلاث صفات: الفوز المبين، والفوز الكبير، والفوز العظيم، فأيها أبلغ مدحًا؟

الجواب: مِنْ تتبع سياق الآيات القرآنية نجد أن الفوز المبين هو دخول الجنة والنجاة من النار، والفوز الكبير هو دخول الجنة والنجاة من النار والوعد بالخلود في الجنة، والفوز العظيم هو دخول الجنة والنجاة من النار والخلود في الجنة وإحلال رضوان الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على أهلها، بعد رؤيته والنظر إلى وجهه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والله أعلم.

ثم ذكر حال الفريق الآخر، فقال: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾﴾، اكتفى بوصفه بالكفر ولم يذكر مصيرهم، لأنه معروف وهو النار، وانتقل إلى تبكيتهم وعتابهم؛ وهو نوع من العذاب النفسي

(١) أخرجه البخاري (٦/ ١٣٨)، برقم: (٤٨٥٠)، ومسلم (٤/ ٢١٨٦)، برقم: (٢٨٤٦).

لهم، مع ما هم فيه من العذاب الجسدي، فسألهم سؤالاً استنكاريـًا؛ ألم أُرسل إليكم رسلًا، وأنزل عليكم كُتبًا، وأجعل لكم سمعًا وأبصارًا وعقولًا، وتُليت عليكم الآيات التي تدعوكم إلى الإيمان؟؛ فاستكبرتم عن الإيمان وأعرضتم عنه، واخترتم بدلاً عنه الإجرام، وهو اسمٌ يشمل الكفر والشرك والمعاصي وسائر الأعمال القبيحة.

فوائد وهدايات من هذه الآيات:

١- أن الدهر ليس من أسماء الله، وإنما معناه: أن الله تعالى هو المتصرف في الدهر، وهو الزمن.

٢- أن أكثر الناس لا يعلمون التوحيد الصحيح ولا يؤمنون بالبعث والنشور، وهي حقيقة مستمرة حتى اليوم.

٣- أن أعظم أنواع الفوز، هو: الفوز العظيم، وهو دخول الجنة والخلود فيها والنجاة من النار، وإحلال رضوان الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على أهلها، بعد نظرهم إلى وجهه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

تفسير المقطع الخامس من سورة الجاثية

﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيۡبَ فِيهَا قُلۡتُم مَّا نَدۡرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُسۡتَيۡقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰكُمۡ كَمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗا وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُخۡرَجُونَ مِنۡهَا وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ ٱلۡحَمۡدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيۡبَ فِيهَا﴾، هذا الخطاب ما زال مستمرًا مع الفريق الثاني، وهو سؤال تبكيت لهم يوم القيامة، فقد كان يقال لكم في الدنيا: إن وعد الله حق وآتٍ لا محالة وهو صدقٌ لا مرية فيه وهو البعث والنشور، والقيامة لا شك في مجيئها، ولم يذكر القائل هنا، ولكن في الغالب أن الذين كانوا يقولون لأقوامهم هذا الأمر، هم الرسل ومن جاء بعدهم من العلماء المُرشِدين، **كان الجواب منكم في الدنيا:** ﴿قُلۡتُم مَّا نَدۡرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُسۡتَيۡقِنِينَ ﴿٣٢﴾﴾، **بمعنى أن الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ** ذكر لنا في هذه الآية فريقًا آخر غير الفريق الذي سبق في تفسير قوله: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾[الجاثية:٢٤]، وهم المنكرون للبعث، وهذا فريق آخر متشكك في قيام الساعة، ومتشكك في البعث، فهل هو نفس الفريق الأول وحصل عنده تراجع من الإنكار المطلق إلى الشك،

أم هو غيره؟ محتمل هذا وهذا، والظن المقصود به هنا الظن الضعيف؛ لتوكيده بالمصدر، لذلك لم يُعتبر هذا تصديقاً منهم، فإن قضايا العقائد لا بد فيها من التصديق الجازم، ولا ينفع معها الشكوك والظنون بخلاف بعض الأحكام الفرعية فممكن يقبل فيها الظن الغالب.

وقوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾، تأكيد لظنهم الضعيف فيها، ونفي لليقين بحصولها، فهم ما زالوا في دائرة الإنكار، ولكن خفت إلى دائرة الشك الضعيف.

ثم قال الله عنهم: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾، **أي:** ظهر لهؤلاء المكذبين يوم القيامة نتائج أعمالهم القبيحة بعد قيام الساعة التي كانوا ينكرونها.

وقوله: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾﴾، **أي:** نزل بهم وأحاط بهم العذاب الذي كانوا يستهزؤون به حينما كان الرسل يحذرونهم منه، فهؤلاء جمعوا بين إنكار الساعة والشك فيها وبين الاستهزاء بما كانوا يوعدون وبالمؤمنين.

وقوله: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾، **القائل** لم يُذكر، فقد يكون الله، وقد تكون الملائكة بأمر الله، **ومعلوم أن العذاب في الآخرة على نوعين: العذاب الحسي، والعذاب المعنوي، فالعذاب الحسي هو** الذي يُصيب الأجساد ويؤلمها، **والعذاب النفسي هو** الذي يُصيب النفوس ويؤلمها، ففي الآية السابقة أصابهم العذاب الحسي، وفي هذه الآية أصابهم العذاب المعنوي، **فقيل لهم:** أنتم محتقرون عندنا فلا قيمة لكم ولا التفات إلى حالكم، كما أنكم لم تلتفتوا إلى الحق في الدنيا فلن يُلتفت إليكم في الآخرة على سبيل الترك، فقد تركتم الحق في الدنيا؛ فترككم الله في الآخرة، والجزاء من جنس العمل، فعاملهم بالعدل.

وقوله: ﴿وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٣٤﴾، **أي:** مصيركم ومستقركم النار، لا أحد ينقذكم ويُخرجكم منها.

وقوله: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗا وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾، ذلكم العذاب الذي أصابكم هو بسبب استهزائكم بآيات الله، واغتراركم بالدنيا، وإنكاركم الآخرة، فهذه ثلاث جرائم فعلوها، فعاقبهم الله بثلاث عقوبات: تركهم على سبيل الاحتقار لهم، وجعل مصيرهم النار، وصرف عنهم من يستمع إليهم.

ثم قال: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُخۡرَجُونَ مِنۡهَا وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ٣٥﴾، فيوم القيامة يُلقون في النار ويبقون فيها خالدين لا يخرجون منها، وتُقفل عليهم أبوابها، كما قال: ﴿إِنَّهَا عَلَيۡهِم مُّؤۡصَدَةٞ﴾[الهمزة:٨]، وهذا يدل على استمرارهم وخلودهم في النار، والعياذ بالله.

وقوله: ﴿وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ﴾ **أي:** لا يُسمع عتابُهم عندما يقولون: ربنا أرجعنا إلى الدنيا نعمل صالحًا، فلا يكون لهم عتَبٌ ورضى عند الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، **بل يُقال لهم:** ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ١٠٨﴾[المؤمنون:١٠٨]، اسكتوا عن الكلام والنداء والصياح. وهو نوع من العذاب النفسي عليهم إضافة إلى العذاب الحسي في النار.

ثم ختم الله هذه السورة بقوله: ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡحَمۡدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٦﴾، الحمد المطلق لا يكون إلا لله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ في الدنيا والآخرة، فهو رب السموات ومن فيها ورب الأرض ومن فيها، وهو رب العالمين، فشملت ربوبيته سبحانه لكل شيء في هذا الكون.

ثم قال: ﴿وَلَهُ ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، **الكِبرياء** هي العظمة، ولا تكون إلا لله سبحانه، **وفي الحديث:** **"الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني**

واحداً منهما، قذفته في النار"[(١)]، فلا يجوز للمخلوق أن يتكبر، فالكبرياء لله وحده، والكبرياء ناتجة عن الجلال والعظمة والكمال المطلق لله سبحانه، أما المخلوق فمهما كان عنده فهو ناقص وضعيف، والله هو المتفرد بالكبرياء والمستحق لها، ويجب أن يُعظمه أهل السماء وأهل الأرض.

ثم قال: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٣٧﴾، ختم السورة بما بدأها به، وما بين بداية السورة ونهايتها من براهين وخلق وإيجاد ورحمة وعذاب ونحوها؛ تدل على كمال عزة الله وقدرته وكمال حكمته، فهي كلها من العزيز الحكيم.

فوائد وهدايات من هذه الآيات:

١- بيان عاقبة الاستهزاء بآيات الله والكفر بها، فهذا من أقبح الذنوب، ولذلك لم يترك الله أحدًا ممن استهزأ بدينه أو بشرعه، بل عجّل لهم العقوبة سواءً كانوا من كفار قريش أو من غيرهم.

٢- بيان خطر الاغترار بالدنيا ونسيان الآخرة، فمن فعل ذلك نساه الله وأهمله في النار.

٣- أن الله له الأسماء الحسنى والصفات العُلى، وأن بعض الصفات لا تليق إلا به، **مثل:** صفة الكبرياء والعظمة، والحمد والثناء المطلق، فهذه لا تكون إلا لله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

---

(١) أخرجه أحمد ط الرسالة (١٥/ ٢١١)، برقم: (٩٣٥٩)، وأبو داود (٤/ ٥٩)، برقم: (٤٠٩٠)، وهو صحيح بشواهده.

تفسير جزء الأحقاف

(٢٦)

تفسير سورة الأحقاف

تفسير المقطع الأول من سورة الأحقاف

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ (١) تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ (٢) مَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا
بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ (٣) قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ
مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِۖ ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ
أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ (٤) وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا
يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ (٥) وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ
بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ (٦) وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ هَٰذَا سِحۡرٞ
مُّبِينٌ (٧) أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَلَا تَمۡلِكُونَ لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ
فِيهِۚ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ (٨) قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدۡرِي
مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ (٩) قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ
عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرۡتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا
يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ (١٠) وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ وَإِذۡ
لَمۡ يَهۡتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفۡكٞ قَدِيمٞ (١١) وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةٗۚ
وَهَٰذَا كِتَٰبٞ مُّصَدِّقٞ لِّسَانًا عَرَبِيّٗا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُحۡسِنِينَ (١٢)﴾.

سورة الأحقاف[١]؛ سورة مكية نزلت في مكة، وهذا قول جمهور المفسرين[٢] **ويرى بعض المفسرين** أنها مكية إلا آيتين هما: الآية العاشرة، والآية الخامسة والثلاثون[٣]، **والراجح** أن السورة كلها مكية، كما سيأتي.

بدأت هذه السورة بالأحرف المقطعة، فقال: ﴿حمٓ﴾، (حاء، ميم) من الأحرف التي يتكوّن منها كلام العرب الفصيح، وهي أحرف اللغة العربية، تبدأ بالألف وتنتهي بالياء على خلاف في ترتيب بعض حروفها.

وإنما ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مجموعة من السور تبتدئ بهذه الأحرف؛ إشارة إلى أن هذا القرآن نزل بلغتكم أيها العرب الفصحاء البلغاء، ومع ذلك لم تستطيعوا أن تأتوا بشيء من مثله!! **ويدل على ذلك** أن كل السور التي بدأت بالأحرف المقطعة، يأتي بعدها الإشارة إلى القرآن الكريم، كما في هذه السورة.

وقوله: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾،إشارة إلى أن هذا القرآن كلام الله، وأنه أنزله على رسوله ﷺ، **وفي هذا رد واضح على بعض الفرق التي تقول:** إن القرآن مخلوق[٤]، فالقرآن كلام الله ليس بمخلوق، وكلام الله صفة من صفاته المتعلقة

---

(١) **سورة الأحقاف** أربع وثلاثون آية، **وقيل** خمس وثلاثون، **وحروفها**: ألفان وست مئة حرف، **وكلمها**: ست مئة وأربع وأربعون كلمة، ينظر: تفسير القرطبي (١٦/ ٢٧٨)، وفتح الرحمن في تفسير القرآن، مجير الدين الحنبلي (٦/ ٢٧٩).

(٢) ينظر:تفسير القرطبي(١٦/ ١٧٨)،والدر المنثور في التفسير بالمأثور،للسيوطي(٧/ ٤٣٣).

(٣) ينظر: المحرر الوجيز، لابن عطية (٥/ ٨٠)، والكشاف، للزمخشري (٤/ ٢٩٨).

(٤) مثل المعتزلة والجهمية ينظر: الفصل في الملل والأهواء والنحل، لابن حزم (٢/ ٨٩)، والموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، الندوة العالمية للشباب الإسلامي (١/ ٦٥).

بذاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أنزله الله على رسوله ﷺ بواسطة جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وقوله: ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾، هذان اسمان من أسماء الله الحسنى، غالبًا ما يجتمعان في أكثر من آية، وذلك للإشارة إلى أن مَنْ هذه أسماؤه وتلك صفاته، فهو الذي يقول الحق ويهدي السبيل.

والعزة تعني: القوة، والقوة في ذهن البشر غالبًا ما تؤدي إلى الانحراف في التقدير؛ لذا جمع الله هنا بين اسم العزيز واسم الحكيم، **والحكيم:** هو الذي يضع الأشياء في مواضعها، **والحكمة من ذلك:** أنه لو تبادر إلى ذهنك أن من وصف بالعزة من المخلوقين قد يقع منه ظلم وبغي، فإن الله تعالى مُبرأ عن هذا، فهو عزيز حكيم، **أي:** ليس في فعله إلا الحكمة البالغة.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الآية التي تليها: ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾، هذا أثر من آثار الحكمة، وأثر من آثار العزة والقوة والقدرة، فهو خالق السموات وما فيها من أبراج ومجرات، وخالق الأرض وما فيها من بحار وجبال وأشجار وأنهار ﴿وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ يدخل فيه خلق سائر المخلوقات: من الكائنات الحية والجمادات، وغيرها.

وقوله: ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾، **وجاء في آية أخرى، قال:** ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾﴾[الأنبياء:١٦]، بمعنى أن لهذا الخلق هدفًا وغايةً، وهو إقامة وإحقاق الحق، وأعظم الحق هو: التوحيد وتحقيق العدل، الذي هو صورة من صور إقامة الحق.

وقوله: ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، **أي:** وإلا لأجل مسمى، **إذاً الهدف الأول** من خلق السموات والأرض وما بينهما هو: التوحيد وإقامة العدل، **والهدف الثاني هو:** إبراز قوة الله تعالى، فهذا الخلق العظيم ليس على الدوام والاستمرار، بل له أجل مسمى ينتهي بنهايته، وهو قيام الساعة، فتظهر قوة الله تعالى في إيجاد الخلق وفنائهم، وهو سبحانه حي لا يموت!.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ ۝٣﴾، **أي:** عن الإيمان معرضون، ومستمرون في جحودهم، وقد جاءهم من ينذرهم ويدعوهم، فجعل ثمرة انتكاسة القلب عن دلائل الخلق، هو الإعراض عن الإيمان!.

ثم قال الله لنبيه محمد ﷺ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾، **أي:** من الأصنام، والأوثان، التي تشركون بها، وتدعونها من دون الله ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾، وهنا إشارة إلى أن الخالق هو من يستحق العبادة، فماذا خلقت هذه الأصنام حتى تُعبد؟!

وفي قوله: و(من) هنا تفيد التبعيض، **أي:** هل خلقت ولو شيئًا يسيراً مما تحتويه الأرض؛ حتى تشترك في حق الألوهية؟!، لأن الإله لا بد أن يكون خالقًا قادراً.

ثم قال: ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ﴾، **أي:** إذا كانوا ما خلقوا شيئًا من الأرض، فهل لهم مشاركة في خلق السموات؟! **الجواب:** لا، وهو سؤال استنكاري، بمعنى: ما استطاعت أصنامكم أن تخلق شيئًا من الأرض، وهي بين أيديكم، فهل ستكون مشاركة في خلق السموات البعيدة عنكم؟!! فإن أبيتم إلا ذلك

الادعاء فـ﴿ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ﴾، **أي**: حجة أو برهان يدل على هذا من قبل القرآن، يشهد لهذه الأصنام والأوثان أنها شاركت في الخلق والإيجاد! فإن لم تأتوا بكتاب؛ فأتوا بـ﴿أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ﴾، **أي**: بقيّة من علم.

والأثر يأتي في لغة العرب على ثلاثة معانٍ: إما بقية الشيء، **وإما** العلامة، **وإما** الرواية والسند[1]، وكل هذه المعاني الثلاثة يمكن أن تكون صالحة لبيان هذا اللفظ، فالكفار الذين ادعوا أن هذه الآلهة تستحق الألوهية مطالبون بكتاب، أو بقية من علم، أو سند ورواية، أو علامة، تدل على ذلك، وكلها مستحيلة!!. **ولذا قال**: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾، وهم ليسوا بصادقين في هذا الادعاء بل هم كاذبون فيه.

ثم لما أبطل حجتهم في ادعاء الآلهة التي ليس لها أي سند ولا برهان، قال الله عنهم: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ﴾، **أي**: لا أحد أضل ممن يتخذ إلهـًا من دون الله يدعوه ويعبده، وهذا الإله الذي تدعونه، أو تطلبون منه شيئًا من دون الله، لن يستجيب لكم الدعاء إلى يوم القيامة؛ لأن الجماد لا يعقل مهما طال مكثه!، بل إن هذه الأصنام عن دعاء أصحابها لها غافلة، فليست ذات عقل تدرك، ولا تفهم حتى تستجيب دعاءكم لها.

ثم قال سبحانه: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ﴾، **أي**: ويوم القيامة حين يحشر الناس تحشر معهم معبوداتهم من دون الله، ويجري بينهم

(١) ينظر: القاموس المحيط، للفيروز أبادي (٣٤١).

التلاوم والجحود والنكران، وتتحول هذه الأصنام والأوثان والآلهة أعداء لمن عبدها؛ فتتبرأ منهم وتكفر بهم وتجحد عبادتهم لها.

وهذا يقع من كل المعبودات من دون الله يوم القيامة، سواءً كانت أصناماً وأوثانًا، أو كانت من البشر أو الملائكة أو غيرهم.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾، **أي:** حينما تُقرأ على كفار قريش آيات القرآن الكريم الواضحة البيّنة في ألفاظها ومعانيها، يقول كفار قريش للوحي الذي جاء به محمد ﷺ، وهو القرآن: ﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، **أي:** سحر واضح، فوصفوا القرآن بالسحر لأنه يفرّق بين الناس.!! وكذَبوا في ذلك، فالقرآن يفرّق بين الناس بالحق، والسحر يفرّق بينهم بالباطل.

ثم قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾، اضطرب قول كفار قريش واختلفوا في القرآن، فأحيانًا يقولون: إنه سحر، **وأحيانًا يقولون:** إن محمداً افتراه، **أي:** اختلقه وألّفه من عند نفسه، وأنه لم ينزل عليه من الله، **فأمر الله رسوله محمداً أن يرد عليهم بقوله:** ﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾، **أي:** إن اختلقته وكذبته على الله فهذا أمرٌ بيني وبينه سبحانه، ولو حصل مني ذلك، فلن يدعني وشأني، بل لو فعلت ذلك لعذبني الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وعند نزول العذاب بي لا تملكون لي من الله شيئًا فتردوه عني، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾[الحاقة:٤٤-٤٦]، فدل ذلك على صدق رسول الله وثقته بأن ما يقوله هو وحي من الله، لا زيادة فيه ولا نقصان!.

ثم قال: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾، **أي:** أن الله مطلع على ما تخوضون فيه

من الكذب في وصف القرآن أنه سحر، وما تتهموني به من الافتراء على الله، وهذا وإن كان صورته صورة الخبر، ولكن يفهم من صيغته أنه تهديد لهم.

ثم قال: ﴿كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾، **أي:** كفى بالله شهيداً بيننا، فهو يعلم الصادق من الكاذب.

ثم ختم الآية بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾، **أي:** رغم كفركم به وتكذيبكم لرسوله، فالله غفور رحيم لمن تاب ورجع إليه، وفي ذلك إشارة إلى أن فعل هؤلاء الكفار معصية وذنب، وجريمة تحتاج إلى توبة ومغفرة من الله، فأرشدهم إلى أن يتوبوا من هذا الادعاء والقول الباطل، فهذا نوع من الوعظ الخفي، جاء في صورة الخبر.

ثم قال سبحانه لنبيه: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾، لست أول رسول بعث، ولست أول رسول أتى بكتاب، بل قد سبقني كثير من الرسل، وأنا خاتم الأنبياء والرسل.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾، **أي:** إن أمري وأمركم بيد الله، وهذا أخبار منه عن حاله كبشر مثلهم، فليس بيده النفع والضر، ولا علم الغيب، فلا يدري من حاله وحالهم المستقبلي شيئًا، وهذا التفسير بناءً على السياق وأن الخطاب لكفار قريش، **وذهب البعض إلى أن** الخطاب هنا لأصحابه المؤمنين به(١)، **واستشكل البعض هذه العبارة بقوله:** كيف نبي يوحى إليه لا يدري ما مصيره ولا يدري ما مصير أمته؟!.

---

(١) ينظر: تفسير القرطبي (١٦/ ١٨٥، ١٨٦)، وتفسير ابن كثير (٧/ ٢٥٤).

والجواب: عن هذا الإشكال يزول بمعرفة سبب النزول، فقد جاء في سبب نزولها: "**أن النبي ﷺ رأى في المنام أنه يهاجر إلى أرض ذات نخل وشجر وماء، فقصها على أصحابه فاستبشروا بذلك، ورأوا فيها فرجًا مما هم فيه من أذى المشركين، ثم إنهم مكثوا برهة لا يرون ذلك، فقالوا: يا رسول الله، متى نهاجر إلى الأرض التي رأيت؟ فسكت النبي ﷺ فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾، أي: لا أدري أأخرج إلى الموضع الذي رأيته في منامي أم لا، ثم قال: "إنما هو شيء رأيته في منامي، ما أتبع إلا ما يوحى إليّ**"[1]، فيكون المعنى متعلقًا بخبر الهجرة وموعده، والأمر فيه إلى الله سبحانه لا إلى رسوله، **أي:** أنا ماكث في مكة لا أدري ما يفعل بي ولا بكم، هل يؤذن لي في الهجرة أو أبقى أنا وأنتم هنا نتعرض للإيذاء؟! وليس معناه أنه لا يدري ما ثمرة الرسالة، فلا يدري إلى أين يذهب المؤمنون، ولا يدري إلى أين يذهب الكافرون!، وبهذا التفسير يزول الإشكال لو صحت رواية سبب النزول فيها!، لكنها ضعيفة، فالقول الأول أرجح لموافقته لسياق الآيات[2].

ثم قال: ﴿وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾، هذه مهمة الأنبياء والرسل البشارة والنذارة، **فالبشارة:** لمن آمن، **والنذارة:** لمن لم يؤمن.

ثم قال سبحانه لرسوله: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرۡتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٞ

---

(١) رواه الواحدي في أسباب النزول (٣٩٥) رقم (٧٤٤)، وإسناده منقطع .

(٢) ينظر: جامع البيان، للطبري: (٢٢/ ١٠٠)، وتفسير القرطبي: (١٦/ ١٨٦)، وتفسير ابن كثير: (٧/ ٢٥٤).

﴿مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ﴾، وهذا الخطاب موجه إلى كفار قريش، **أي**: إن ثبت بالحجة والبرهان أن هذا القرآن من عند الله، ولم أفتره على الله، وكفرتم به، وآمن به غيركم وشهد على صدق هذا القرآن، واختلف في تعيين الشاهد هنا من هو؟ **فجمهور المفسرين**(١): أنه عبد الله بن سلام، وقد أسلم في المدينة، وشهد على صدق القرآن.

وقيل(٢): إن الشاهد هنا موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، لقوله ﷺ: **"لو كان موسى حيًا بين أظهركم، ما حل له إلا أن يتبعني"**(٣).

وقيل(٤): إن هناك شخصًا من بني إسرائيل كان في مكة -غير عبد الله بن سلام- أسلم وشهد على صدق القرآن وآمن به.

والراجح: قول الجمهور، أن الشاهد هو عبد الله بن سلام. **ونزول السورة في مكة** فيه إشارة إلى أن هناك أكثر من شاهد على صدق القرآن من بني إسرائيل: فمنهم موسى وابن سلام وغيرهم(٥).

---

(١) ينظر: جامع البيان، للطبري (٢٢/ ١٠٣)، وتفسير ابن كثير (٧/ ٢٥٦)، وفتح القدير للشوكاني (٥/ ٢٣).

(٢) ينظر: جامع البيان، للطبري (٢٢/ ١٠٣).

(٣) أخرجه الإمام أحمد: (٢٢/ ٤٦٨) برقم: (١٤٦٣١)، والدارمي: (١/ ٤٠٣) برقم: (٤٤٩)، وأبو يعلى، (٤/ ١٠٢) برقم: (٢١٣٥)، وفي سنده مجالد بن سعيد وهو لين.

(٤) ينظر: فتح القدير (٥/ ٢٣).

(٥) ينظر: تفسير ابن كثير (٧/ ٢٥٦).

وقوله: ﴿عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾، **أي:** على مثل القرآن، وهي التوراة التي نزلت، وأنها حق، وفيها البشارة بمحمد ﷺ، وأن هذا القرآن جاء مصدقًا ومهيمنًا عليها، فآمن بالقرآن وآمن بالتوراة، وهذا ينطبق على موسى وينطبق على عبد الله بن سلام، وأما أنتم فقد منعكم الكبر فأعرضتم عن تصديقه والإيمان به.

وفي هذا الأسلوب استنكار لحالهم وتحريك لنخوتهم، **والتقدير:** كيف يشهد شخص من غيركم على صدق القرآن ويؤمن به وأنتم أيها العرب الذين نزل القرآن بلغتكم وعلى رجل منكم وتعرفونه، ويقع منكم التكذيب له والكفر به؟!.

ثم قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾، فبيّن أن سبب كفرهم وانحرافهم عن الحق، هو وقوعهم في الظلم، ومن ذلك ظلمهم لرسول الله ﷺ، فلذلك حرمهم الله الهداية، **وفي هذا إشارة إلى** الحذر من الظلم؛ فهو سبب لحرمان صاحبه من الهداية، والظلم أنواع متفاوتة، وكذلك الهداية متنوعة ومتفاوتة، فهناك هداية كاملة، وهناك هداية ناقصة، وبحسب نوع الظلم ونسبته يحرم من الهداية.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾، هذه شبهة باطلة، قالها كفار قريش، وكانوا يقصدون بها الذين سبقوهم بالإيمان من أهل مكة مثل: عمار وبلال وصهيب وغيرهم، ومرادهم أن هؤلاء الضعفاء الذين سبقوا إلى الإيمان، مما يدل على أن الإيمان ليس في مستوى راق!! فلو كان في

مستوى راقٍ لكنا نحن أولى به، فنحن القادة والسادة ونحن كبار القوم، ونحن الأثرياء الأغنياء، فكيف يسبقنا هؤلاء الفقراء إلى شيء عظيم فيه الخير؟!.

ومعروف أن الفقير غالبًا يذهب للشيء الحقير ويرضى به، أما القادة والأغنياء الأثرياء فيذهبون للأشياء الكبار، **بمعنى**: اختلاف الاهتمامات بحسب الحال، فاهتمام الفقير بشبع بطنه وستر بدنه!، **أما الكبار** فاهتماماتهم كبيرة!. **هذا فحوى منطق كفار قريش**، وهو نوع من الغرور والتكبر! وما يدريك أن الله حرمك الوصول إلى هذا الخير ومنعت الهداية بسبب ظلمك، وتكبرك، وغرورك، وهؤلاء أعطاهم الله الهداية بسبب تواضعهم!.

ثم قال: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾، اضطراب شبهة الكفار وموقفهم من القرآن، **فمرةً**: يقولون سحر، **وأخرى**: افتراه محمد، **وثالثة**: لو كان خيراً ما سبقونا إليه، **ورابعة**: هذا كذب قديم، ونحن لا نؤمن بالكذب القديم، وهي شبه باطلة مضطربة تدل على عجزهم وفساد عقولهم.

وقوله تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾، **أي**: من قبل إنزال القرآن كتاب موسى وهو التوراة، وحاله: أنه كان إمامًا للحق ورحمة للخلق.

ثم قال: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾، **أي**: القرآن الكريم، وفي قراءة ابن مسعود(١)، زيادة: (لما بين يديه)، وبها يزول الإشكال في نصب: (لسانًا عربيًا)، **أي**: وهذا كتاب مصدق لما بين يديه لسانًا عربيًا، فنصبت لسانًا على

---

(١) ينظر: جامع البيان (٢٢/ ١١٠).

أنها حال، وعربيـًا على أنها صفة له[١].

ثم قال: ﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُحۡسِنِينَ﴾، هذا هو الهدف من إنزال القرآن الكريم، الإنذار والتبشير، إنذار الذين ظلموا وهم الذين كفروا وأشركوا بالله وابتعدوا عن الحق، وبشارة للمحسنين وهم المؤمنون، ووصف المؤمنين بالمحسنين، لأنهم أحسنوا في إيمانهم وبلغوا به أعلى الدرجات.

فوائد وهدايات من هذه الآيات:

١- ذكر الله خلق السموات والأرض مع إنزاله الكتاب؛ ليجمع بين الخلق والأمر، فالخلق: إيجاد الكائنات، والأمر: التشريع وهو التحليل والتحريم، وكلاهما خاص به سبحانه.

٢- لا أحد أضل ممن يدعو إلهـًا لا يستجيب له، وهذا هو قمة الضلال والفساد.

٣- ختام الآية المتعلقة بخطاب كفار قريش بالغفور الرحيم، فيها وعظ وإرشاد لمن انحرف عن الحق، وترغيب له بالتوبة والإنابة.

٤- بيان أن الرسول ﷺ ليس له إلا أن يتبع ما يُوحى إليه، فمن باب أولى نحن أن نسير على ذلك تبعـًا للوحي وهو الكتاب والسنة.

٥- الإعجاب بالنفس والظلم سبب من أسباب البعد عن الهداية.

---

(١) ينظر: جامع البيان، لابن جرير الطبري (٢٢/ ١٠٩-١١٠).

تفسير المقطع الثاني من سورة الأحقاف

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١٣
أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٤ وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ إِحۡسَٰنًاۖ
حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ كُرۡهًا وَوَضَعَتۡهُ كُرۡهًاۖ وَحَمۡلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهۡرًاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ
أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ
صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ إِنِّي تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ١٥ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ
نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ
يُوعَدُونَ ١٦ وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي
وَهُمَا يَسۡتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيۡلَكَ ءَامِنۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٧
أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ
خَٰسِرِينَ ١٨ وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۖ وَلِيُوَفِّيَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ١٩ وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا وَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهَا فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا
كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَفۡسُقُونَ ٢٠﴾.

قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾، الإيمان والاستقامة عليه، **هما**: الأمران اللذان يتحقق بهما وعد الله

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى للإنسان، بعدم الخوف من المستقبل، وعدم الحزن على ما سبق، **فقد جاء في الحديث عن** سفيان بن عبد الله الثقفي، قال: قلت: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولاً لا أسألُ عنه أحدا بعدك؟ **وفي رواية:** غيرك، قال: "قل: آمنت بالله، ثم استقم"(١).

فالاستقامة بعد الإيمان معناها: السير على وفق مقتضيات الإيمان، من فعل الطاعات وترك المنكرات، وهؤلاء الذين قالوا هذا القول، قالوا الإيمان بألسنتهم، وأقروا به في قلوبهم، واستقاموا على ذلك بجوارحهم، وعدهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعدم الخوف من المستقبل، وبعدم الحزن على ما فات.

وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾، **أي:** من اتصفوا بهذه الصفات، فهم أصحاب الجنة المخلدون فيها فلا يخرجون منها، وقد جازاهم الله بالجنة، والخلود فيها بسبب ما كانوا يعملونه من الأعمال الصالحة.

ثم قال جل وعلا: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ إِحۡسَٰنًا﴾، وصّى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى العباد بالإحسان إلى والديهم، **والوالدان هم:** الأب، والأم، ويدخل في ذلك الجد والجدة وإن علو.

والإحسان يشمل: إحسان البر وإحسان الطاعة، والقول الحسن، والتعامل الحسن، ونحوها، ثم علّل هذه الوصية في حق الأم، ولم يذكر علتها في حق الأب، ولكنها واضحة من السياق، فإن الأب هو سبب وجود الولد، وأما الأم

(١) أخرجه مسلم: (١/ ٦٥) برقم: (٣٨).

فذكر ما تلاقيه من مشقة الحمل والولادة والرضاعة، فقال: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا﴾، أي: أنها تشعر في أثناء هذا الحمل بالمشقة، خاصة بعد أن يثقل الحمل في بطنها، وتقترب ولادتها، كما أنها تجد مشقةً وتعبـًا في بداية الحمل، حين تعلق النطفة بالرحم؛ فيحصل تغير في حالة الأم وطبيعتها، وهو ما يسمى بحالة: (الوحم)(١) والتي تجد فيها المرأة تعبـًا وآثاراً على نفسها.

ثم قال: ﴿وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾، أي: وتجد مشقةً وتعبـًا حين ولادته، وهذا يدل على حقها في بر أولادها بها، لما تجده من مشقة الحمل، ومشقة الولادة.

ثم قال: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾، هنا على تقدير محذوف، أي: ومدة حمله وفصاله- أي: فطامه- ثلاثون شهراً، فالحمل المكتمل في الغالب تسعة أشهر، والرضاعة المكتملة سنتان، أي أربعة وعشرين شهراً، المجموع ثلاثة وثلاثون شهراً، لكن هذه الآية أشارت إلى أقل مدة للحمل، وتمام مدة الإرضاع، فأقل مدة للحمل: ستة أشهر، وللإرضاع سنتان، وقد أخذ من الآية بعض العلماء(٢): "أن أقل مدة للحمل ستة أشهر"، جاء في بعض الآثار: "أن عمر بن الخطاب، رفع إليه امرأة ولدت لستة أشهر، فهمّ برجمها، فبلغ ذلك

(١) الوحم فيها معنيان: إما شدة شهوة الحبلى لشيء تأكله، ويأتي بمعنى التغيرات غير العادية التي تصاحب النساء أثناء فترة الحمل وتقترن بحالة من الغثيان والتعب والرغبة في التقيؤ المتكرر وغيرها، ينظر: لسان العرب، لابن منظور (١٢/ ٦٣٠).

(٢) ممن قال به ابن عباس وغيره من الأئمة ووافقه عثمان وجماعة من الصحابة.ينظر: تفسير ابن كثير (٧/ ٢٥٨)، وقال الإمام الشوكاني: هو مذهب مالك وجماعة من الصحابة، ينظر: فتح القدير (٥/ ٢٢).

عليًا، فقال: ليس عليها رجم، فإن الله يقول: ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾[البقرة:٢٣٣]، وستة أشهر، فذلك ثلاثون شهراً"[(١)]، فحولان **يعني**: سنتان، بأربعة وعشرين شهراً، فكم بقي من الثلاثين؟ بقي ستة أشهر، وهي أقل مدة للحمل، وهو استنباط لطيف!.

ثم قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾، **أي**: هذا المولود الذي ولد وبلغ تمام خلقه من الناحية الحسية والمعنوية، وقد ذكر العلماء في مرحلة الأشد عدة أقوال: **قيل**: ثمانية عشر سنة[(٢)]، **وقيل**: خمس وعشرين سنة[(٣)]، **وقيل**: ثلاثين سنة[(٤)]، **وقيل**: ثلاث وثلاثين سنة[(٥)]، **قيل**: بضع وثلاثين سنة[(٦)]، **قيل**: أربعين سنة[(٧)]، **قلت**: وهذا الخلاف إنما هو في بداية بلوغ هذه المرحلة، أما تمامها فالنص القرآني قد حسم الأمر فيها، فسن الأربعين هو سن التمام والكمال للإنسان في هذه المرحلة، وإذا كان الوالدان يضلان يرعيان الابن

---

(١) أخرجه عبد الرزاق الصنعاني في المصنف: (٧/ ٣٤٩) رقم (١٣٤٤٣)، وسعيد بن منصور في سننه: (٢/ ٩٣) رقم (٢٠٧٤)، والبيهقي في السنن الكبرى: (٧/ ٤٤٢) برقم: (١٥٩٥٨)، وفي بعض الروايات أنها رفعت لعثمان بدلاً من عمر، وإسناده صحيح، ينظر: التحجيل في تخريج ما لم يخرج من الأحاديث والآثار في إرواء الغليل (٤٥٢).

(٢) ينظر: ينظر: فتح القدير (٥/ ٢٢)..

(٣) ينظر: وتفسير القرطبي (٧/ ١٣٥).

(٤) ينظر: جامع البيان، لابن جرير الطبري (١٢/ ٢٢٣).

(٥) ينظر: تفسير ابن أبي حاتم (٧/ ٢١١٨).

(٦) ينظر: جامع البيان لابن جرير الطبري (١٥/ ٢٢).

(٧) ينظر: تفسير ابن أبي حاتم (٧/ ٢١١٨).

ويخافان عليه حتى يبلغ أربعين سنة فهذا يدل على رقة قلوبهم، وحرصهم على ولدهم، وإلا فعند بلوغ سن التكليف ينتهي أمر رعاية وعناية الوالدين بالأولاد، لكن هذا فيه مزيد من بيان رحمة وشفقة الوالدين(١).

وقوله: ﴿قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ﴾، **أي:** إذا بلغ الشخص هذا السن، أدرك قيمة النعمة، وطلب من ربه أن يلهمه شكرها.

وقوله: ﴿ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾، بيان أنها نعمة مشتركة بين الآباء والأبناء.

وقوله: ﴿وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ﴾، قدم طلب الشكر؛ لأنه عمل قلبي، ثم ألحقه بالدعاء بعمل الصالحات التي هي عمل الجوارح، ثم دعا الله أن يصلح له ذريته، حتى تكتمل الفرحة.

وقوله: ﴿إِنِّي تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ۝١٥﴾ **أي:** أفعل ذلك توبة مني وإنابة، وأقر لك وأعترف بأني من المستسلمين الخاضعين لأمرك، فاستجب دعائي.

وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِ﴾، **أي:** من هذه صفاتهم، وهم الذين شكروا النعمة، وعملوا الصالحات، ودعوا بصلاح الذرية، وتابوا وأنابوا إلى الله بعد إيمانهم واستقامتهم، **هؤلاء هم:** الذين نتقبل منهم أعمالهم الحسنة الطيبة المباركة الخالصة لله، ونتجاوز عما

(١) ينظر: مفاتيح الغيب، للرازي (٢٨/ ١٨).

حصل منهم من سيئات، ونجعلهم من ضمن من يدخلون الجنة.

وقوله: ﴿وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ١٦﴾، **أي:** هذا الوعد هو وعد صادق من الله سبحانه لهم، كما قال: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ٨٧﴾[النساء:٨٧]، وهو الذي كانت الرسل تعدهم به من قبل، وبلّغوهم به في كتاب ربهم، وهذا الوعد سيتحقق لهم لا محالة، فالله لا يخلف وعده.

وهنا انتهى الحديث عن الولد البار بوالديه، ولكي تتضح الصورة أكثر - ذكر هنا- حال الولد العاق لوالديه، **فقال:** ﴿وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ﴾، **أي:** هذ حال الولد العاق المتأفف عن طاعة والديه والبر بهما، **وقد نهى الله الأولاد عن ذلك فقال:** ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ٢٣﴾ [الإسراء:٢٣]. **والأف:** هو التأفف، وهو: أدنى كلمة يمكن أن يقولها الابن في حق والديه، وهي التي تظهر على شفتيه فقط من خلال خروج بعض الحركات التي يفعلها، وتدل على عدم الارتياح لما يأمر به الوالدان، وتعني: عدم الاستسلام وعدم الطاعة لهما.

وقوله: ﴿أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي﴾، بيان أن عقوقه لهما بسبب كفره بالله تعالى، وإنكاره للبعث والنشور، وأن ذلك حصل منه عند قيام الوالدين بنصحه وتوجيهه، فإذا به يرد عليهما: كيف تقولان بأن هناك بعثاً ونشوراً من القبر، وقد مات قبلنا أشخاص ودفنوا وانتهوا ولم يرجعوا من قبورهم ولم يبعثوا.

وقوله: ﴿وَهُمَا يَسۡتَغِيثَانِ ٱللَّهَ﴾، **أي:** ووالداه يستغيثان الله، ويلهجان بالدعاء

باسمه لولدهما بالهداية إلى الإيمان، ولم يقل وهما يستغيثان بالله، لأن الحال هنا حال دعاء، أو الوصف لهما أنهما يدعوان الله له بالهداية، أو يستغيثان له أن يؤمن.

وقوله: ﴿وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾، **يعني**: هلاك لك إن لم تؤمن، أو ويلك سارع إلى الإيمان، فإن لم تؤمن فالهلاك لك، فخبر الله عن البعث والنشور والقيامة حق، **فإذا بالولد الكافر بالله تعالى وبالبعث والنشور يرد عليهما بقوله:** ﴿فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٧﴾، **أي**: ما تقولانه لي إنما هو قصص وأخبار وأكاذيب السابقين لكم.

ثم قال الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ۝١٨﴾، **أي**: الذين وصفوا بهذا الوصف من التكذيب بالله، وإنكارهم للبعث والنشور، وعقوق للوالدين، هم من ضمن أمم قد سبقت قبلهم، وهم فئام كثيرة من المكذبين والمنكرين بالبعث، سواء كانوا من الإنس أو كانوا من الجن، قد سبق في علم الله الأول أنهم لا يؤمنون، فخسروا أنفسهم بعدم دخولهم الجنة، والوقوع في النار، والعياذ بالله.

ثم قال تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ﴾، **أي**: لأهل الإيمان ولأهل الكفر درجات، فتشمل الصالحين البارين، والكافرين العاقين، فتكون الدرجات بمعنى منازل للمؤمنين في الجنة أو قدرهم من النعيم فيها، وللكافرين دركاتهم في النار أو قدرهم من العذاب فيها.

واستشكل بعض المفسرين: كيف لو قلنا الدرجات للمؤمنين والكافرين، فالجنة درجات، والنار دركات؟! **قلنا**: لا إشكال في ذلك، فالجنة درجات

صعود، والنار درجات هبوط[١]، فكلاهما يسمى درجة، أو أن اللفظ جاء على التغليب[٢] ويقصد به درجات أهل الجنة ودركات أهل النار.

ثم قال: ﴿مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾، أي: أن الدرجات في الجنة للصالحين، أو الدركات في النار للكافرين؛ هي ثمرة ونتيجة لأعمالهم، وبهذا يتضح أن للإنسان درجة من عمله، فإن كان مؤمناً؛ فله درجة في الرقي والثواب، وإن كان كافراً؛ فله درجة في العذاب والعقوبة.

ثم قال: ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ١٩﴾، فالله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ يوفّي كل عامل عمله دون ظلم لأحد، وإن كان مثقال حبة من خردل، كما قال: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ٨﴾ [الزلزلة:٧-٨]، فلا ظلم عنده سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

ثم ختم الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ هذه الآيات بقوله: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾، أي: يقتربون منها حتى يروا عذابها فلا يدخلون فيها إلا وقد رأوها وعاينوها.

وعند ذلك يقول الله لهم على سبيل التهكّم: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾، أي: استخدمتم طيباتكم في الدنيا في معصية الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ وانشغلتم بها عن طاعته؛ فخسرتم بسبب ذلك طيبات الآخرة، وكان كثير من السلف[٣] ينظر في هذه الآية، فيزهدون في كثير من طيبات الدنيا، خوفاً من أن

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٧/ ٢٦٢) وفتح القدير، للشوكاني (٥/ ٢٥).

(٢) ينظر: تفسير الزمخشري (٤/ ٣٠٨).

(٣) ينظر: جامع البيان، لابن جرير الطبري (٢٢/ ١٢٠) والكشاف، للزمخشري (٤/ ٣٠٩).

يقال لهم هذا القول، ولا شك أن الزهد في هذه الدنيا طيب، لكن الله سبحانه إذا أنعم على الإنسان نعمة وظهرت عليه، ولم يعص الله فيها، وشكر الله على ذلك، فإن ذلك خير أعطاه الله في هذه الدنيا ولم يحرم من طيبات الآخرة.

ثم قال: ﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾، **أي:** يوم القيامة عندما يعرضون على النار، يقال لهم عقوبتكم اليوم أن تنالوا عذاب الهوان والإهانة، وهذا يدل على أنهم كانوا متكبرين، وهذا وارد فالغالب على كل غني وثري ومن عنده نعمة في الدنيا؛ أنه يظهر عليه الأشر والبطر والكبر والخيلاء بسبب ما أعطاه الله من نعمة المال، فلذلك يجازى بعكس ما كان عليه، **وتجتمع عليه نوعا الإهانة: الإهانة** الحسية، **والإهانة** المعنوية.

وقوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾، **أي:** هذا العذاب المهين لكم سببه الاستكبار عن الإيمان بالله وقبول الحق واتباع الخير، والكبرياء والخيلاء على الخلق.

وقوله: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾، يشعر هذا اللفظ أن هناك استكباراً بالحق، فهل يوجد استكبار بالحق؟!، الجواب: أن هذا القول خرج مخرج الغالب، إذ غالب المستكبرين هم كذلك، وأحيانًا يكون هناك استكبار بالحق، كما جاء في قوله ﷺ لأبي دجانة سماك بن خرشة يوم أحد: وقد أخذ منه سيفًا، وأخذ يتبختر بين الصفوف: "**إن هذه مِشية يبغضها الله إلا في هذا الموطن**"[(١)]، فحينما يكون

---

(١) ينظر: سيرة ابن إسحاق (٣٢٦)، والسيرة النبوية لابن كثير (٣/ ٣١)، والحديث أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: (٧/ ١٠٤) رقم (٦٥٠٨)، ورواه السيوطي في الجامع الكبير =

الإنسان أمام عدوه ويظهر له القوة والشجاعة والعزة، فهذا استكبار بالحق، وحينما يتكبر المسلم على إخوانه المسلمين ويظهر منه الأشر والبطر والخيلاء عليهم، فهذا استكبار بغير حق.

وقوله: ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾، **الفسق، معناه:** ارتكاب ما يقبح بالنفس وما يؤذيها، سواء كان ذلك على سبيل الاعتقادات أو السلوكيات التي لا تليق ونحوها، فهؤلاء قد جمعوا بين الاستكبار عن الإيمان وبطر الحق، واحتقار الناس وفعل القبائح المؤذية لهم.

فوائد وهدايات من هذه الآيات:

١- بيان فضل الاستقامة وجزاء أصحابها.

٢- بيان مكانة البر بالوالدين خاصة الأم، لما ينالها من المشقة والتعب في الحمل، والولادة، والرضاع، ونحوها.

٣- بيان خطورة العقوق، وذكر لنا صورة سيئة لهذا العاق الذي ناداه الوالدان للإيمان والطاعة وهو يكفر بالله، لذلك من عصى الله لا تتوقع منه أن يكون حسن الخلق مع الخلق.

٤- خطر التوسع في ملاذ الدنيا؛ لأنها تشغل عن الآخرة.

٥- بيان الوعيد الشديد لأصحاب الكفر، والفسوق، والعصيان.

= (٣/ ٦٢) برقم: (٧٩٦٣)، وقال ورجاله ثقات.

تفسير المقطع الثالث من سورة الأحقاف

﴿وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ
أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿٢١﴾ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا
بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ
أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ بَلۡ هُوَ
مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا
مَسَٰكِنُهُمۡۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰهُمۡ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمۡ فِيهِ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ
سَمۡعٗا وَأَبۡصَٰرٗا وَأَفۡـِٔدَةٗ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ إِذۡ كَانُواْ
يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا مَا حَوۡلَكُم
مِّنَ ٱلۡقُرَىٰ وَصَرَّفۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوۡلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرۡبَانًا
ءَالِهَةَۢۖ بَلۡ ضَلُّواْ عَنۡهُمۡۚ وَذَٰلِكَ إِفۡكُهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ﴾، بيّن الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ في هذه الآيات لرسوله ﷺ آمراً إياه أن يذكر لقريش أخا عاد، وهو هود عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، والأخوة هنا أخوة النسب(١)، وليس هود بأخ لهم في الدين لأنهم

(١) هو هود بن عبد الله بن رباح بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح. ينظر: قصص الأنبياء لابن كثير (١/ ١٢٠).

كفار، ولما تحدث الله في الآيات السابقة عن قريش وتكذيبهم لرسوله محمد ﷺ وكفرهم به؛ كان من المناسب أن يذكر هنا قصة قوم عاد، وقد كانوا أكثر أموالاً وأولاداً، وكان عندهم من رفهِ العيش والقوة والمكانة ما لم يكن عند قريش؛ لذا ذكرهم الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ بقوم عاد لأنها كانت قريبة منهم من الناحية المكانية، فقوم عاد كانوا في جنوب الجزيرة، والأحقاف الآن منطقة بين حضرموت والمهرة، وسميت الأحقاف بهذا الاسم؛ لكثرة الرمال المتعرجة فيها، والتي تشابه الجبال، وهي ممتدة في صحراء الربع الخالي من اليمن إلى جهة عمان إلى جهة الإمارات إلى جهة السعودية، ويمكن الآن لمن أراد أن يطلع عليها من خلال تصوير الأقمار الصناعية لها بواسطة (جوجل إيرث)[1]، فإنها تظهر واضحة جداً، وشاهدة على عظمة خلق الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

وقد أرسل الله هوداً إليهم منذراً لهم، وهود عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ لم يكن أول رسول إلى الأرض ولا آخرهم، بل هو واحد في سلسلة طويلة من الأنبياء والمرسلين.

ولذا قال: ﴿وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ﴾، **أي:** مضت رسل قبله إلى أقوامهم، وهناك رسل أتت بعده، **وهذا كقوله لرسوله محمد** ﷺ: ﴿مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾، وكانت خلاصة طلب هود عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ من قومه: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾، وهذه هي دعوة الرسل جميعاً، فما أرسل الله من رسول إلا دعا قومه إلى التوحيد.

---

(١) **جوجل إيرث:** هو برنامج خرائطي وجغرافي معلوماتي يرسم خريطة للأرض عن طريق تركيب الصور التي تم الحصول عليها من صور الأقمار الصناعية والتصوير الجوي ونظم المعلومات الجغرافية الثلاثية الأبعاد الخاصة بالكرة الأرضية. موقع الكتروني: https://www.google.com/earth

وقولـه: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ٢١﴾، علّـل هـذه الـدعوة والأمـر بالتوحيد بخوفه عليهم من عذاب الله تعالى العظيم، لأن الرسل عليهم السلام لـديهم من الشفقة والرحمة على أقوامهم ما لا يوجد عند غيرهم، وأعظمهم محمد ﷺ الـذي قـال الله عنـه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء:١٠٧]، فالرحمة متجذرة في قلوب الرسل، ويخافون على أقوامهم العذاب والهلاك إن لـم يؤمنوا واستمروا على الكفر والتكذيب.

فكان جواب قوم هـود لـه: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٢٢﴾، فقد كانوا يعبدون أصنامًا، يدعونها من دون الله تعالى وادعوا أنها آلهتهم، فلما دعاهم هود إلى عبادة الله وحده، قـالوا لـه: أجئتنا لتـصرفنا عـن عبادة آلهتنا إلى ما تدعونا إليه، وهو سؤال استنكاري منهم، معناه الرفض لطلبه، وتكذيبه، ثم تحدّوه بقولهم: إن كنت فعلاً نبيًا مرسلاً من عند الله؛ فأتنا بالعذاب الذي خوفتنا منه إن لم نؤمن لك.

فكان رده عليهم: ﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾، العلـم بموعـد هلاككـم عنـد الله، فأنا لا أعلم الغيب.

ومهمتي فقط: ﴿وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ﴾، أما موضوع نزول العذاب والنكال والهلاك بكم فأمره إلى الله، وكذلك موضوع الهداية والتوفيق واستجابة النـاس وإيمانهم أيضًا أمره بيد الله.

ثـم قـال: ﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ﴾، **أي:** مـن خـلال تـصرفاتكم

وإجاباتكم وكلامكم معي، تبيّن لي أنكم قوم جهلة، تجهلون عظمة ربكم ولماذا خلقكم، وتجهلون كيفية وأسلوب التعامل مع الأنبياء والرسل!.

ولما علم الله من القوم أنهم لن يؤمنوا أنزل بهم عذابه، وبطريقة لم يكونوا يتوقعون حدوثها!!، حيث أراهم شيئاً معترضاً في السماء كالسحاب، باتجاه أوديتهم ومساكنهم، ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾، نظروا في الأفق فرأوا سحاباً كثيراً ممتداً فظنوا ذلك مطراً كالعادة، فقد كانت الأمطار تأتي إليهم باستمرار، ولكن خاب ظنهم هذه المرّة، وكان في الواقع هو العذاب الذي وعد الله رسوله بأن يهلكهم به.

ولذا أجابهم هود بقوله: ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ﴾، **أي:** هذا العذاب الذي استعجلتم به قد نزل بكم! وهو ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾﴾، وهي المذكورة في قوله: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾﴾[الحاقة:٦-٧]، وهي عاصفة مليئة بالغبار والأتربة والرياح الباردة الشديدة، استمرت ما يقارب مائة وثمانين ساعة، وهي أكبر عاصفة مرت على البشرية.

ووصفها الله بقوله: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾، دمرتهم وأهلكتهم وأهلكت زروعهم وثمارهم وحيواناتهم وغطت على مساكنهم المرتفعة فلم تبقِ إلا الشيء اليسير منها، وكلْ هنا من ألفاظ العموم المخصوص، والمقصود بها كل الأشياء التي أُمرت بتدميرها، وإلا فالسموات والأرض باقية لم تدمر بهذه العاصفة.

وقوله: ﴿فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾، **أي:** أصبحوا قتلى دمرتهم هذه الريح ولم تُبقِ إلا آثار المساكن التي طُمِرت بشيء من الرمل.

ثم قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تعقيبًا على ذلك: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾، **أي:** ما حصل لهم كان بسبب إجرامهم، وهو وقوعهم في الشرك والكفر وتكذيب الرسل.

ثم قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ﴾، **أي:** ولقد أعطينا قوم عاد من أسباب التمكين الشيء الكثير من المال والقوة والزروع والرفاهية في العيش، وغيرها، **قيل**[١]: إن هنا: بمعنى ما النافية، **أي:** فيما لم تمكنوا فيه يا أهل مكة، فقوم عاد كانوا أكثر تمكينًا من قريش، ومع هذا التمكين؛ لم يمنعهم من العذاب، فكيف بكم يا أهل مكة وتمكينكم أقل، فالعذاب لكم من باب أولى إن كذبتم الرسل.

ثم قال: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً﴾، **أي:** ولم يكن تكذيبهم لأنهم لم يكونوا مؤهلين لقبول الحق، فلديهم أسماع وأبصار وقلوب، وهذه موجودة معكم أيضًا، ولكنهم لم يستخدموها في معرفة الحق، فحرموا توفيق الله لهم في ذلك.

ولذا قال: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُواْ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، فمن جحد وكفر بآيات الله حرمه الله الاستفادة من

---

(١) ينظر: فتح القدير، للشوكاني (٥/ ٢٨)، وفتح الرحمن في تفسير القرآن، لمجير الدين الحنبلي (٦/ ٢٩٩).(٢٠٨).

سمعه وبصره وفؤاده في الوصول إلى معرفة الحق، وحرمه الله الهداية، وفي هذا إشارة إلى أن العبد محتاج إلى أن يستمطر التوفيق من الله، ولا يغتر بقوة حواسه ولا بذكائه، فالذكاء وحده لا يكفي، بل يطلب من الله أن يرزقه التوفيق إلى الحق والإيمان به.

ثم قال: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾، **أي:** أصابهم العذاب الذي كانوا به يستهزؤون، حيث طلبوه من هود على سبيل الاستهزاء والاستهتار به فاستجاب الله لطلبهم.!!

ثم عاد الخطاب إلى كفار قريش بعد أن ذكر لهم قصة قوم هود للعظة والعبرة، فقال: ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا مَا حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡقُرَىٰ وَصَرَّفۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾، **أي:** انظروا حولكم في الجزيرة العربية يميناً وشمالاً وشرقًا وغربًا، ستجدون قرىً ومدنًا كثيرة أهلكها الله، **منها:** قوم لوط، وقوم عاد، وغيرهم، ولم يهلكهم الله دون أن يرسل إليهم حججًا وبراهين ورسلاً، بل نوّع الله الآيات البينات الواضحات لهم، فلم يؤمنوا ولم يرجعوا إلى الله، فلذلك أهلكهم الله.

ثم قال: ﴿فَلَوۡلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرۡبَانًا ءَالِهَةَۢۖ بَلۡ ضَلُّواْ عَنۡهُمۡ﴾، **أي:** وقع بهم الهلاك، وكانوا يعبدون أصنامًا مثلكم، فلم تنفعهم تلك الأصنام، وقد كانوا يتقربون إليها ويعبدونها من دون الله، كما تتقربون أنتم إلى آلهتكم وأصنامكم، فكما لم تنصرهم آلهتهم وهلكوا؛ فكذلك أنتم لن تنصركم آلهتكم هذه التي تدعونها من دون الله، وهذا حال كل من يعتمد على غير الله، فلن ينفعه وقت الشدة، وهؤلاء لم يجدوا منهم نصراً، بل غابوا عنهم وقت حاجتهم إليهم.

ثم قال: ﴿وَذَٰلِكَ إِفۡكُهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٢٨﴾، **أي:** وذلك الذي حصل لهم من الهلاك بسبب كذبهم الذي اختلقوه، فالذي يصنع صنماً من تمر، أو من عجين، أو من طين، ثم يعبده، كذاب مفتري، كيف يكون هذا إلهاً لك، وأنت الذي صنعته، ثم أنت الذي تدعوه وتؤلهه وتعبده وتطلبه، وجعلته إلهاً من دون الله، ففعلك هذا كذب وافتراء، فالإله الحق هو الذي يخلق ويرزق، وهو المتصرف سبحانه!.

فوائد وهدايات من هذه الآيات:

١- ذكّر الله كفار قريش بحال أقوام كانوا أشد منهم قوة، ومع ذلك أهلكهم الله بسبب كفرهم، من باب إقامة الحجة عليهم.

٢- بيان أن مهمة الرسل عليهم السلام هي إبلاغ الرسالة فقط، وأنهم لا يعلمون الغيب، وليس بيدهم العذاب الذي يطلبه أقوامهم منهم.

٣- نبّه الله قريشاً أن تتعظ بمن حولها من القرى التي أهلكهم الله بسبب كفرهم، فلم يتعظوا، بل لم يتعظوا مما حصل لهم في غزوة بدر ولا الأحزاب، حتى قُتل منهم عدد كبير، وما اتعظ منهم من اتعظ إلا في يوم فتح مكة، فأسلموا بعد ذلك، وسموا بعد ذلك بمسلمة الفتح، وحسن إسلام كثير منهم.

٤- غفلة قوم هود وغرورهم، كان سبب عدم توبتهم ورجوعهم إلى الله؛ حيث ظنوا أنهم ما زالوا مكرمين على الله، وأن ما يرونه هو نعمة المطر فلم ينتبهوا من غفلتهم حتى أصابهم العذاب.

تفسير المقطع الرابع من سورة الأحقاف

﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا
قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ
مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ
وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ
فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ
ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ
عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ
فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل
لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ
ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾، ذكر الله هذه الآيات التي تخبر عن قصة إيمان الجن، تسلية لنبيه ﷺ بعد أن حصل له التكذيب من قومه، فإن كفار قريش لما كذبوه وآذوه، خرج ﷺ من مكة حزينًا يبحث عمَّن يؤمن به، فاتجه إلى الطائف وحصل له التكذيب من أهلها، بل رُجم بالحجارة من سفهاء القوم، وبعد أن رجع من الطائف وقد أدمى القوم

قدميه، دعا بذلك الدعاء المشهور: **"اللَّهم إني أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي، وهواني على الناس أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني، أو إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي، غير أن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن يحل عليّ غضبك، أو ينزل بي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك"**(١).

وفي هذه الفترة العصيبة من زمن الدعوة كان رسول الله ﷺ يفكر كثيراً في أمرها، حتى إنه ﷺ خرج ذات يوم من مكة مهموماً فلم يُفق إلا وهو بقرن الثعالب(٢)، وهي منطقة تُسمّى اليوم بالسيل الكبير على طريق مكة إلى الطائف وتبعد عن مكة حوالي ثلاثة وخمسين كيلو متراً.

وقد مشى النبي ﷺ هذه المسافة كلها دون أن يشعر إلى أين يتجه، وفي هذا الوضع العصيب وفي ليلة من تلك الليالي أرسل الله إليه نفراً من الجن واجهوه وقابلوه في وادي يسمى وادي نخلة(٣) بين الطائف ومكة، **قيل**: إنهم من جن نصيبين(٤)،

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٣/ ٧٣) رقم (١٨١)، وقال الألباني: ضعيف.ينظر: سلسلة الأحاديث الضعيفة: (٦/ ٤٨٧) رقم (٢٩٣٣).

(٢) **قرن الثعالب هو** قرن المنازل وهو على طريق الطائف من مكة.ينظر: المعالم الأثيرة، شراب (٢٢٦).

(٣) **نخلة**: وهو الوادي الذي يقع على ليلة من مكة.ينظر: المصدر السابق (٢٨٧).

(٤) **نصيبين**: تقع في أقصى شمال الجزيرة الفراتية، على الحدود بين تركيا وسورية، وهي داخل الحدود التركية، تجاور مدينة القامشلي السورية، ليس بينهما غير الحدّ نصيبين شماله، والقامشلي جنوبه، ويمرّ فيهما أحد فروع نهر الخابور.ينظر: المصدر السابق (٢٨٨).

وعددهم سبعة[١]، فإن النفر من ثلاثة إلى تسعة، فوافوا النبي ﷺ وهو يصلي، وقد وردت روايات كثيرة في قضية سماع الجن القرآن من النبي ﷺ، ذكرها البخاري والبيهقي في (دلائل النبوة)، وغيرهم، **والخلاصة:** أن سماع الجن من النبي ﷺ تكرر في عدة حوادث، حيث كانوا يأتون إليه على شكل وفود وأفواج يستمعون، ويعودون إلى أقوامهم.

والمقصود بالنفر هنا هم الذين استمعوا إليه أول مرة في وادي نخلة، **قيل:** كان ذلك بعد عودته من الطائف[٢]، **وقيل:** كان ذلك في بداية رسالته أو بعثته ﷺ[٣]، وهو الراجح، بدليل أن الجن لما مُنعوا من استراق السمع بحثوا هنا وهناك فوجدوا النبي ﷺ وهو يصلي بأصحابه فاستمعوا القرآن، فقالوا: هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء[٤].

وقوله: ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ﴾، لما حضروا واقتربوا من النبي ﷺ وجدوه يقرأ القرآن، فطلب بعضهم من بعض أن ينصتوا، بمعنى: يسكتوا حتى يستمعوا لهذا القرآن، والإنصات: عدم الكلام، حتى لا يشوش المتكلم على السامع، فأنصتوا واستمعوا إلى ما كان يتلوه رسول الله ﷺ من القرآن فوجدوا فيه من العظة والعبرة والهدى ما جعلهم يؤمنون به.

---

(١) ينظر: جامع البيان، لابن جرير الطبري (٢٢/ ١٣٥) والدر المنثور في التفسير بالمأثور، السيوطي (٧/ ٤٥٣).

(٢) ينظر: الدر المنثور في التفسير بالمأثور. للسيوطي (٧/ ٤٥٢ - ٤٥٣).

(٣) ينظر: جامع البيان، لابن جرير الطبري (٢٢/ ١٣٤).

(٤) رواه البخاري: (١/ ١٥٤) برقم: (٧٧٣، ومسلم: (١/ ٣٣١) برقم: (٤٤٩)، بنحوه.

وقوله: ﴿فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ٢٩﴾، **أي:** لما قضى النبي ﷺ تلاوة القرآن أو قضى المجلس، انصرف هؤلاء الجن ورجعوا إلى أقوامهم منذرين، كل شخص ينذر قومه وأسرته، وهذا يدل على أن الجن مكلفون، كما أن الإنس مكلفون، وأن محمداً ﷺ مرسلٌ إلى الجن، كما هو مرسلٌ إلى الإنس، وأن الجن لا يوجد منهم رسول، وإنما الرسل من الإنس، وأما الجن ففيهم منذرون يستمعون الخبر من الإنس أو من رسول الإنس، ويذهبون ينذرون قومهم بما قال ذلك الرسول.

فلما رجعوا إلى قومهم منذرين: ﴿قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾، هو القرآن، **أي:** سمعنا شيئًا من القرآن الكريم، تلاه علينا ذلك النبي الأمين، وهذا الكتاب أُنزل من بعد موسى، ولعل قائل يقول: لماذا لم يقولوا بعد عيسى؟ وعيسى بعد موسى، ومحمد ﷺ بعد عيسى، قال بعضهم: إن هؤلاء الجن كانوا من اليهود وهم لم يؤمنوا بعيسى، ولذلك لم يذكروه[1]، وقال: آخرون: بل لم يكونوا يهوداً وإنما ذكروا موسى؛ لأن كتابه هو الأصل، وهو التوراة، أما الإنجيل فهو مجموعة مواعظ استكمل بها عيسى ما جاء في التوراة[2]، وهو قول وجيه أيضًا.

وقوله: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ٣٠﴾، هذا وصف للقرآن، **أي:** مصدقًا لما بين يديه من الكتب السابقة له، بما فيها التوراة

---

(١) ينظر: تفسير القرطبي (١٦/ ٢١٣) وفتح القدير، للشوكاني (٥/ ٣١).

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير (٧/ ٢٨٠)، وتفسير السعدي (٧٨٣).

والإنجيل، ويدل الخلق إلى الاعتقاد الحق، وإلى العمل الصالح الطيب المقبول، وقد عبّر عن الاعتقاد بالحق، وعن العمل الصالح الطيب المقبول بالطريق المستقيم، وهذا من بلاغة هؤلاء القوم وحسن أسلوبهم في إخبارهم قومهم عن القرآن الكريم.

ثم انطلقوا في دعوة قومهم فقالوا: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾، داعي الله هنا هو محمد ﷺ إذ هو المعني بالاستجابة، بعد أن سمعوا القرآن الكريم الذي أُنزل عليه وآمنوا بالرسول، وبما جاء به من دين وكتاب، فإن الإيمان به سبب في مغفرة ما سبق من الذنوب، ومن ضمنها ما كان يفعله الجن من شرك بالله تعالى، وهذا يدل على أنهم كانوا على غير الحق، فقد عبّروا عن فعلهم بالذنوب، ومن الذنوب الشرك بالله، بل هو أكبرها وأعظمها.

وقوله: ﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ٣١﴾، **أي:** يسلمكم أن تقعوا في العذاب الأليم، الذي هو عذاب جهنم، واستدل بعض المفسرين بهذا على أن الجن لا يدخلون الجنة، وإنما يستفاد من إيمانهم أن الله يغفر ذنوبهم، وأن يسلموا من العذاب الذي هو النار، وهذا قول ضعيف(١)؛ لأنه قد جاء في آيات كثيرة تتحدث على أن الجن يدخلون الجنة كما في **آيات سورة الرحمن، ومنها قوله:** ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٣﴾[الرحمن:١٣]، **وكما في الحديث:** أن النبي ﷺ قرأ سورة الرحمن على أصحابه فسكتوا، فقال: **"لقد كان الجن أحسن رداً منكم، كلما قرأت عليهم: فبأي آلاء ربكما تكذبان؛ قالوا: لا بشيء من آلائك ربنا**

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٧/ ٢٨٠)، وفتح القدير، للشوكاني (٥/ ٣١).

نكذّب، فلك الحمد"(١)، وأيضـًا لا يوجد في الآخرة إلا جنة أو نـار، فإذا سلموا من النار، كانوا في الجنة، وقد جاءت آيات نحوها في حق الإنس من المؤمنين، فهل يعني هذا أن الإنس لا يدخلون الجنة؟ الجواب: لا، إنما هنا أخبر عن المغفرة والنجاة من الذنوب، وهي كناية عن نجاتهم من النار ودخولهم الجنة.

ثم قال على لسان الجن: ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ **أي:** من لا يستجيب ويؤمن لمحمد ﷺ فليس بمعجز في الأرض، فإن الله لا يعجزه شيء في السموات ولا في الأرض، فلا يعجزه أن يعاقب من كفر بمحمد ﷺ سواء كان من الجن أو من الإنس.

﴿وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ﴾، **أي:** ليس للكافر من دون الله من ينصره ويمنعه من عذاب الله إن نزل به، ثم أخبر عن حال المكذبين بالنبي محمد ﷺ والذين لم يستجيبوا له.

فقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٣٢﴾، وهذا واضح، فإن من لم يستجب للرسل؛ فقد وقع في الظلال المبين، لأنه جانب طريقهم وهي طريق الحق والهداية والنور.

ثم خاطب الله عموم المشركين والمنكرين للبعث والنشور، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ﴾، أو لم يعلموا أن الله هو

---

(١) رواه الترمذي: (٥/ ٣٩٩) برقم: (٣٢٩١) والحاكم في المستدرك: (٢/ ٤٧٣) برقم: (٣٧٦٦)، **وقال:** صحيح على شرط الشيخين، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (٥/ ١٤٩) برقم: (٢١٥٠).

الذي خلق السموات والأرض بقدرته وحكمته وعظمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، بما تحويه من الأجرام العظيمة التي لا يساوي الإنسان والخلق بجوارها شيئًا، ولم يُتعبه خلقهن، **كما قال:** ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾[ق:٣٨]، فكيف يُعجزه أن يخلق الناس وهم أقل منها، **كما قال:** ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾[غافر:٥٧].

وقوله: ﴿بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، فأيهما أشد وأعظم خلق السموات والأرض أو بعث الموتى من قبورهم؟، لا شك أن بعث الموتى من قبورهم أسهل وأيسر.

ولذا قال: ﴿بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾، **أي:** أن الله قادر على ذلك ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وقدرته نافذة في كل شيء.

ثم أعاد هنا مرة أخرى الحديث عن النار؛ وذلك لأن قريشًا تكذب بالبعث والنشور، وتنكر أن هناك جنة أو ناراً، **فقال:** ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾، هذا العرض سيكون يوم القيامة، كما جاء في الحديث: "**يُؤتى بجهنم لها سبعون ألف زمام في كل زمام سبعون ألف ملك يجرّونها**"[(١)]، حتى تكون حاضرة في الحشر يراها الكفار، **فيقول الله تعالى لهم:** ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ﴾؛ لأنهم كانوا ينكرونها، **فيجيبون:** ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾، الآن أقروا بأن الجنة حق، وبأن النار

(١) رواه مسلم: (٤/ ٢١٨٤) برقم: (٢٨٤٢).

حق، وبأن البعث حق، وبأن النبيين حق، وأقسموا على ذلك، **فجاءهم الجواب:** ﴿قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ٣٤﴾، **فقال لهم:** ذوقوا العذاب، **قيل**[١]: إنه على سبيل التهكّم، فإن الذوق لا يكون إلا للشيء الطيب، وهو الذي له مذاق يستمتع به، لكن هنا يكون الذوق من نوع آخر يذوق العذاب، **أي:** يطعم ألمه ويصل إليه شدة الألم بعد أن يتذوقه، وذلك كله كان بسبب كفركم، وهذا يعني أن الكفر سبب لدخول النار، والوقوع في العذاب الأليم.

ثم أرشد الله نبيه محمداً ﷺ فقال له: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾، لا شك أن النبي محمد ﷺ كان صابراً.

والمقصود بهذا الأمر الاستمرار، مثل قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾، **أي:** استمر في التقوى، وأخبره أن هذا الصبر الذي أنت عليه هو صبر من سبقك من الرسل.

قال بعض أهل العلم: إن من هنا بيانية، وأن كل الرسل من أولي العزم، لأنهم أصحاب عزم وقوة وإرادة[٢].

وقال آخرون: بل هي للتبعيض، **أي:** اصبر كما صبر بعض الرسل، وهم من يُسمّون بأولي العزم[٣].

---

(١) ينظر: الكشاف، للزمخشري: (٤/ ٣١٧)، وفتح القدير، للشوكاني: (٥/ ٣٢) والسرج المنير، للخطيب الشربيني: (٤/ ٢٠).

(٢) ينظر: تفسير القرطبي (١٦/ ٢٢٠)، وتفسير البغوي (٧/ ٢٧١)

(٣) ينظر: الدر المنثور، السيوطي: (٧/ ٤٥٤)، وجامع البيان، للطبري (٢٢/ ١٤٥) وتفسير =

ثم اختلفوا في تحديدهم(١)، **والراجح**: أنهم خمسة؛ إبراهيم ونوح وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام.

واستدل من حدّد هؤلاء بأولي العزم بحديث الشفاعة، وهو فعلاً نص يدل على مكانة القوم، فإن الله سبحانه لما يحشر الناس يبقى الناس في المحشر ويلجمهم العرق ويأتيهم الخوف، ويتعبون، فيبحثون عن من يشفع إلى ربهم ليقضى بينهم أو ليفصل بينهم، أول ما يذهبون إلى آدم فيعتذر وهو أبو البشر، ثم إلى نوح فيعتذر، ثم إلى إبراهيم فيعتذر، ثم إلى موسى فيعتذر، ثم إلى عيسى فيعتذر، ثم إلى محمد ﷺ فيقول: أنا لها(٢).

وفي حديث آخر: أنا أول شافع وأول مشفّع في الأمة(٣)، وهؤلاء الأربعة الرسل الذين قبله إذا استثنينا آدم باعتباره أبو البشر ومحمد ﷺ خامسهم، وهم الذين التجأ إليهم الناس بعد الله في المحشر؛ حتى يشفعوا إلى الله، فدل ذلك أن لهم مكانة خاصة بين الرسل ولذلك أطلق عليهم أولوا العزم من الرسل.

وقوله: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾، **أي**: لا تستعجل لقومك العذاب، وفعلاً كان

= النسفي (٣/ ٣١٩).

(١) ينظر: الدر المنثور، للسيوطي: (٧/ ٤٥٤)، وتفسير القرطبي (١٦/ ٢٢٠)، وفتح القدير، للشوكاني (٥/ ٣٣).

(٢) رواه البخاري: (٩/ ١٤٦) برقم: (٧٥١٠)، ومسلم: (١/ ١٨٣) برقم: (٣٢٦).

(٣) رواه ابن ماجه: (٢/ ١٤٤٠) برقم: (٤٣٠٨)، والترمذي (٥/ ٥٨٨) برقم: (٣٦١٦)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٤/ ١٤٥) برقم: (١٥٧١).

النبي ﷺ صابراً على قومه، لم يستعجل عليهم العذاب، بل كان ﷺ يدعو أن يُخرج الله من أصلابهم من يؤمن به كما جاء في قصة عودته من الطائف، فقد جاء إليه ملك الجبال، فقال له مرني أن أطبق عليهم الأخشبين -وهما جبلان عظيمان حول مكة-، فقال: **"بل أصبر عليهم، لعل الله يُخرج من أصلابهم من يقول لا إله إلا الله"**[(١)]، وهذا من صبره عليهم رغم أنهم طردوه وآذوه واضطروه إلى أن يهاجر من مكة، وهي أحب البقاع إلى الله وإليه، فخرج منها وهو حزين لفراقها، ولم يدع عليهم، وما من نبي إلا وله دعوة مستجابة، فبعض الأنبياء دعوا على أقوامهم، كما حصل من نوح دعا على قومه فأغرقوا، إلا محمد ﷺ فإنه قال: **"اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة"**[(٢)].

وقوله: ﴿كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَ مَا يُوعَدُونَ لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارِۭ﴾، **أي**: كأن الكفار حينما يبعثون يوم القيامة ويرون النار والعذاب المعد لهم، وتذهب الدنيا من أعينهم، وتنتهي من ذاكرتهم تماماً، فلا يتذكرون من مدة بقائهم في الدنيا إلا لحظة قصيرة، كأنها مقدار ساعة، والساعة ممكن أن تكون الساعة المعروفة التي هي ستون دقيقة، فإن النهار اثنا عشر ساعة، كما في الحديث[(٣)]، والليل مثله، أو أن يكون المقصود من الساعة جزءاً من الوقت، أي لحظة من الوقت، وعلى كلا المعنيين يتضح لنا أن الدنيا حقيرة، وأنها لا قيمة لها عند الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، فمهما عاش الإنسان فيها إلا أنها تصبح في الآخرة كأنها لحظة أو ساعة!، وذكر الله ساعة من

(١) رواه البخاري: (٤/ ١١٥) برقم: (٣٢٣١)، ومسلم: (٣/ ١٤٢٠) برقم: (١٧٩٥).

(٢) رواه مسلم: (١/ ١٨٩) برقم: (١٩٩).

(٣) رواه الطبراني: (٣/ ٣٠١).

النهار؛ لأن الليل غالبًا وقت للنوم، فساعة الليل لا عمل فيها؛ ولأنها تذهب بالنوم، بخلاف ساعة النهار، فأنت تدركها وتعرف تفاصيل وقتها، وماذا فعلت فيها.

وقوله: ﴿بَلَٰغٌ﴾ في معنى هذه **اللفظة قولان**[١]: **الأول:** أن هذه الدنيا بلاغ، يتبلغ بها الإنسان إلى الآخرة، فتكون الحياة الدنيا كلها بلاغ، **أي:** تتبلغ بالدنيا إلى الآخرة.

والقول الثاني: هذا القرآن بلاغ للناس[٢]، كما في قوله: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ﴾[إبراهيم: ٥٢]، **أي:** أن القرآن أداة للبلاغ، يبلغ به الناس الحق، ويحذرون من الباطل ويرشدون إلى الإيمان والاستقامة، وهو الراجح لدلالة السياق عليه.

ثم قال الله: ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾، **أي:** بعد هذا البلاغ وهذا البيان الذي يحصل للناس بعد سماعهم للقرآن؛ فمن هلك فسيهلك عن بيّنة ومن يحيى فسيحيى عن بيّنة.

والفسق هو: فعل ما يقبح بالإنسان، ويؤثر عليه سواء في أخلاقه أو سلوكه أو على درجته ومنزلته في الآخرة، **والمقصود بالفسق هنا:** الفسق الأكبر، الذي هو الكفر، لأن من وقع فيه فقد هلك.

---

(١) ينظر: جامع البيان للطبري (٢٢/ ١٤٦)، وتفسير ابن كثير (٧/ ٢٨٢)، وفتح القدير، للشوكاني (٥/ ٣٣).

(٢) ينظر: جامع البيان، للطبري (١٧/ ٥٧)، وتفسير ابن أبي حاتم (٧/ ٢٢٥٤)، والتفسير الوسيط، للواحدي (٤/ ١١٧).

فوائد وهدايات من هذه الآيات:

١- من الأدب حسن الاستماع للمتكلم والإنصات له؛ فكيف إذا كان المتكلم هو الرسول ﷺ، أو هو الذي يقرأ القرآن، أو يعلم الناس دين الله.!! فإن الجن استمعوا وأنصتوا لرسول الله وهو يتلوا القرآن، ومطلوب من الإنس كذلك إذا حضروا درس القرآن أو درس الوعظ أو غيرها من الدروس التي فيها كلام طيب، أن يكون من حسن أدبهم الإنصات والاستماع وعدم الكلام.

٢- أهمية الجمع بين الإنصات والاستماع وحضور الذهن وسكون الجوارح عند سماع القرآن.

٣- بيان سرعة استجابة المهتدين من الجن، وفي هذه رسالة ترغيب إلى الإنس أن لا يكون الجن أحسن حالاً منكم مع القرآن؛ يستمعون وينصتون ويستجيبون ويذهبون إلى قومهم منذرين.

٤- أن من ثمرة الاستجابة إلى الحق؛ المسارعة في الدعوة إليه، فادع غيرك من أصحابك وزملائك إليه، ودلهم على الخير الذي دلك الله عليه؛ حتى يكتب الله لك أجر الدعاة، ويثبتك الله على الحق.

٥- أن الصبر من خلق الأنبياء والرسل، ولا شك أن أولي العزم من الرسل كانوا أكثر صبراً من غيرهم، فعلى المسلم أن يقتدي بهم في ذلك كله.

تفسير سورة محمد

تفسير المقطع الأول من سورة محمد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ (٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ
كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ (٣) فَإِذَا
لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ
الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ
اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (٤) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (٥) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (٦) يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (٧) وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ
(٨) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٩) ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا
كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا (١٠) ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ
آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ (١١)﴾.

سورة محمد؛[1] ذهب البعض إلى أنَّ هذه السورة من السور

(١) **سورة محمد**: تسع وثلاثون، **وقيل**: ثمان وثلاثون آية، **وحروفها**: ألفان وثلاث مئة وتسعة وأربعون حرفًا، **وكلمها**: خمس مئة وتسع وثلاثون كلمة. ينظر: فتح الرحمن في تفسير القرآن =

المكية[١] والجمهور أنها مدنية[٢].

وقد ابتدأت هذه السورة، بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ١﴾ **والمناسبة واضحة بينها وبين خاتمة سورة الأحقاف،** فإن الله تعالى ختم آخر آية من سورة الأحقاف، بقوله: ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ٣٥﴾، **فيصح أن يقال:** إن القوم الفاسقين؛ هم الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله، وهذا وصف للكافر في الغالب، فهو صاد عن سبيل الله، فمن كفر بالله؛ فكفره صد عن سبيل الله، ولو لم يقم بالصد فعلاً؛ لأن الكفر صد عن سبيل الله للنفس، وإذا صار الإنسان كافراً، فسيكون قدوة لغيره ممن حوله، كما أن الداعية المؤمن قد يقتدي به آخرون؛ فيؤمنوا، فهكذا الكافر قد يقتدي به آخرون؛ فيكفروا، فيكون كفره صداً عن سبيل الله، ولو لم يضف إلى ذلك عملاً آخر كالتحذير من الإسلام ونحوه، **فجمع لهم بين الصفتين: صفة الكفر** بذاته، فكان قدوة للناس بكفره، **وصفة الصد** بقوله أو فعله.

وقوله: ﴿أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ١﴾، فحكم على أعمالهم بالضلال، **أي:** لا قيمة لها، حتى ولو فعل الكافر بعض الخير، فإن هذا الخير لا يستفيد منه صاحبه في

= (٦/ ٣٠٨)، وتفسير القرطبي (١٦/ ٢٢٣)."ومن أسمائها: سورة القتال، وسورة الذين كفروا". فتح القدير للشوكاني (٥/ ٣٥)، وفي ظلال القرآن (٦/ ٣٢٧٨).

(١) ينظر: الكشاف، للزمخشري (٤/ ٣٣١)، وتفسير القرطبي (١٦/ ٢٢٣).

(٢) ينظر: الدر المنثور في التفسير بالمأثور (٧/ ٤٥٦)، والكشاف، للزمخشري (٤/ ٣١٤)، والمحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥/ ٩٦).

الآخرة، كما قال الله تعالى عنهم: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾[الفرقان:٢٣]، وقد يستفيد منه في الدنيا فقط، سواء بالسمعة الحسنة، أو ما يسمى اليوم بالراحة النفسية، ولذا تجد بعض الكفار من يهود ونصارى وغيرهم يهتمون بما يسمى اليوم بالأعمال الإنسانية، مثل الأعمال الإغاثية، وكفالة الأيتام، ونحوها، وهم لا يريدون بذلك الأجر والثواب من الله في الآخرة؛ لأنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر؛ وإنما يفعلون ذلك لما يجدون في أنفسهم من راحة وانشراح بسبب آثار عمل الخير، فالعمل الطيب والخير الذي يعمله الكافر؛ يجد أثره في الدنيا، أما في الآخرة فلا يستفيد منه شيئًا.

وتمتاز هذه السورة بعنايتها بالمقارنة المتنوعة بين حال المؤمنين وحال الكافرين، فلما تحدث الله عن الذين كفروا، وأنه أضل أعمالهم بسبب كفرهم وصدهم عن سبيل الله.

ذكر الله حال المؤمنين فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، ولا شك أن الإيمان والعمل الصالح هو مجمل هذا الدين؛ لأنه إما اعتقاد وإما عمل، سواء اعتقاد القلب أو عمل اللسان أو عمل الجوارح.

لكنه أضاف إلى الإيمان والعمل الصالح هنا قوله: ﴿وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾، وهي جملة معترضة للتوضيح وزيادة البيان، وإلا فقوله: الذين آمنوا وعملوا الصالحات، يشمل إيمانهم بما نزّل على محمد من الوحي، لكن ذكر الله ذلك هنا على سبيل المقابلة مع حال الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله، فكان لا بد أن يذكر ما يقابلها من صفة حسنة عند المؤمنين، فأضاف: وآمنوا بما نزّل

على محمد، فأولئك صدوا عن سبيل الله، بمعنى كفروا ومنعوا الإيمان بمحمد ﷺ، وهؤلاء آمنوا بالله ورسوله، وآمنوا بما أُنزل على محمد ﷺ.

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ﴾، **أي:** هذا الذي آمنوا به، وهو محمد ﷺ وما أنزل عليه، هو الحق، فمحمد نبي حق، وما نزّل عليه وحي حق.

وثمرة هذا الإيمان والعمل الصالح مذكور في قوله: ﴿كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾، **أي:** محى عنهم آثار ذنوبهم وغفرها لهم.

﴿وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ ۝٢﴾، **أي:** أصلح لهم شأنهم، **فالبال**(١): لفظ يطلق على شؤون الإنسان كلها، دينية أو دنيوية، أو أخروية.

ومن دعائه ﷺ قوله: **"أصلح لي شأني كله"**(٢)، فكل شيء تحتاج إلى أن يصلح لك؛ فهو من بالك، ومن صلاح البال: صلاح النية، وصلاح الذرية، وصلاح الجسد، وصلاح العلم، وصلاح المال، وصلاح الحياة كلها؛ لأن البال إذا صلح، فقد ارتاح الإنسان!.

ثم قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡبَٰطِلَ﴾، ذلك **أي:** الضلال للأعمال؛ لأن السياق يدل عليه، حصل لهم **أي:** للكفار بسبب أنهم اتبعوا الباطل، وهو ما سوى الحق.

---

(١) أصل البال يطلق على الذهن، والخاطر، والحال والشأن. ينظر: لسان العرب، لابن منظور (١١/ ٧٤).

(٢) أخرجه أحمد (٣٤/ ٧٥) وأبو داود (٤/ ٣٢٤)، والطبراني في المعجم الأوسط (٤/ ٤٣) برقم: (٣٥٦٥)، وقال الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم: (٢٧٧): سنده حسن.

والباطل: اسم جنس، والألف واللام للاستغراق، فيشمل كل باطل سواء جاء عن طريق الشياطين من الجن أو من الإنس، أو من وسوسة النفس، أو مما أحدثه أهل الباطل من أقوال وأفعال واعتقادات، وهو هنا الكفر والشرك بالله سبحانه، وعبادة غيره، فمن اتبع الباطل وترك الحق؛ أضل الله عمله وأبطله.

وقوله: ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡحَقَّ مِن رَّبِّهِمۡ﴾، **أما حال المؤمنين** فإنهم اتبعوا الحق من ربهم وتركوا الباطل، وربط الحق هنا بالله؛ لأن الله مصدر الحق، فالله هو الحق، وهو الذي يهدي إلى الحق.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمۡثَٰلَهُمۡ ٣﴾، اسم الإشارة هنا يعود للمثال المضروب لحال الفريقين، والذي سبق بيانه من خلال المقارنة بين حال المؤمن الذي اتبع الحق وأصلح باله، وبين حال الكافر الذي اتبع الباطل فأضل أعماله، وبيّن أن هذا مثال مضروب يصلح لكل الناس في كل وقت وحين.

وقوله: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ﴾، **الفاء** عاطفة تعقيبيه، **والخطاب للمؤمنين**، والمعطوف محذوف يفهم من السياق، **فطالما هناك فريقان: فريق** الكفار، **وفريق** المؤمنين، فلن يعيش الطرفان في سلام، بل ستقع بينهم حرب، والمعنى: فإذا قامت الحرب بينكم وبين عدوكم، ولقيتم أيها المؤمنون الكفارَ، فاضربوا أعناقهم، **وفيه إشارة** إلى الحزم في التعامل مع الكفار أثناء القتال، فلا تأخذكم بهم رأفة ولا شفقة، وإنما سارعوا مباشرة بضرب أعناقهم، **كما قال**: ﴿فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ﴾[الأنفال:١٢]، وخص هنا ضرب الرقاب، وهي الأعناق؛ لأنها أقرب وسيلة لإزهاق الروح، ولذلك

فالمشروع في إقامة القصاص هو ضرب العنق[١]؛ **كما في الحديث: "حد الساحر ضربة بالسيف"**[٢]، من أجل أن يموت بسرعة، وهذا من الإحسان في القتل.

وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ﴾، **أي:** استمروا في ضرب أعناقهم، فحتى هنا للغاية، **أي:** حتى يثقلهم ويتعبهم قتل الكثير منهم، ويجعلهم يستسلمون لكم، فإذا بدأوا بالاستسلام فلا داعي للاستمرار في ضرب الرقاب، بل انتقلوا إلى المرحلة التي تليها وهي: ﴿فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ﴾، **وشد الوثاق هو:** الأسر، **أي:** أربطوا الأسرى وأوثِقوهم بالقيود أو الحبال، واحبسوهم حتى لا يهربوا، هذه هي المرحلة الثانية، وهي مرحلة الأسر للكفار في ساحة المعركة، ثم تأتي بعدها المرحلة الثالثة، وهي مرحلة التعامل مع الأسرى.

فقال: ﴿فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ **أي:** أمامكم عدة اختيارات أيها المسلمون للتعامل مع أسرى الحرب من الكفار، وهذه الخيارات يفصل فيها ولي أمر المسلمين[٣]، **وهي: إما المنّ، وهو:** أن يفك الأسير بلا مقابل، ويؤمر بالتوبة وعدم التعرض للمسلمين مرة أخرى، **وإما الفداء، وهو:** أن يفك الأسير بمقابل مالي يقدره ولي أمر المسلمين، وإما أن تَستَرِّقه، وهو أن تتركه عبداً لك يخدمك، ولم يذكر الاسترقاق في هذه الآية، وذكر في أدلة أخرى، **منها أن النبي**

---

(١) ينظر: روائع البيان تفسير آيات الأحكام، محمد علي الصابوني (١/ ١٨٣).

(٢) رواه الترمذي: (٤/ ٦٠)، والحاكم: (٤/ ٣٦٠)، وقال الألباني: ضعيف، ينظر: ضعيف الجامع، برقم: (٢٦٩٩).

(٣) ينظر: جامع البيان، لابن جرير الطبري (٢٢/ ١٥٦)، وتفسير ابن كثير (٧/ ٢٨٤)، وتفسير القرطبي (١٦/ ٢٢٧-٢٢٨).

ﷺ، **قسم** سبي بني المصطلق[١]، **واصطفى** صفية من سبي خيبر[٢]، **وقسم** سبي هوازن[٣]، وغيرها، **وقيل**: إنما لم يذكر الاسترقاق هنا؛ لأن الخطاب موجه إلى العرب المشركين، وهم لا يسترقون[٤]، **والجمهور**: على أن الرق عام في كل كافر، سواء كان عربياً أو غير عربي[٥].

وقوله: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾، هذه من التشبيه البليغ، حيث شبه الحرب بكائن حي وفي ظهره حمل، **وسمي هذا الحمل بالوزر**؛ لأنه مؤذي ومتعب، والمعنى: تضع آثامها، والمقصود حتى تنتهي المعركة، سواء قلنا نهاية معركة بعينها، أو انتهاء الحرب بين المؤمنين والكفار مطلقاً، وهذا لا يكون إلا بنزول عيسى وهزيمة الكفر، وكسر الصليب ووضع الجزية وإيمان الناس أجمعين.

ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾، اسم الإشارة يعود إلى القتل الذي جرى بينكم وبينهم، وإلا فلو أراد الله لانتصر للمؤمنين من الكفار بدون قتال، وبدون دماء، وبدون ما يحصل منكم تعب ومشقة، ولكن هذا الذي شرعه الله من القتال بين أهل الحق وأهل الباطل، الهدف منه الابتلاء لكم جميعاً، فيختبر بعضكم ببعض، يختبر المؤمن ويبتليه بالإيمان والقتال والجهاد في سبيله، وكذلك يبتلي الكافر بكفره وقتاله للمؤمنين.

---

(١) ينظر: المستدرك على الصحيحين للحاكم (ط مقبل): (٤/ ١١٠).

(٢) ينظر: مسند أحمد ط الرسالة (١٩/ ٤٠٠) برقم: (١٢٤٠٩).

(٣) ينظر: مسند أحمد ط الرسالة (٩/ ٢٧٤)، برقم: (٥٣٧٤).

(٤) ينظر: المغني لابن قدامة (٩/ ٢٢١).

(٥) ينظر: المهذب في فقه الإمام الشافعي، للشيرازي (٣/ ٢٨١).

ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾﴾، **في قراءة** ﴿قاتلوا﴾[1]، وكلاهما بمعنى واحد، **لكن قاتلوا بمعنى:** خرجوا للقتال في سبيل الله، وقُتِلوا **أي:** استشهدوا في المعركة، ولن يذهب أجر من قاتل أو قُتِل.

وقوله تعالى: ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾﴾، **فعلى قراءة** ﴿قاتلوا﴾: لا إشكال في اللفظ، **أي:** سيمنحهم مزيداً من الهداية والتوفيق ويصلح شأنهم في الدنيا مرة أخرى، ويصلح لهم آخرتهم بعد الموت.

وعلى قراءة ﴿قُتِلوا﴾: فكيف سيهديهم الله، وهم قد قتلوا؟

والجواب: إذا قلنا: قُتِلوا في سبيل الله، **أي:** استشهدوا في المعركة، فقد جعل الله لهم مجموعة من الجوائز بسبب هذا العمل الذي قاموا به وبذلوا دمائهم وأموالهم في سبيل الله رخيصة، **الجائزة الأولى:** أن لا يضل أعمالهم، بل يجدوا أجرها عند الله.

والثانية: سيهديهم إلى طريق الجنة دون اعوجاج أو ضلال، فيعبرون الصراط ويتجاوزون المخاطر وكأنهم يعرفون الطريق.

والثالثة: يصلح لهم شأنهم في والآخرة، فإنه كما يحتاج إلى صلاح البال والشأن في الدنيا للإنسان؛ فيعيش سعيداً مرتاحاً؛ فهو كذلك يحتاج إلى صلاح البال في الآخرة، وفي البرزخ، وفي المحشر، بحيث تكون شؤونه كلها صالحة، وأموره كلها ميسرة، ونفسه مرتاحة.

---

(١) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (٥/ ٣٨).

ثم ختم هذه الجوائز بالجائزة الرابعة وهي قوله: ﴿وَيُدۡخِلُهُمُ ٱلۡجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمۡ ۝٦﴾، **أي:** بيّنها لهم، فجعلهم يعرفون منازلهم منها، وقد جاء في الحديث: **"فوالذي نفس محمد بيده، لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا"**[(١)]، فلا يضلون الطريق، فكل واحد يذهب إلى منزله في الجنة كأنه يعرفه ولا يحتاج إلى من يدلّه عليه، بل يذهب إلى قصره كأنه يعرفه من قبل.

وقيل: شرّفها لهم ورفعها وعلاها، ومنها الأعراف التي هي الجبال وما أشبهها.

وقيل: طيّبها مأخوذ من العَرْف وهو الطيب[(٢)]، وكل المعاني السابقة محتملة، ولا تعارض بينها، فقد ذكر الله أوصافها في القرآن والسنة تعريفًا للمؤمنين بها، وكلما كان الإنسان بالجنة أعرف؛ كان أكثر شوقًا إليها!،

أما إذا رأى الإنسان الجنة حقيقة؛ فيكاد يطير من الفرح إليها، ولذا كان من البشارات التي تحدث للمؤمن عند الموت أن يرى مقدمات عن الجنة فتقول روحه: قدموني، قدموني[(٣)]، وإذا كان في القبر فتح له طاقة إلى الجنة، فيقول: رب أقم الساعة[(٤)]، حتى يرجع إلى أهله في الجنة من شدة شوقه إليها.

وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ﴾، إذا أراد المؤمنون أن

---

(١) رواه البخاري: (٨/ ١١١)، رقم (٦٥٣٥).

(٢) ينظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية: (٥/ ٩٨).

(٣) رواه البخاري: (٢/ ٨٥) برقم: (١٣١٤).

(٤) رواه أحمد: (٣٠/ ٥٠١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع: (١/ ٣٤٤) رقم (١٦٧٦).

ينصرهم الله على أعدائهم، فيجب أن ينتصروا أولاً على أنفسهم، وذلك بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، فمن لم ينتصر على نفسه؛ فلن ينتصر على عدوه، وهذا وعدٌ من الله تعالى لكل المؤمنين، سواء كانوا في عهد النبي ﷺ أو لمن أتى بعده، والوعد متحقق بتحقق شرطه.

وقوله: ﴿وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ۝٧﴾، وتثبيت القدم حسي ومعنوي، فالحسي: مهمٌ إذا كانت الحرب بالمسايفة، وهي تحتاج إلى قوة الجسد المبنية على ثبوت القدم واستقراره، فلو حصل لرجله انزلاق أو أي شيء من عدم الاستقرار؛ فإنه يسقط أمام عدوه، فيضربه بالسيف.

ولذلك أنزل الله تعالى عليهم في بدر المطر؛ كما قال: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذۡهِبَ عَنكُمۡ رِجۡزَ ٱلشَّيۡطَٰنِ وَلِيَرۡبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمۡ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلۡأَقۡدَامَ﴾[الأنفال: ١١]، تطهيراً لنفوسهم؛ وتلطيفاً للجو، وتثبيتاً لأقدامهم، لأنهم كانوا في الصحراء والرمال اليابسة تتحرك تحت أقدامهم، فلما جاء المطر ثبتت وصارت أرضاً صلبة يضع الإنسان رجله فتثبت.

أما المعنى المعنوي: وهو وعد الله المؤمنين بالصبر والثبات، وعدم الانهزام النفسي، والوقوف بقوة أمام الباطل، وعدم الانحراف.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٨﴾، ثم أخبر الله عن حال الكافرين، وأنهم في تعاسة، **ويقال للعاثر:** تعساً، إذا لم يريدوا قيامه[1].

(١) ينظر: تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن (٩/ ٣١).

والتعيس، هو: الإنسان الذي يعيش في حاله سيئة، فلا صلاح بال، ولا نصر ولا تمكين.

ثم بيّن سبب تلك التعاسة وضياع أجور الأعمال، فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾، اسم الإشارة يعود إلى التعاسة وضلال العمل.

وسببه أنهم كرهوا ما أنزل الله من القرآن والإيمان الذي جاء به محمد ﷺ فكانت النتيجة: ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ⁽٩⁾﴾ **أي**: أبطلها ولم يقبلها، وأبطل ثوابها، ثم أرشد الله المشركين حتى ينتبهوا لحالهم، وينقذوا أنفسهم من الضلال، **فقال لهم**: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، **أي**: هلّا ساروا في الأرض التي حولهم وسألوا عن أخبار الأمم السابقة، وكيف كانت نهاية الذين كانوا قبلهم من الكفار، فقد ﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ⁽١٠⁾﴾، **أي**: دمرهم الله وأهلكهم جميعاً، ثم هدد من سار على طريقتهم ممن أتى بعدهم بمثل هذه العاقبة، فمن كفر بالله ورسله؛ فعاقبته التدمير والهلاك، وفي هذا تهديد ووعيد لكفار قريش إن لم يؤمنوا، فستكون عاقبتهم مثل عاقبة الكفار الذين سبقوهم.

ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ⁽١١⁾﴾، اسم الإشارة يعود إلى النصر والهلاك.

فالنصر: الذي حصل للمؤمنين، سببه أن الله مولاهم.

والهلاك: الذي حصل للكافرين، سببه أنه لا مولى لهم، أو يرجع إلى كل ما

سبق ذكره من نتائج المقارنة للفريقين، فما حصل للمؤمنين من إصلاح البال، وتكفير السيئات، وإدخال الجنات، والنصر على الأعداء، فإن سببه ولاية الله للمؤمنين، كما في الحديث: "**إنَّه لا يذِلُّ من واليت**"(١)، وما حصل للكافرين من ضلال أعمالهم وإحباطها وهلاكهم وهزيمتهم سببه أن الكافرين لا مولى لهم، كما في الحديث: "**ولا يعِزُّ من عاديت**"(٢)، وبهذا تتسق الآيات بعضها مع بعض، والله أعلم.

فوائد وهدايات من هذه الآيات:

١- النكاية في العدو بالقتل وضرب الأعناق، وسيلة مثلى لإخضاعه، فإذا انهزم يكون بعدها الأسر وشد الوثاق.

٢- خيارات الإسلام في التعامل مع الأسير الكافر هي: المنّ، أو الفداء، أو الاسترقاق، بحسب ما يحقق المصلحة، والأمر في ذلك لولي أمر المسلمين.

٣- إن نصر الله تعالى للمؤمنين مشروط بنصرهم لربهم، باتباع أوامره، واجتناب نواهيه.

---

(١) رواه ابن ماجه: (١/ ٣٧٢) رقم (١١٧٨)، وأبو داود: (٢/ ٦٣) (١٤٢٥)، والترمذي: (٢/ ٣٢٨) رقم (٤٦٤)، والنسائي (٣/ ٢٧٥) رقم (١٧٤٤)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود برقم: (١٤٢٥).

(٢) المصدر السابق.

تفسير المقطع الثاني من سورة محمد

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ١٢ وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ
ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ ١٣ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ
وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم ١٤ مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ
طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ وَلَهُمۡ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡۖ
كَمَنۡ هُوَ خَٰلِدٞ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ ١٥ وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ
مِنۡ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ
١٦ وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ١٧ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗۖ
فَقَدۡ جَآءَ أَشۡرَاطُهَاۚ فَأَنَّىٰ لَهُمۡ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ ذِكۡرَىٰهُمۡ ١٨ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ
لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ١٩﴾.

قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾، في هذه الآيات بيّن الله سبحانه تعالى أن العاقبة لعباده المؤمنين الذين آمنوا به وبرسوله ﷺ وعملوا الصالحات، ووعدهم بأن يدخلهم الجنات التي من أوصافها أنها تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار، ولا يتبادر إلى

ذهن السامع أن الأنهار تجري من تحت الجنة، فإنه لا فائدة من ذلك لمن هو داخل الجنة، فإن الجنة تكون جميلة بمناظرها وطريقة جريان الأنهار بداخلها من تحت أشجارها وأغصانها أو من تحت الأرائك والسرر، أو من بين يدي قصور المؤمنين فيها.

وحتى يتضح الفرق بين نعيم أهل الجنة، وعذاب أهل النار؛ ذكر الله حال الفريقين، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوًى لَّهُمۡ ١٢﴾، انظر إلى هذه المقارنة بين مؤمن يعمل الصالحات في الدنيا، وصبر على ابتلاءاتها؛ فعوضه الله وجازاه بجنات تجري من تحتها الأنهار، وبين كافر حاله في الدنيا كحال الأنعام، يأكل ويشرب ويتمتع، ثم كان في الآخرة من أهل النار، ووجه الشبه أن الكافر ليس له من الدنيا إلا التنعم بما أكل من النعم؛ لأنه لا عمل صالح لديه ولا يدخل الجنة، وكذلك الحيوان ليس له من الدنيا إلا التنعم، وكلما تنعم الحيوان كلما سمن، فتجهز للذبح؛ لأن غالب الناس لا يذبحون من الحيوان الهزيل الضعيف، وهكذا الكافر يأكل ويتمتع، ويستعجل على نفسه الوقوع في النار، إلا أن هذه الحيوانات غير مكلفة، وحياتها تنتهي بذبحها، أما الكافر فإنه مكلف سيبعث ويسأل عن النعم التي تنعم بها ويحاسب عليها، وقد جاء أنه لما يبعث الله الخلق يوم القيامة يبعث شاتين أحدهما جلحاء[1] والأخرى قرناء، ثم يقول للجلحاء: اقتصي من القرناء، ثم يقول لهما كوني ترابًا، فلما ينظر الكافر عدل الله، يخاف على نفسه، فيقول: ﴿يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ

(١) الجلحاء من المواشي هي التي لا قرن لها ينظر: لسان العرب، لابن منظور (٢/ ٤٢٤).

تُرَٰبَۢا ﴿٤٠﴾ ﴾[النبأ:٤٠][(١)]، فيتمنى أن يكون شاة من أجل أن يقال: له كن ترابًا، فيكون ترابًا.

وقوله: ﴿وَٱلنَّارُ مَثۡوًى لَّهُمۡ ﴿١٢﴾﴾، **أي**: مصير ومرجع للكفار يرجعون إليها فيستقرون فيها.

وقوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ﴾، هذا الخطاب لمحمد ﷺ وهو في الحقيقة لمن يسمعه من الكفار الذين شاركوا في إخراج النبي ﷺ من مكة، والمقصود بالقرية هنا مكة، **أي**: وكم من قرية كانت موجودة حولكم مثل: قرى قوم عاد، وقرى ثمود، وقرى قوم لوط، وغيرهم، حيث وصفها بأنها أشد قوة من أهل مكة الذين أخرجوك يا محمد منها، بسبب إيذائهم له.

وفي الحديث: "والله إنك لأحب البقاع إلى الله وإليّ، ولولا أن قومك أخرجوني ما خرجت"[(٢)]، ثم بيّن ماذا حصل لهذه القرى الكافرة.

فقال: ﴿أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ ﴿١٣﴾﴾، إذاً فلينتظر أهل مكة هلاكًا كما حصل لهلاك القرى المجاورة التي كانت أشد وأقوى من قريش، فإذا كان المهْلِكُ هو الله فلا يقف أمامه قوة، ولا ينتصر أمامه أحدٌ، فإنه لا ناصر لهؤلاء القوم من الله.

---

(١) أخرجه أحمد (١٤/ ٣٦٥) برقم: (٨٧٥٦)، وصححه الألباني في الصحيحة: (٤/ ٤٤٦)رقم (١٩٦٧).

(٢) أخرجه الترمذي: (٥/ ٧٢٢) رقم (٣٩٢٥) وابن ماجة: (٢/ ١٠٣٧) رقم (٣١٠٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع: (٢/ ١١٩٢) رقم (٢٤١٨).

ثم قال سبحانه: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾، وهذا وجه آخر للمقارنة، حيث يقارن بين شخص اتضح له الحق وبانَ؛ فآمن على حجة من ربه وبرهان، وسار على صراط مستقيم، وبين شخص آخر، زين له الشيطانُ أو نفسُه الأمارة بالسوء سوءَ عمله من الكفر والشرك والفواحش؛ فاتبعها وهلك بسببها، فأيهما أفضل وأحسن مرتبة؟! **كما قال:** ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾[الملك:٢٢]، **قيل**[1]: إن المقصود بذلك؛ محمد ﷺ، ولا شك أنه كذلك، ولكن الآية تعم كلَّ من هذا حالُه[2]، **والمعنى:** أفمن كان على بيّنة كمحمد ﷺ، ومن تبعه، وسار على طريقته ونهجه، ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾﴾، من الكافرين المبتعدين عن الله تعالى، الذين تركوا الحق، وزين لهم الشيطان سوء أعمالهم، وجعلهم يتبعون أهوائهم، فوقعوا في الكفر والضلال والانحراف.

ثم ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وصفًا للجنة، فقال: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾، وعد الله عباده المؤمنين المتقين بدخولها، فالله إنما أعدها وخلقها من أجلهم، كما قال تعالى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾[آل عمران:١٣٣]، **المتقون هم:** عباد الرحمن الذين تحققت فيهم أعلى صفات الإيمان والتقوى؛ فجزاؤهم الجنة التي أعدها الله لهم، ثم شرع الله في بيان ما في هذه الجنة.

فقال: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾، فليس نهراً واحداً؛ بل هي أنهار متعددة،

---

(١) ينظر: جامع البيان (٢٢/ ١٦٦)، والبحر المحيط (٨/ ٧٨).

(٢) ينظر: جامع البيان (٢٢/ ١٦٦)، وتفسير ابن كثير (٧/ ٢٨٩)، وفتح القدير (٥/ ٤١).

وصُف ماؤها بأنه غير آسن، **والماء الآسن هو:** الذي قد تغير طعمه، إما بالمكث أو بنجاسة وقعت فيه، وهذا التغير قد يكون باللون أو بالطعم أو بالريح، أما ماء الجنة لا يتغير طعمه مهما مكث، فهو في منتهى الصفاء والنقاء.

ثم ذكر النوع الثاني من الأنهار، فقال: ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾، وهذه أنهار من ألبان لم يتغير طعمها أيضـًا، مما يدل على لذته وحسن مذاقه.

ثم ذكر النوع الثالث من الأنهار، فقال: ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾، وهذه الأنهار من خمر، موصوفة بأن طعمها لذيذ لكل من شربها، ولا تُسكر صاحبها، **كما قال في آية أخرى:** ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾﴾[الصافات:٤٧]، بخلاف خمر الدنيا، فما يحصل لصاحبها من نشوة حين يشربها؛ فذلك من أثر ذهاب عقله، وما سميت الخمر خمراً إلا لمخامرتها العقل وذهابها به، أما خمر الآخرة، ففيها لذة للشاربين، وليس فيها تصديع للرؤوس!.

ثم ختم هذه الأنهار بالنوع الرابع، فقال: ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾، أي لا شائبة فيه ولا شمع، بل عسل نقي صافٍ.

وقوله: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾، وكل التي تقتضي العموم، فكل ما تخيلته من ثمرة واشتهته نفسك فهو موجود في الجنة؛ كما في قوله: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾﴾[فصلت:٣١]، فكل ما تطلبه يأتيك ولو على سبيل الاستحالة، فبعض الناس يطلب شيئـًا مستحيلاً فيوجده الله، فلا مستحيل على الله جل وعلا، ومع هذه النعم الحسية.

هناك نعم أخرى معنوية، وهي: ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾، فمغفرة الذنوب وطمأنينة النفوس وراحة البال من أعظم النعم المعنوية.

ثم قال: ﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ﴾، **الكاف** للتشبيه، والمشبه به محذوف يفهم من السياق، **وتقديره:** إذا كان هذا حال المؤمنين في الجنة، فما هو حال الكافرين في النار؟ وأيهما أحسن منزلة وأفضل مكانًا؛ الخالد في الجنة، أم الخالد في النار؟!، وإذا كان أولئك القوم في الجنة يشربون من أنهار متنوعة، ويأكلون من كل الثمرات مع مغفرة للذنوب، فما هو حال الكافر في النار وما شرابه؟!

أجاب بقوله: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾، فالكفار من شدة العذاب والحر في النار؛ يعطشون فيستغيثون ويطلبون الماء؛ **كما في قوله تعالى:** ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾ [الكهف:٢٩]، **أي:** يُسقون ماءاً شديد الحرارة يقطّع الأمعاء.

وهنا يظهر الفرق بين حال الفريقين، بالمقارنة بين من يشرب من ماءٍ نظيف، وعسلٍ مصفى، ولبن طازج، وخمر لذيذة الطعم، وبين من يشرب من ماءٍ حميم يقطع أمعاءهم، وهنا سبق علمي طبي في القرآن الكريم، فمعلوم أن الأمعاء لها جدار قوي جداً، لا تؤثر فيها الأشياء الحارة، فلو أكلت شيئًا حاراً أو شربت ماءً حاراً، فستجد الألم في الفم والبلعوم، أما إذا نزل إلى الأمعاء والمعدة فلا تشعر بألمه إلا إن وجد عندك قرحة في المعدة أو قرحة في الأمعاء[1]، ولذا

---

(١) ينظر: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، محمد راتب النابلسي (١/ ١٦٣).

ذكر هنا تقطيع الأمعاء؛ من أجل أن يذوق العذاب الأليم؛ لأن الغالب أن هذه الأمعاء لا تتألم إلا إذا حدث لها تمزق، والله أعلم.

ثم قال: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾، هذا أول ذكر للمنافقين في هذه السورة، حيث يخبر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نبيه محمداً ﷺ عن بعض من يحضر مجلسه، فليس كل من يحضر مجلسه مؤمنين، بل منهم منافقون، أي: ومن المنافقين يا محمد من يستمع حديثك ولكنهم لا يفقهون ما تقول؛ لأنهم لا يستمعون سماع رغبة وفائدة، وإنما سماع رياء وسمعة، فإذا انتهى المجلس وخرجوا منه، سألوا من كان حاضراً ويستمع سماع تَعَلُّمٍ وفهم، بقولهم: ﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾، وهو أسلوب استفزازي للحاضرين من المؤمنين، حيث أعرضوا عن السماع الحقيقي للفائدة، ثم يستفزون المؤمنين بقولهم: ماذا قال؟ وكأنهم يقولون لهم ماذا استفدتم؟!! وهو نوع من الاستفزاز يتكرر من المنافقين في كل زمان ومكان، وليس في مجلس رسول الله ﷺ فقط، بل تجدهم في كل مجلس علم، لهم نفس الصفات، ولكنهم يختفون فقط عند قوة الإسلام، ويظهرون ويزدادون صراحة وظهوراً عند ضعف الإسلام!.

وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ١٦﴾، أي: بسبب إعراضهم عن السماع الحقيقي للفائدة؛ ختم الله على قلوبهم، فلا يفهمون ما تقول؛ فتركوا اتباع الحق واتبعوا أهواءهم، وهذه هي النتيجة الحتمية لكل من أعرض عن سماع الحق واتّباعه؛ أن يطبع الله على قلبه؛ فلا يعرف الحق من الباطل، ويصبح متبعاً للأهواء الباطلة التي تجعله في ظلام الباطل، وتمنعه نور الهداية!!.

أما من وفقه الله لسماع الحق واتباعه؛ فقد وعده الله بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ١٧﴾، وهذا بيان لحال المؤمنين الذين استمعوا إلى كلام رسول ﷺ بصدق وإخلاص؛ ففهموا ما قاله، واستوعبوا الحق الذي جاء به، فآمنوا به واهتدوا، فزادهم الله هدى من عنده، ووفقهم للفهم والعمل، وهذا من فضل الله وكرمه على العبد، حينما يقبل على الله بصدق وإخلاص؛ يزيده هداية وتوفيقاً، فالجزاء من جنس العمل، ومنحهم التقوى لنفوسهم، **والتقوى هي**: بلوغ المرتبة العالية من صفات المؤمنين، **وهي**: أن تجعل بينك وبين عذاب الله وقاية بفعل الواجبات وترك المحرمات، وأن لا يراك الله حيث نهاك، ولا يفتقدك حيث أمرك.

ثم قال الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗ﴾، الخطاب محتمل أن يكون للفريقين، المؤمنين والكافرين، ويحتمل أن يكون موجهاً للكافرين فقط، **والمعنى**: هل ينظرون إلا أن تقوم عليهم الساعة فجأة وبدون مقدمات، سواءً قلنا ساعتك أيها الفرد، فمن مات فقد قامت قيامته[1]، أو الساعة العامة التي هي قيام الساعة الكبرى، وكلا الساعتين سواء الخاصة أو العامة لا تأتي إلا بغتة، إلا أن الأنبياء يُسْتَأْذَنُون في قبض أرواحهم كما ثبت ذلك في السنة[2]، **أما عامة البشر** فيموتون دون أن يعلموا متى تنتهي آجالهم، وهكذا

(١) ينظر: الفردوس بمأثور الخطاب، (١/ ٢٨٥) رقم (١١١٧)، وروايته مرفوعاً ضعيفة أو موضوعة. ينظر: سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة (١١/ ٨١٩) رقم (٥٤٦٢).

(٢) ينظر: البخاري: (٢/ ٩٠) رقم (١٣٣٩)، ومسلم: (٤/ ١٨٤٢) برقم: (٢٣٧٢).

البشرية كلها لا تدري متى تقوم الساعة فهي تأتي بغتة، ولذلك فإن الفطن يستعد لها من الآن، يستعد للقيامة قبل أن تقوم، بالطاعة والتوبة والإقبال على الله.

ثم بيّن أن موعدها قد اقترب، فقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾، **أي:** علاماتها، وهي نوعان: صغرى، وكبرى، فالعلامات الكبرى وهي التي تقوم الساعة بعدها مباشرة.

وقد ذكرها النبي ﷺ، وهي عشر: طلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى بن مريم، والدجال، وخروج يأجوج ومأجوج، والدابة، ونار تخرج من عدن، والدخان، وثلاثة خسوف(١).

وأما العلامات الصغرى فهذه كثيرة: فبعثة محمد ﷺ أولها؛ كما قال ﷺ: **"بعثت أنا والساعة كهاتين، وأشار بالسبابة والوسطى"(٢)**، فمحمد ﷺ يتقدم على الساعة كما تتقدم الأصبع الوسطى على السبابة، بمعنى أن الفرق بينه وبين قيام الساعة قليل، ولذلك كان خاتم الأنبياء، وأمته خاتمة الأمم، وهناك أشراط صغرى كثيرة ذكرها النبي ﷺ في بعض أحاديثه(٣) وجمعت في كتب مستقلة(٤).

---

(١) أخرجه مسلم: (٤/ ٢٢٢٥) رقم (٢٩٠١).

(٢) أخرجه البخاري: (٨/ ١٠٦)، برقم: (٦٥٠٤و٦٥٠٥)، ومسلم: (٢/ ٥٩٢)، برقم: (٨٦٧).

(٣) ينظر: صحيح البخاري: (٤/ ١٠١) رقم (٣١٧٦).

(٤) مثل: (الإشاعة لأشراط الساعة) لمحمد بن رسول البرزنجي الحسيني، (١٠٤٠هـ - ١١٠٣هـ)، وكتاب (أشراط الساعة) لعبد الله بن سليمان الغفيلي، وكتاب (صحيح أشراط الساعة) لعصام موسى هادي، وغيرها كثير.

وقوله: ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴿١٨﴾﴾، **أي:** فكيف سيكون حالهم حينما يأتيهم الموت فجأة، وحينها يتذكرون أن هذه نهاية حياتهم؛ فيسارعون إلى الإيمان بالله ورسله، وبعيد عليهم أن ينتفعوا به بعد أن ذهب وقته!!.

ثم ختم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هذه الآيات بقوله: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾، والخطاب هنا لرسوله محمد ﷺ ولأمته من بعده، أن يعلم حقيقة التوحيد، وهذا مهم جداً، فيجب على كل مسلم أن يتعلم التوحيد، ويعرف مقتضياته وما يلزمه نحو ربه من عبادته بطريقة صحيحة، فإن بعض الناس يعبدون الله بجهل، ومن عبد الله بجهل؛ يخطئ أكثر مما يصيب.

ويفسد أكثر مما يصلح، لذلك أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالعلم قبل القول والعمل، **فقال:** ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾، **قيل:** استغفر الله ليعصمك من الذنوب[(١)].

وقيل: إن المقصود بها الاستغفار لما دون الذنوب، وهي: الانشغال بالمباحات عن الطاعات[(٢)].

وقد كان ﷺ ينشغل أحياناً بالمباحات من الأعمال اليومية كالأكل والشرب والنوم ونحوها؛ فيؤثر ذلك على صفاء ونقاء قلبه، فيقول: **"إنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة!"**[(٣)].

---

(١) ينظر: تفسير القرطبي (١٦/ ٢٤٢).

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب (١٨/ ٣٥٩).

(٣) أخرجه مسلم: (٤/ ٢٠٧٥) رقم (٢٧٠٢).

وكذلك أمره بالاستغفار للمؤمنين والمؤمنات، وهذا يدل على فضل المؤمنين عند ربهم ومكانتهم عنده سبحانه.

ثم قال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ١٩﴾، فالله يعلم متقلب الناس، وهو حركتهم، وما يفعلونه في يومهم وليلتهم، في ذهابهم وإيابهم، وكذلك يعلم الله مثواكم، وهو: السكون وعدم الحركة[1]، أو يكون المعنى: يعلم متقلبكم وهي أعمالكم التي على ضوئها يصير مثواكم إما إلى الجنة وهي الأعمال الصالحة، وإما متقلبكم وهي أعمالكم السيئة التي يصير مثواكم بسببها إلى النار[2].

فوائد وهدايات من هذه الآيات:

١- اقتصار الكفار وهمهم على التمتع بالدنيا والمتع الزائلة بها، ولذا شبههم الله بحال الأنعام، ثم النتيجة أنه من أهل النار، بخلاف حال المؤمنين.

٢- بيان أن الكفار يوم القيامة يؤمنون، ولكن لا ينفعهم إيمانهم آنذاك.

٣- بيان الفرق الشاسع بين جزاء المؤمنين وجزاء الكافرين في الآخرة، وقد كثر في هذه السورة المباركة المقابلة بين الصنفين حتى يختار الإنسان

---

(١) ينظر: جامع البيان لابن جرير الطبري: (٢٢/ ١٧٤)، تفسير ابن كثير (٧/ ٢٩٢)، تفسير السعدي: (٧٨٨).

(٢) ينظر: تفسير البغوي (٧/ ٢٨٥)، وتفسير القرطبي (١٦/ ٢٤٢).

لنفسه أحد الطريقين.

٤- بيـان سـوء أدب المنـافقين مـع رسـول الله ﷺ في مجلـسه، وعـدم استماعهم له استماع فائدة.

٥- بيان أن العلم قبل القول والعمل، وأن الإنسان لا بد أن يتعلم دينه حتى لا يعبد الله على جهل.

تفسير المقطع الثالث من سورة محمد

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞۖ فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا
ٱلۡقِتَالُ رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ
فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٞ وَقَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ ﴿٢١﴾
فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ ﴿٢٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ
ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ إِنَّ
ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ
﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمۡ فِي بَعۡضِ ٱلۡأَمۡرِۖ
وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِسۡرَارَهُمۡ ﴿٢٦﴾ فَكَيۡفَ إِذَا تَوَفَّتۡهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ
﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ
﴿٢٨﴾ أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخۡرِجَ ٱللَّهُ أَضۡغَٰنَهُمۡ ﴿٢٩﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞۖ﴾، هذا قول المؤمنين يتمنون على الله أن ينزِّل على رسوله ﷺ سورة، **أي:** قطعة من القرآن، فيها الإذن بالجهاد.

وقتال الكفار: ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ﴾، فلما استجاب الله تعالى تمني المؤمنين الصادقين، وأنزل سورة، وذكر فيها أحكام القتال،

وكانت هذه السورة محكمة، **أي**: لا نسخ فيها، أو أن الألفاظ التي نزلت بها على قول واحد، لا اختلاف في مدلولها ومعناها؛ لأن الإحكام يكون بعدم النسخ، ويكون بعدم تعدد المعاني للفظ الواحد، فاللفظ الذي له معنى واحد فقط، يفهمه كل من سمعه، فهذا محكم لاتفاق الناس على معناه، وذكر هنا وصف الإحكام؛ حتى لا يكون هناك حجة لمن يتردد في استجابة أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والغرض من نزول الأمر بالقتال والجهاد في سبيل الله، هو اختبار المنافقين؛ لأن المنافقين في حال السلم غير محددي الموقف من العدو، حيث يذهبون إلى هؤلاء، ويذهبون إلى هؤلاء، لكن لو طلب منهم القتال، فهم إما أن يقاتلوا مع العدو أو ضده، أو يرفضوا القتال، وعند ذلك يتضح موقفهم، أو يكتشف نفاقهم، ولذا كانت النتيجة: ﴿رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾، **أي**: يتضح لك حال المنافقين عند طلبهم للجهاد في سبيل الله، حيث يحصل لهم اضطراب وخوف وشدة، حتى إنهم من شدة خوفهم وهلعهم، ينظرون إليك كما ينظر الشاخص ببصره حينما ينزل به ملك الموت.

وقوله: ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾، فهلاك لهم، بسبب موقفهم هذا، وهذا معناها إذا جعلنا العبارة مرتبطة بما قبلها[1]، أما إذا جعلنا العبارة مرتبطة بما بعدها، **فيكون المعنى**: أفضل لهم أن يكونوا على طاعة الله ورسوله وأن يقولوا قولاً معروفاً[2]، فهي خير لهم من النفاق والهروب من القتال، والمعنى الأول أرجح

---

(١) ينظر: جامع البيان (٢٢/ ١٧٥)، والكشاف (٤/ ٣٢٤)، وفتح القدير للشوكاني (٥/ ٤٥).

(٢) ينظر: تفسير القرطبي (١٦/ ٢٤٤)، والبحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي (٨/ ٨١)، وتفسير ابن كثير (٧/ ٢٩٣).

وقال به كثير من المفسرين(١).

وقولـــه: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾﴾، أي: طلب منهم الجهاد، وحضر القتال، فلو صدقوا في إيمانهم وأخلصوا نيتهم فيه، لكان صدقهم في ذلك خيراً لهم، ولكن لنفاقهم وعدم صحة إيمانهم، فلن يحصل لهم خير في الدنيا ولا في الآخرة.

وقولـــه: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾، أي: فلعلكـــم إن أعرضتم عن الإيمان والطاعة، أن تفسدوا في الأرض بالشرك والكفر والبغي والظلم والقتال وسائر المعاصي، كما قال: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾[الأعراف:٥٦]، والمقصود بالفساد هنا: الكفر والشرك وسائر أنواع المعاصي(٢)، وبعد إصلاحها أي: بعد التوحيد والعدل، وفي الحديث: **"خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرّمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً"**(٣).

ومن عواقب هذا الإفساد أن تحصل القطيعة للأرحام، ولذا قال: ﴿وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾﴾، وفي الآية إشارة إلى فساد قولهم: كيف يقاتل العربي أخاه وبينهم أواصر قرابة ورحم، ولو قاتلنا إخواننا وأقاربنا؛ فسيحصل من قتالنا قطيعة

---

(١) ينظر: البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي (٨/ ٨١) المحرر الوجيز، لابن عطية (٥/ ١٠٣) وغيرهم.

(٢) ينظر: محاسن التأويل (٥/ ١٠٤).

(٣) أخرجه مسلم: (٤/ ٢١٩٧) رقم (٢٨٦٥).

للأرحام، فرد الله عليه شبهتهم بأن في إعراضكم عن الإيمان فساداً أشد من قطيعة الأرحام، بل أنتم تقطعون الأرحام بقتال وبدون قتال[1]، فحالكم وتأريخكم في الجاهلية مشهور، فلماذا الاعتذار الباطل؟!.

ثم قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ٢٣﴾، أولئك الذين سبق ذكر أوصافهم ممن أعرضوا وتولوا عن الإيمان، وأفسدوا في الأرض، وقطعوا الأرحام، قد استحقوا بذلك لعنة الله لهم، فأبعدهم عن الهداية وحرمهم من الرحمة وحرمهم السماع الذي يستفيدون منه فهم الحق؛ وحرمهم من رؤية الحق.

والمقصود بالأبصار هنا: بصيرة القلب، كقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ٤٤﴾[فصلت:٤٤]. **وقوله:** ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ٤٦﴾[الحج:٤٦].

ثم قال سبحانه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾، **أي:** أن هذا القرآن نزل بلغة العرب، وفيه من الفصاحة والبلاغة والبيان والإعجاز، ما يدفع من سَمِعَهُ وتدبره إلى أن يُصدّق أنه من عند الله، وأنه معجزة لرسوله ﷺ ويدفعه ذلك إلى الإيمان بالله واتباع هدي الرسول ﷺ وشرعه، لكن الواقع أن هؤلاء القوم لا يتدبرون القرآن.

والسر في ذلك ما سبق ذكره عنهم، فقد أصمهم عن سماع الحق وأعمى

---

(١) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي: (٢٨/ ٥٤).

أبصارهم عن رؤيته، **ولذا قال**: ﴿أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ٢٤﴾، **(أم)** هنا هي المنقطعة التي بمعنى بل، **والمعنى**: بل لم يحصل منهم التدبر، بسبب الطبع على قلوبهم، فأقفلت وأغلقت، فلم يصل إليها شيء من آثار القرآن؛ فتتأثر به، والقلب إما أن يقفل، وإما أن يطبع عليه، وإما أن يختم عليه، وإما أن يصير أغلفًا، وكل هذه الصفات متعلقة بالقلوب البعيدة عن الله تعالى، وتدبر كلامه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

ثم قال الله جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى﴾ فمن اتضح له الحق والهدى ثم ابتعد عنه أو آمن به ظاهراً وكفر به وارتد عنه باطنًا؛ فالسبب في ذلك أنه سلم قيادة أمره للشيطان، **ولذا قال**: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ﴾، **أي**: زين لهم ذلك العمل وحسنه، وغرهم بذلك التزيين، **والعطف هنا** عطف جملة على جملة.

فيكون المعنى: أن الشيطان منحهم مزيداً من التسويل؛ فزاد في إغوائهم، وإما نقول: إن الذي أملى لهم هو الله.

والمعنى: أعطاهم الله الفرصة لأن يعيشوا فترة من العمر ليزدادوا إثمًا، كما قال: ﴿وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ١٨٣﴾[الأعراف:١٨٣]، **وفي الحديث**: **"إن الله يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته"**(١).

ثم قال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمۡ فِي بَعۡضِ ٱلۡأَمۡرِ﴾، **أي**: الأمر الذي حصل للقوم، وهو الردة والانقلاب على أعقابهم،

---

(١) أخرجه البخاري: (٦/ ٧٤) رقم (٤٦٨٦)، ومسلم: (٤/ ١٩٩٧) رقم (٢٥٨٣).

وترك الهدى والحق، حصل لهم بسبب قولهم لليهود: سنطيعكم في بعض الأمر وهو عداوة الرسول وترك الجهاد معه، **والقائلون هم** طائفة من المنافقين[(١)]، **وقيل:** القائلون هم اليهود والمنافقون، قالوا ذلك للمشركين[(٢)].

والسياق يرجح أن المنافقين هم المقصودون بهذا، لقوة الصلة بين المنافقين واليهود في المدينة، والسورة مدنية، وكان هناك اتفاقات سرية بين المنافقين وبين اليهود، فضح بعضها القرآن، كما في قصة بني النضير في سورة الحشر.

ونصوا هنا على بعض الأمر، أي: الذي نقدر عليه، لأن من الصعوبة أن يقوم المنافق بفعل كل ما تفعله اليهود والكفار؛ فالمنافق مسلم ظاهراً، وكافر باطناً؛ فلا يستطيع أن يقوم بأعمال الكفر الظاهرة كلها، ولكن يمكنه أن يقوم ببعضها والتي تتوافق مع وصفه، فلو قاموا بكل ما يطلب منهم؛ لافتضح أمرهم؛ لذلك احترسوا لأنفسهم بهذا القيد.

ثم قال الله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِسۡرَارَهُمۡ﴾، **أي:** يعلم ما يسرونه من أخبار واتفاقات سرية مع الكفار ونحوها.

ثم بيّن سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ كيف حال هؤلاء الخونة من المنافقين واليهود، عند نزول الموت بهم، فقال: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا تَوَفَّتۡهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ **كيف:** إن كانت للاستفهام، **فالمعنى:** كيف سيكون حالهم عند نزول ملائكة العذاب لأخذ أرواحهم؟!.

---

(١) ينظر: جامع البيان (٢٢/ ١٨٢)، والكشاف للزمخشري (٤/ ٣٢٦)، وفتح القدير للشوكاني (٥/ ٤٧)، وتفسير القاسمي (٨/ ٤٧٦).

(٢) ينظر: البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي (٨/ ٨٣).

وإن كانت للتعجب، فتكون متعلقة بما سبق ذكره في معنى قوله: ﴿رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾، **والمعنى**: إذا كان هذا حال المنافقين حينما طلب منهم الجهاد، فخافوا وأصيبوا بالذعر، وشخصت أعينهم، فكيف سيكون حالهم عند وفاة الملائكة لهم؟!.

وقوله: ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ﴾، يصف الله حال المنافقين والكفار حينما تتوفاهم الملائكة، فتهرب أرواحهم، فتضربهم ملائكة العذاب الذين يقبضون أرواح الكفار، كما جاء تفصيل ذلك في الحديث الصحيح[1]، ولماذا ذكر الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ هنا ضرب الوجوه والأدبار، أما كان اكتفى بضرب الوجه الذي هو أشرف ما في الجسد؟! لماذا تصفعهم بهذه الكيفية؟! ما السر؟ وما السبب؟.

والجواب: ذكره في قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ﴾، فهؤلاء لهم ذنبان عظيمان، فكان لا بد لهما من عقابين، يتناسب كل عقاب مع حالهم أثناء ممارسة ذلك الذنب، **فضرب الوجه مقابل**: أنهم اتبعوا ما أسخط الله، فحالهم هنا كأنهم يمشون باتجاه سخط الله، فجاءهم الضرب في وجوههم؛ لأنهم مقبلون عليه، وضرب الأدبار مقابل: أنهم كرهوا رضوانه، فحالهم هنا كأنهم مبتعدون عن رضوان الله، وشاردون عنه، هاربون على قفاهم، فجاءهم الضرب في أدبارهم!.

وقوله: ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ ٢٨﴾، **أي**: أبطلها وصارت لا قيمة لها؛ لأنها

---

(١) أخرجه أحمد: (٣٠/ ٤٩٩)، رقم (١٨٥٣٤)، والحاكم، (١/ ٣٧) رقم (١٠٧)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح: (١/ ٥١٢) برقم: (١٦٣٠).

صدرت من منافق، لم يكن يريد بها وجه الله.

وإنما يخادع بها المؤمنين، كما قال: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾[النساء:١٤٢].

ثم هددهم سبحانه بقوله: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾﴾،أم هي المنقطعة والتي تكون بمعنى: بل، أي: بل يظن هؤلاء المنافقون أنهم سيبقون على ما هم عليه من الخداع والمكر للمؤمنين دون أن يفضحهم الله، ويكشف أسرارهم ويبيّن للناس ما تحويه قلوبهم ونفوسهم من الحقد والكراهية للإسلام وأهله، وهذا وعيد من الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ لهم بالفضيحة، وقد حصلت لهم في أكثر من موقف مع النبي ﷺ واكتشفوا، وأعطاه الله تعالى أسماءهم وأوصافهم حتى صار يعرفهم.

والأضغان: جمع ضغن، وهو ما في النفوس من الحسد والحقد للإسلام وأهله، فكل ما يخبئه المنافق للمسلمين في صدره، إنما هو الحقد والحسد؛ وإن ابتسم وضحك لهم، أو عاملهم بصورة حسنة، فالهدف من ذلك الخداع لهم!!.

فوائد وهدايات من هذه الآيات:

١- شرع الله الجهاد في سبيله ليتميز به المؤمنون عن المنافقين؛ لأن الجميع يظهر الإسلام، ويؤدي الشعائر الخفيفة التي لا مشقة فيها؛ فإذا جاء الأمر بالقتال والجهاد للكفار، اكتشف أمر المنافقين، وتبين حالهم.

٢- بيان أهمية تدبر القرآن الكريم، وخطورة الإعراض عنه، وأن من أعرض عن تدبره، فيخشى أن يطبع الله على قلبه، ويحجب عنه نور الهداية الذي يشع من كتاب الله سبحانه.

٣- ثبوت عذاب القبر، وبعض الفرق تنكر عذاب القبر،[1] بناءً على تصورهم الناقص للحياة الأخروية، فكل ما يعرفه الإنسان الضعيف هو الحياة الدنيا؛ فيقيس الحياة الدنيا على الحياة الأخرى، فيظهر له أن هناك استحالة لبعض الأمور، وهذا من قصور عقله، فإن الحياة الدنيا تختلف عن الحياة الأخرى، وحسبك أيها الإنسان أن تنظر إلى الفرق بين حياتك في الدنيا وحياتك في بطن أمك، فهل حياتك في بطن أمك جنيناً مثل حياتك في الدنيا اليوم؟!، وهكذا ستكون حياتك في البرزخ مختلفة عن حياتك في الدنيا، وحياتك في الآخرة ستكون مختلفة عن حياتك في البرزخ، فالذي يقيس الحياة الدنيا إلى البرزخ؛ كالذي يقيس حياة الجنين في بطن أمه بحياته في الدنيا، وهو قياس باطل، لأنه قياس مع الفارق، وهذا أحد الأسباب لإنكار عذاب القبر، والصحيح أن هذه قضايا سماعية جاء بها الوحي، والعقل لا يستطيع أن يصل إليها، فلماذا تتعب عقلك في شيء ليس من قدرتك؟ إذن فليس أمامك إلا أن تسلِّم للقرآن والسنة الصحيحة، وتقول آمنا بما جاء عن الله وعن رسوله.

---

(١) كالمعتزلة والخوارج وغيرهم.ينظر: الفصل في الملل والأهواء والنحل، لابن حزم (٤/ ٥٥-٥٦).

تفسير المقطع الرابع من سورة محمد

﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَأَرَيۡنَٰكَهُمۡ فَلَعَرَفۡتَهُم بِسِيمَٰهُمۡۚ وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ
أَعۡمَٰلَكُمۡ ٣٠ وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ ٣١ إِنَّ
ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ
شَيۡـٔٗا وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٣٢ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ
أَعۡمَٰلَكُمۡ ٣٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ ٣٤
فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ ٣٥ إِنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ
ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤۡتِكُمۡ أُجُورَكُمۡ وَلَا يَسۡـَٔلۡكُمۡ أَمۡوَٰلَكُمۡ ٣٦ إِن
يَسۡـَٔلۡكُمُوهَا فَيُحۡفِكُمۡ تَبۡخَلُواْ وَيُخۡرِجۡ أَضۡغَٰنَكُمۡ ٣٧ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ
فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُۖ وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ
ٱلۡفُقَرَآءُۚ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم ٣٨﴾.

قول الله تعالى: ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَأَرَيۡنَٰكَهُمۡ فَلَعَرَفۡتَهُم بِسِيمَٰهُمۡ﴾، سبق في الآية التي قبلها الحديث عن المنافقين وهنا خطاب موجه لرسول الله ﷺ، **والمعنى:** لو أردنا يا محمد لأريناك أشخاص هؤلاء المنافقين، فعرفتهم بأعيانهم، وبعلاماتهم الخاصة التي بها يتميزون، ولكن الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ لم يجعل للمنافقين علامة

يعرفون بها؛ ستراً لهم في الدنيا، وهل علم النبي ﷺ كل أعيان المنافقين وأشخاصهم أم عرف بعضهم فقط؟!، قولان، الأول: أنه عرفهم كلهم[(١)]، والقول الثاني: أنه عرف بعضهم فقط[(٢)]، وهو الراجح.

ويشهد له حديث حذيفة أن النبي ﷺ أسرّ له ببعض أسماء المنافقين[(٣)].

وكان عمر يسأل حذيفة أمين سر رسول الله ﷺ عنهم[(٤)]، كما أن مجموعة من المنافقين فُضِحُوا من خلال تصرفاتهم مثل عبد الله بن أبيّ بن سلول[(٥)] وغيره، وفي سورة التوبة ذكرت عشرات الصفات للمنافقين: ومنهم، ومنهم، يعني هذه أوصافهم.

وقوله: ﴿وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِ﴾، لحن القول: فحواه ومعناه وأسلوبه، بمعنى: حتى ولو لم نعطك علامات نضعها على أشخاصهم، لكن من خلال تعاملك معهم ستعرفهم من أسلوب كلامهم الذي يدل على نفاقهم، وفلتات ألسنتهم التي تظهر ما في قلوبهم من النفاق.

---

(١) ينظر: جامع البيان (٢٢/ ١٨٤)، والكشاف، للزمخشري (٤/ ٣٢٧)، وتفسير ابن كثير (٤/ ١٧٩-١٨٠).

(٢) ينظر: ينظر: تفسير ابن كثير (٤/ ١٧٩)، وتفسير الثعالبي (٥/ ٢٤١).

(٣) ينظر: صحيح مسلم.كتاب صفات المنافقين وأحكامهم (٤/ ٢١٤٣).

جامع البيان(١٤/ ٤٤٣) رقم (١٧١٣٠).

(٤) ينظر: جامع البيان(١٤/ ٤٤٣) رقم (١٧١٣٠).

(٥) هو عبد الله بن أبي بن سلول الأزدي أحد قادة ورؤساء الخزرج وكبير المنافقين في المدينة قبحه الله توفي في السنة التاسعة للهجرة.ينظر: البداية والنهاية، لابن كثير (٥/ ٤٢).

ثم قال الله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾، **أي:** لا تخفى عليه خافية من أسراركم وأعمالكم.

وقوله: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ﴾، **الابتلاء** بمعنى الاختبار.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾، **المقصود** حتى يتحقق علم الله في الشهادة، كما هو في الغيب، فالله علمه أزلي، وبعض من لا يفهم هذا المعنى[1]، ربما يقول: كيف يقول الله: حتى نعلم؟

والله عنده العلم الأزلي بكل شيء، وأحاط بكل شيء علماً؟!!

والجواب: أن العلم علمان: علم أزلي لله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ قبل أن يحدث الشيء، وعلم بعد وقوع الشيء في عالم الشهادة، فإذا وقع الشيء في عالم المشاهدة، صار معلوماً لمن حضره، أما الله فعلمه محيط بعالم الغيب والمشاهدة، **والمعنى:** نختبركم أيها الناس حتى يظهر في واقعكم من هو المجاهد فعلاً، ومن هو الصابر فعلاً، وذلك من خلال امتثال الأمر واجتناب النهي؛ لأن الجميع يدعي ذلك، لكن عند الابتلاء والاختبار سيظهر من هو الصادق من عدمه.

وقوله: ﴿وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ ٣١﴾، **أي:** يختبر أخباركم؛ لأن الإنسان قد يقول قولاً، ثم لا يتبعه بالعمل، **فيقول مثلاً:** لو فرض الله الجهاد لجاهدنا في سبيل الله، ثم فرض

(١) مثل هشام بن الحكم، فقد احتج بهذه الآية وأمثالها أن الله تعالى لا يعلم الحوادث إلا عند حدوثها. ينظر: مفاتيح الغيب، للرازي (٢١/ ٤٣٠).

الله الجهاد، فلم يجاهد، فإخباره السابق لم يتحقق صدقه فيه، ولأنه لم يوف بما وعد، كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ٢﴾[الصف:٢].

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ﴾، قيل: هم المنافقون، وقيل: أهل الكتاب، وقيل: المشركون[١]، وفي قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ﴾، إشارة إلى أن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله، كانوا قد علموا الحق، وهذا يرجح قول بعض المفسرين[٢]: إن المقصود بهذه الآية هم اليهود الذين اطلعوا على صدق رسول الله ﷺ ونبوته في كتبهم السابقة؛ فعرفوا الهدى، ولكنهم حسدوا العرب؛ فكفروا به.

وقوله: ﴿وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ﴾، المشاقة هنا المحادة والمعاندة، بمعنى: لم يتبعوه ويطيعوا أمره، بل عاندوه ورفضوا أمره وتولوا عنه.

﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا﴾؛ لأن الإنسان بأفعاله السيئة ومعاصيه يضر نفسه، وبأفعاله الصالحة ينفع نفسه، كما في الحديث القدسي: **"يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري؛ فتضروني، ولن تبلغوا نفعي؛ فتنفعوني،... يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفّيكم إياها..."**[٣]، فالضر يعود من الإنسان على نفسه، أما الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ فلا تضره معصية العصاة، ولا تنفعه طاعة الطائعين.

﴿وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾، أي: سيبطل أعمالهم، وعبر بالمستقبل مع أن

---

(١) ينظر: فتح القدير (٥/ ٤٩).

(٢) ينظر: البحر المحيط في التفسير (٨/ ٨٤)، ومفاتيح الغيب (٢٨/ ٦٠).

(٣) أخرجه مسلم: (٤/ ١٩٩٤) رقم (٢٥٧٧).

الكافر يحبط عمله حال وقوعه، فما السر؟!، **الجواب:** أن المقصود بالعمل هنا ليس عمل الصالحات؛ لأن هذا يحبط بالكفر، وقد سبق ذكره مراراً، وإنما المقصود هنا أن هؤلاء القوم كانوا يمكرون ويخططون لأذية المسلمين، فوعد الله بإبطال مكرهم وإفشال مخططاتهم المستقبلية التي فيها أذية للمسلمين(١).

وقوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾، هنا أفرد وكرر الأمر بطاعة الرسول، مع أن طاعة الرسول من طاعة الله؛ ليبيّن أن طاعة الرسول أيضًا واجبة في أوامر أخرى لم ترد في القرآن، **وهذا يدل على أن** السنة مستقلة في التشريع، **فالسنة مع القرآن لها ثلاث حالات: مؤكدة** لما جاء في القرآن، كالأمر بالصلاة فجاءت السنة تأمر بالصلاة أيضًا، **ومبينة** وموضحة فقد جاء في القرآن الأمر بالصلاة، فجاءت السنة فبينت عدد الصلوات وأوقاتها، **ومستقلة** بحكم جديد، مثل: تحريم الجمع بين المرأة وعمتها والمرأة وخالتها(٢)، وتحريم كل ذي مخلب من الطير، وكل ذي ناب من السباع(٣)، ونحوها، والكل وحي أمرنا الله باتباعه، سواء جاء في القرآن أو جاء في السنة، والنبي ﷺ ليس مشرعًا في الحقيقة، بل هو مبلّغ عن الله.

وقوله: ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾، بطلان العمل يكون إما بالردة عن الإسلام، أو بالشرك، ويكون بطلان العمل كاملاً، مثل: الذي يحج ثم يرتد، فهذا بطل دينه

---

(١) ينظر: مفاتيح الغيب (٢٨/ ٦٠).

(٢) أخرجه البخاري: (٧/ ١٢)، برقم: (٥١٠٩)، ومسلم: (٢/ ١٠٢٨) رقم (١٤٠٨).

(٣) أخرجه مسلم: (٣/ ١٥٣٤) رقم (١٩٣٤).

وإسلامه كاملاً، أو يكون بطلان عمل مخصوص مثل: شخص أعطى صدقة لآخر، ثم منَّ وآذى من تصدق عليه، فهذا أبطل أجر صدقته بسبب الأذى والمن، **ولذلك استنبط بعض العلماء**[1] **من هذه الآية:** أن من ابتدأ عملاً صالحاً لا يجوز له أن يبطله إلا لضرورة، فلو دخلت في الصلاة ولو كانت نافلة فلا تقطعها ولا تبطلها، ومثله لو كنت صائماً فلا تبطل صومك وإن كان نافلة، امتثالاً لهذه الآية.

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، لم يكتف هؤلاء بكفرهم، بل نشطوا في إفشال الدعوة ومحاربة الإسلام، وفي هذا إشارة إلى ضرورة أن ينشط المسلم في نشر الإسلام والدفاع عنه، فإذا كان الكافر يجتهد وينشط وهو على باطل، فما بالك أيها المؤمن، تؤمن ثم تكسل عن الدعوة والبلاغ!!.

وقوله: ﴿ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ﴾، هذه الآية قيدت عدم المغفرة للكافر بالموت على الكفر، **بمعنى:** أن كل من كفر وصد عن سبيل الله، لو أمكن أن يتوب قبل أن يموت ويسلم؛ قُبل إسلامه وغُفر ذنبه، ولم يُحبط عمله الصالح السابق، فهذه الآية مقيدة لما جاء في آيات أخرى في هذا الباب مطلقة.

ثم قال سبحانه مخاطباً المؤمنين: ﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ﴾، **أي:** فلا تضعفوا عن قتالهم وتدعوا إلى المسالمة والصلح، وأنتم تقاتلون هؤلاء الكفار، بل

---

(١) ينظر: تفسير القرطبي (١٦/ ٢٥٥).

حاولوا أن تستمروا في القتال؛ حتى يخضعوا هم لذلك، كما قال في آية أخرى: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾﴾ [الأنفال:٦١]، **بمعنى**: إذا كان هم الذين طلبوا المسالمة والصلح، فلا بأس، أما أنتم باعتباركم أصحاب حق ومجاهدين في سبيل الله، فالأصل أن تستمروا في الجهاد حتى يرضخ عدوكم لكم.

وقوله: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾، تعليل للنهي عن طلب المسالمة والصلح، فطالما أنتم الأعلون دينًا، والأعلون منهجًا، والأعلون مكانةً، فإن الله سينصركم.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾، وهذا تعليل آخر، **أي**: لماذا تضعفون وتطلبون المسالمة؟! وأنتم الأعلون، والله معكم، والمعية هنا خاصة بالمؤمنين؛ لأن المعية على نوعين: المعية العامة، فالله تعالى مع خلقه بعلمه وإحاطته، والمعية الخاصة، وتسمى معية التوفيق والنصر والتسديد، وهي خاصة بالمؤمنين.

وقوله: ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾﴾، **أي**: لن ينقصكم من أجور أعمالكم شيئًا، فأمرهم بالاستمرار على الجهاد، لثلاثة أسباب: فأنتم الأعلون، والله معكم، وأجركم محفوظ لا ينقص.

ثم شرع في بيان حال الدنيا، وفي ذلك إشارة إلى مكانة الجهاد لطالب الآخرة، وحقارة الدنيا التي يترك الجهاد من أجلها فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾، وهذا يُسمى أسلوب الحصر والقصر، حيث حصر وصف الحياة الدنيا وقصرها على اللعب واللهو، **والمعنى**: إذا كان هذا وصفها؛ فلا تنشغلوا بها عن

الآخرة، بل اجتهدوا في الأعمال الصالحة.

وقوله: ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾، فمن آمن بالله واتقى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فقد وعده الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بأن يؤتيه الأجر كاملاً غير منقوص وبدون مقابل مادي منه، ولذا قال: ﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ۝٣٦﴾، فلو طلب من كل مؤمن أن يدفع مقابل إيمانه شيئًا من ماله، لكان في ذلك عذر لمن تخلف عن الإيمان! ولذلك كانت الدعوة إلى الله وإبلاغ الرسالة مجانًا عند كل الرسل وأتباعهم؛ كما قال: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ۝٨٦﴾[ص:٨٦]، ومع أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو صاحب المال والمتفضل به على خلقه، ولكنه نسبه إلى القوم نسبة تصرف مؤقت، أو تشجيعًا لهم؛ حتى ينموه وينفقوا منه في مرضاة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقوله: ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟﴾، **الإحفاء هو**: الإلحاح وتكرير السؤال(١)، **أي**: إن حصل سؤال لأموالكم، وهذا السؤال فيه إلحاح عليكم، فستبخلون في إنفاقها.

﴿وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ﴾، **أي**: وستظهر أخلاقكم السيئة المخفية بداخلكم بسبب طلب المال منكم؛ لحبكم له، كما قال: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ۝٢٠﴾[الفجر:٢٠].

وقوله سبحانه: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، هذا حث ودعوة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لعباده المؤمنين أن يجاهدوا في سبيله بأموالهم؛ كما يجاهدون بأنفسهم، **ثم ذكر أنهم على قسمين، الأول**: يفهم من السياق، وهو

---

(١) ينظر: لسان العرب (١٤/ ١٨٧).

الذي يستجيب وينفق ماله في سبيل الله، وهذا أجره على الله، وقد نفع نفسه، وطهرها من الشح والبخل.

والثاني: مذكور في قوله: ﴿فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾، فمن يمتنع عن البذل والنفقة بسبب بخله وشحه، فهذا عاقبة فعله على نفسه، فقد حرمها الأجر والثواب؛ لأن النفقة في سبيل الله هي في الحقيقة قرض مع الله، كما قال سبحانه: ﴿إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ﴾[التغابن:١٧]، **ولذا قال هنا:** ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾، فالله غني عن خلقه، وإنما أراد أن يفتح لهم باباً للحسنات والمنافسة في الأجور والثواب عند استجابتهم لأمره.

وقوله: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾، **أي:** وإن تعرضوا عن الإيمان والطاعة والجهاد والنفقة في سبيل الله، وهذا تهديد ووعيد وتخويف لهم ولمن أتى بعدهم، فلستم أنتم الوحيدون، فإن لله عبيدًا غيركم كثراً، فإن أعرضتم استبدل الله قوماً غيركم، قيل إنهم من العجم، **والمعني:** إذا تولى العرب يأتي الله بالعجم، وفعلاً كان العجم أكثر نصراً وخدمةً للإسلام من كثير من العرب، ثم قال: ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾، **أي:** لا يكونوا مثلكم في الكفر والجحود والبخل وعدم الطاعة، وبهذا ختمت السورة.

فوائد وهدايات من هذه الآيات:

١- أن للمنافقين علامات تظهر منهم مهما اجتهدوا في إخفائها، فالله تعالى يفضحهم بين الحين والآخر سواء بأفعالهم أو بأقوالهم.

٢- أن الابتلاء والاختبار سنة إلهية لتمييز المؤمن من المنافق.

٣- أن المؤمنين هم الأعلون منهجـًا ومكانةً، مهما حصل لهم من الضعف والابتلاء أحيانـًا.

٤- من رفْقِ الله بعباده أنه لا يطلب منهم إنفاق كل أموالهم في سبيل الله؛ بل الزكاة جزء يسير؛ فإن كانت في المال النقدي فهي ربع العشر[(١)]، وإن كانت في المزروعات فهي العشر فيما سقت السماء ونصف العشر فيما سقي بغيره[(٢)]، فدل هذا على قلة المال الواجب بذله، مع ما فيه من بركة للمال وأجر وثواب يُحفَظُ لك في صحائف حسناتك.

(١) ينظر: صحيح البخاري: (٢/ ١١٨) رقم (٢٤٥٤).

(٢) ينظر: صحيح البخاري: (٢/ ١٢٦) رقم (١٤٨٣).

تفسير سورة الفتح

تفسير المقطع الأول من سورة الفتح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ
عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى
قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا
۝٤ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ
سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٥ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ
وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ
وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ۝٦ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا
۝٧ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٨ لِّتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ
وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٩﴾.

سورة الفتح[١]؛ سورة مدنية بالإجماع[٢]، نزلت بعد مرجع النبي ﷺ من

(١) **سورة الفتح**، تسع وعشرون آية، **وحروفها**: ألفان وأربع مئة وثمانية وثلاثون حرفًا، **وكلمها**: خمس مئة وثلاثون كلمة. وهي السّورة الثامنة والأربعون بحسب الرّسم القرآني. ينظر: تفسير القرطبي (١٦/ ٢٥٩).

(٢) ينظر: تفسير القرطبي (١٦/ ٢٥٩)، وفتح القدير، للشوكاني (٥/ ٥٢).

صلح الحديبية[١]، في ذي القعدة من العام السادس من الهجرة، وترتيبها في المصحف بعد سورة محمد، ووجه ارتباط هذه السورة بالتي قبلها: أن في سورة محمد لما أمروا فيها بقتال عدوهم، وأشعروا بالمعونة والنصر؛ تشوقت نفوسهم إلى ذلك، فجاءت سورة الفتح تبشرهم به.

وافتتحت السورة بقوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ﴾ الخطاب موجّهٌ للنبي ﷺ، ﴿فَتْحًا مُّبِينًا﴾، **أي**: بيناً ظاهراً، والمراد به صلح الحديبية، وهذه من البشائر التي جاءت بعد الصلح، فقد تم الصلح بين قريش، ومحمد ﷺ، على وضع الحرب مدة عشر سنوات، مع شروط أخرى، ورغم ما جرى فيه من الشروط الثقيلة على المؤمنين، إلا أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ سماه فتحاً باعتبار ما فيه من المصلحة، وما آل إليه الأمر، كما روي عن البراء بن عازب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أنه قال: "إنكم تعدون الفتح فتح مكة، ونحن نعد الفتح صلح الحديبية"[٢]؛ لأنه كان سبباً لفتح مكة، ذلك أن قريشاً لم يوفوا بتلك الشروط، وحصل منهم نقض لبعضها، فعزم النبي ﷺ عند ذلك على فتح مكة، وذلك في السنة الثامنة من الهجرة، وأتى بلفظ الماضي من باب أنه واقع لا محالة، وسيكون فتحاً مبيناً.

وقوله سبحانه: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾، **اللام** للتعليل، حيث جعل مغفرة الله لنبيه ﷺ علة للفتح؛ لأنها من جملة ما أراد الله حصوله

---

(١) **الحديبية** بضم الحاء المهملة، وتشدد ياؤها وتخفف، تقع على مسافة (٢٢) كيلا غرب مكة على طريق جدة القديم، ينظر: معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية.عاتق الحربي (٩٤).

(٢) أخرجه البخاري، باب غزوة الحديبية (٥/ ٢٢).رقم (٤١٥٠).

بسبب الفتح، ومغفرة ما تقدم من ذنبه وما تأخر، هذا من خصائصه ﷺ التي لا يشاركه فيها غيره.

فعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: نزلت على النبي ﷺ: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾، مرجعه من الحديبية، **فقال النبي** ﷺ: **"لقد أُنزلت علي آية أحب إليّ مما على الأرض"**، ثم قرأها عليهم، فقالوا: هنيئًا مريئًا يا نبي الله، لقد بيّن الله عز وجل ماذا يفعل بك، فماذا يفعل بنا؟! فنزلت عليه: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ حتى بلغ: ﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾"، أخرجاه في الصحيحين(١).

وقوله: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ﴾ **أي:** قبل البعثة(٢)، مع أنه قبل البعثة حماه الله من أن يقع فيما وقع فيه قومه من الشرك وشرب الخمر ونحوها من القبائح.

وقوله: ﴿وَمَا تَأَخَّرَ﴾ من ذنبك، ما يحصل لك من تفويت بعض الأفضل والأولى في حقك(٣)، **وهذا على قول**: أن الأنبياء والرسل معصومون من الكبائر وهفوات الذنوب، **وأما من يقول**: إن الأنبياء ليسوا معصومين من هفوات الذنوب، **فمعنى:** ﴿مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾، **المقصود به:** صغائر الذنوب السابقة واللاحقة(٤).

---

(١) أخرجه البخاري: (٥/ ١٢٦) رقم (٤١٧٧)، ومسلم: (٣/ ١٤١٣) رقم (١٧٨٦).

(٢) ينظر: جامع البيان، لابن جرير الطبري (٢٢/ ١٩٧).

(٣) ينظر: فتح القدير، للشوكاني (٥/ ٥٣).

(٤) ينظر: تفسير القرطبي (١/ ٣٠٨) والسراج المنير، للخطيب الشربيني (٤/ ٣٨).

وقيل(١): ليس ثم ذنب، تقدم ولا تأخر لرسول الله ﷺ، وإنما الغفران المقصود به هنا، **هو**: الغفران المطلق لما تظنه ذنباً، **أي**: غفرت لك ما سبق من ذنبك، وما أتى على سبيل الغفران المطلق.

ثم قال تعالى: ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢﴾، **أي**: باستكمال أحكام الدين وفتح مكة والنصر على أعدائك من الكفار، ويمنحك العصمة ويرزقك الاستمرار على هذا الصراط المستقيم حتى تلقى الله.

وقوله: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣﴾، **أي**: على كل مناوئيك، **وقيل**(٢): النصر الذي يعز وجوده، فإن عزيزاً في اللغة(٣) تأتي من عز يعَزُّ -بفتح العين- **أي**: قل وندر، أو تأتي من عز يعِزُّ -بكسر العين- **أي**: قويَ واشتد، **والمعنى**: أن ينصرك نصراً قل أن يوجد نصر مثله، وهذا كله حصل في فتح مكة فقد نصره الله نصراً عزيزاً على قومه.

ثم قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾، إذا تخيلنا ما جرى في صلح الحديبية من ألم ومشقة للمؤمنين بسبب تعنت وشروط قريش المجحفة، **واستعرضنا قصة** عمر بن الخطاب التي ذكرت في السيرة، حيث ذهب إلى رسول الله معترضاً على بنود الصلح، ويقول: كيف نعطي الدنية في ديننا؟! فقال له رسول الله: **"أنا رسول الله، وأتبع ما يوحى إليّ"**، وذهب إلى أبي

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير (٢٦/ ١٤٧).

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب (٢٨/ ٦٧).

(٣) ينظر: تاج العروس (١٥/ ٢٢٠).

بكر، فقال له مثل ذلك، وقال له أبو بكر: الزم غرزه[١].! فسكت عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ[٢]!.

فالصحابة كانوا متألمين ومتأثرين من الشروط التي وضعتها قريش، وكانت ثقيلة عليهم، هذا من ناحية، **ومن ناحية أخرى:** فالنبي ﷺ كان قد رأى في المنام، أنه سيدخل مكة معتمراً، حالقاً رأسه أو مقصراً، فقص على أصحابه تلك الرؤيا، ففرحوا[٣]، فلما منعوا؛ تألموا ألماً شديداً، فكان لابد من إزالة هذه الآثار النفسية عنهم؛ بنزول السكينة في قلوبهم، فقال سبحانه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾، فحصل لهم الاطمئنان والرضى بالشروط رغم شدتها، ورضوا بالعودة عن الكعبة من مسافة حوالي اثنين وعشرين كيلاً، تفصلهم عنها، وحلوا من إحرامهم، وذبحوا هديهم، على أن يعودوا معتمرين في السنة القادمة، في عمرة سميت بعمرة القضاء[٤]، وكل ذلك ما كان ليحصل لهم بطيب نفس، لولا إنزال الله هذه السكينة في قلوبهم، وهذا فضل من الله ونعمة، وقد تكرر نزول السكينة على المؤمنين في أكثر من موضع، ولو تتبعت آيات السكينة لوجدت أن الله تعالى ذكرها **في مواضع الشدة مثلاً:** عند خروج النبي ﷺ مهاجراً، وما حصل له في الغار، وكيف تبعته قريش تريد قتله، فأنزل الله

---

(١) "الغرز للإبل بمنزلة الركب للفرس، والمراد به التمسك بأمره وترك المخالفة له، كالذي يمسك بركب الفارس فلا يفارقه".فتح الباري لابن حجر (٥/ ٣٤٦).

(٢) أخرجه البخاري: (٣/ ١٩٦) رقم (٢٧٣١)، ومسلم: (٣/ ١٤١١) رقم (١٧٨٥).

(٣) ينظر: صحيح البخاري: (٣/ ١٩٣) رقم (٢٧٣١)، ومسند أحمد: (٣١/ ٢١٢) برقم: (١٨٩١٠).

(٤) ينظر: السيرة النبوية وأخبار الخلفاء لابن حبان (١/ ٣١٣).

السكينة على قلبه وقلب صاحبه، وأيضًا في غزوة الأحزاب ذكر الله ما جرى للمؤمنين من شدة الهلع والخوف، حتى بلغت القلوب الحناجر، فأنزل السكينة عليهم، وغيرها، وهذا من فضل الله ونعمته أن ينزل السكينة وهي الطمأنينة التي تنزل في القلوب عند مجيء المصائب والابتلاءات.

ثم قال: ﴿لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡ﴾، **أي:** يزداد مع إيمانهم السابق الذي كانوا عليه إيمانًا بطاعتهم لرسول الله ورضاهم بما أقره بهذا الصلح الذي حصل عندهم شيء من التلكؤ والرفض له أولاً، حتى إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يتذكر في آخر حياته ما فعله في ذلك اليوم ويقول: إني لأعمل لهذا الفعل أعمالاً![1]، وهذا الآية تدل على أن الإيمان يزداد بالطاعات وينقص بالمعاصي.

ثم ختم الله هذه الآية بقوله: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، وأطلق هنا الجنود، وعمّم، ولك أن تتفكر في كل مخلوقات الله، فهي من جنوده، بما في ذلك الملائكة الأشداء، والأجرام السماوية، والظواهر الكونية التي يرسلها الله على الخلق من رياح ورعود وأمطار وبرق وخسوف ونحوها، التي لا يعلمها إلا الله، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١]، حتى ولو كانت حقيرة في نظرك، فقد سلّط الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ على النمرود بعوضة دخلت في أنفه ووصلت إلى دماغه، فكان هلاكه بسبب هذا المخلوق الحقير[2].

---

(١) أخرجه البخاري: (٣/ ١٩٣) رقم (٢٧٣١).

(٢) ينظر: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، للعليمي الحنبلي، (١/ ٣٢).

وفي هذا السياق تهديد ووعيد للمكذبين من جهة، وفيه تسلية وتطمين لقلوب المؤمنين من جهة أخرى، فأنتم أيها المؤمنون وليكم الله، والله له جنود السموات والأرض، فكيف تخافون سواه؟!

وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، فيه إشارة إلى أن الله قد أحاط بكل شيء علمـًا، ومن ذلك هذه الجنود، فإذا كنت لا تدري عن تفاصيلها، فلا تظن أن الله لا يعلمها، كما أنك لا تعلمها، بل هو محيط بكل شيء علمـًا، وحكيم في صنعه وخلقه وفعله، فلا يضع شيئـًا إلا في موضعه الصحيح.

ثم قال: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾، **واللام** المذكورة في قوله: ليغفر لك، ليزدادوا، ليدخل، كلها ثمرة ونتيجة للفتح، والفتح علة لها كلها، ونص هنا على المؤمنات، مع أن لفظ: ﴿الذين آمنوا﴾ يشمل الذكور والإناث؛ لأن سياق الآيات يدل على أن الفتح هو سبب ذلك، ويكون غالبـًا بالجهاد والقتال، وذلك محصور غالبـًا على الرجال، فصرح هنا بذكر المؤمنات؛ ليزيل توهم ذلك(١)، وأن المؤمنين من الذكور والإناث جميعـًا مشمولون بهذه النعمة.

وقوله: ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾، **أي:** تجري من تحت قصورها وأشجارها وثمارها الأنهار العظيمة التي في الجنة، وهي متعددة، والمقصود هنا أنهار الماء، أما أنهار العسل واللبن المصفى والخمر، فهذه أنهار للتلذذ للمؤمنين ولإطعامهم وسقيهم منها، وهنا ذكر أنهار الماء التي تسقى بها الأشجار فتُجَمّل بها الحدائق، فصوت الماء وهو يمشي بين هذه الأشجار؛ يزيد

---

(١) ينظر: مفاتيح الغيب: (٢٨/ ٦٩).

في راحة النفس ومتعتها!، ومكثهم في الجنة دائم لا ينقطع.

وقوله: ﴿وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾، الواو في هذه الآية لمطلق العطف ولا تفيد الترتيب؛ لأن التكفير يكون قبل دخول الجنة، أو أنها تفيد ترتيب الجمل، لا ترتيب الوقوع، وقيل: بل الواو على حالها وهي للعطف وتفيد الترتيب، والمعنى أن الله أدخل عباده الجنة، ومحى عنهم السيئات بعد دخولهم، بحيث لا يبقى هناك شيء من المنغصات بينهم، كما قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾[الحجر:٤٧]. والراجح: أن التكفير للسيئات مطلقًا، ويكون قبل دخول الجنة، وقدَّم الإدخال على التكفير مع أن الأمر بالعكس؛ للمسارعة إلى بيان ما هو المطلب الأعلى، والمقصد الأسنى[(١)].

وقوله: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾، أي: دخول الجنة، هو الفوز العظيم لأهلها.

ثم بعد أن انتهى من بيان جزاء المؤمنين، شرع في بيان حال المنافقين والمشركين، وأسلوب المقارنة بين حال المؤمنين والكافرين، أحد أساليب القرآن الكريم؛ ليتضح للقارئ الفرق بين الفريقين، فقال: ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾، فقدَّم هنا تعذيبه للمنافقين؛ لأنهم أشد ضرراً على المؤمنين من الكافرين المشركين.

ثم بيّن سبب هذا التعذيب، فقال: ﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ أي: لم

(١) ينظر: فتح القدير للشوكاني (٥/ ٥٤).

يعترفوا به إلهـًا وربـًا قادراً عليمـًا حكيمـًا، بل ظنوا أن الله لا ينصر رسوله والمؤمنين، ولا ينشر دينه، فكان من ثمار ظنهم السيء بالله.

قوله: ﴿عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِ﴾، **أي:** ما توقعوه من هلاك وسوء للمؤمنين فهو واقع بهم، ودائرة السوء: هي المصائب التي تنزل بهم من هزائم ونحوها.

وقوله: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَلَعَنَهُمۡ﴾، **أي:** حل بهم غضب الله، وأبعدهم عن رحمته.

وقوله: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرٗا﴾، **أي:** وأدخلهم نار جهنم التي قد أعدها لهم، وساء المصير مصيرهم، حينما يصيرون إلى النار، فلا أسوأ منهم مصيراً وعاقبة.

ثم ختم قصتهم بقوله: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ وقد سبقت مع المؤمنين في الآية الرابعة، وقدَّم ذكر جنود السموات والأرض عند إدخال المؤمنين الجنة؛ إشارة إلى أنهم جنود رحمة للمؤمنين يقومون بصحبتهم ومرافقتهم وتشييعهم إلى أن يدخلوا الجنة، كما قال: ﴿يَوۡمَ نَحۡشُرُ ٱلۡمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ وَفۡدٗا ٨٥﴾[مريم:٨٥]، فإذا دخلوا الجنة حصل لهم في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، فالمكان مكان نعمة وراحة، فما يحتاج بقاء هؤلاء الجنود معهم تحرسهم؛ لأنهم لا يحبون الخروج منها، وأخَّر ذكر جنود السموات والأرض إلى أن يصل المجرمون النار؛ لأن المكان مكان تعذيب فهي التي تنتزع أرواحهم، وهي التي تجرهم إلى النار، كما قال: ﴿وَنَسُوقُ

﴿ٱلۡمُجۡرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرۡدٗا ٨٦﴾[مريم:٨٦]،وهي التي تبقى تحرسهم حتى لا يخرجوا من النار، ولذا يقال: باب الجنة مغلق عند الدخول، مفتوح عند الخروج!! وباب النار مفتوح عند الدخول، مغلق عند الخروج!!

وختم الآية الأولى بالعلم والحكمة؛ لتطمين نفوس المؤمنين، وختم هذه بالعزة والحكمة؛ لترهيب نفوس الكافرين.!!

ثم خاطب الله سبحانه رسوله ﷺ، فقال: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٨﴾، بيّن هنا مهمته، وأنه أرسله ليكون شاهداً على قومه، وعلى الأمم الأخرى؛ لأنه خاتم الأنبياء، ويكون مبشراً للمؤمنين، ونذيراً لمن لم يؤمن، ثم بيّن الواجب على الأمة بعد بعثته، فقال: ﴿لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾، وقد احتوت هذه الآية على: الحقوق الخاصة بالله، والخاصة برسوله، والحقوق المشتركة لهما، فالحقوق المشتركة هي: الإيمان بالله ورسوله، **والحقوق الخاصة بالرسول هي**: التعزير والتوقير، **أي:** نصره وتعظيمه، **والحقوق الخاصة بالله هي**: التسبيح له بكرةً وأصيلاً، **أي**: نزِّههُ وقدّسهُ على سبيل الدوام والاستمرار، في كل وقتك، وخاصة قبل طلوع الشمس وقبل الغروب، وهي أذكار الصباح والمساء.

فوائد وهدايات من هذه الآيات:

١- أن صلح الحديبية كان بداية لفتح عظيم للإسلام والمسلمين وكل ما بعده ثمار له.

٢- أن السكينة أثر من آثار الإيمان تبعث على الطمأنينة والثبات وينزلها الله على من يشاء من عباده المؤمنين وقت الشدة، فإذا رأيت في وقت الشدة أن قلبك مطمئن، وأن نفسك مرتاحة؛ فهذا دليل على أن الله قد منحك شيئًا من السكينة، لأن وقت الشدة والمصائب والابتلاءات والآلام يصاب الإنسان بشيء من القلق والاضطراب.

٣- بيان عاقبة سوء الظن بالله عز وجل، ولذلك جاء في الحديث القدسي: **"أنا عند ظن عبدي بي، فليظن بي ما شاء"**[(١)]، ولذلك من يظن بالله خيراً؛ كانت عاقبته خيراً، ومن يظن بالله شراً؛ كانت عاقبته شراً.

٤- وجوب تعظيم الرسول ﷺ، ولكن هذا التعظيم والتوقير لا يبلغ به حد الألوهية، لقوله ﷺ: **"لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، ولكن قولوا: عبد الله ورسوله"**[(٢)]، فهو بشر، فلا تدعه من دون الله تعالى، أو ترفعه إلى مرتبة الألوهية، فهذا ليس من التوقير، بل هو من الغلو المنهي عنه.

(١) أخرجه أحمد: (٢٥/ ٣٩٨)، برقم: (١٦٠١٦)، ورقم (١٦٩٧٩)، والدارمي: (٣/ ١٧٩٦)، برقم: (٢٧٧٣)، وصححه الألباني في صحيح الجامع: (٢/ ٧٩٥) رقم (٤٣١٦).

(٢) أخرجه البخاري: (٤/ ١٦٧)، برقم: (٣٤٤٥).

تفسير المقطع الثاني من سورة الفتح

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ
نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ
ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن
يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ
ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ
ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ
سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَكَانَ ٱللَّهُ
غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا
نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ
فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾، هذه الآية نزلت في وصف حال أهل الحديبية الذين بايعهم النبي ﷺ على الموت، وذلك حين منعته قريش من أن يدخل مكة معتمراً مع أصحابه، فأرسل إليهم النبي ﷺ وفوداً لمفاوضتهم، فأرسل خراش بن أمية الخزاعي(١)، فعقروا ناقته وأرادوا

---

(١) ينظر: جامع البيان، لابن جرير الطبري (٢٢/ ٢٢٤).

قتله، فمنعهم قومه من ذلك، ثم أراد النبي ﷺ أن يرسل رجلاً آخر، فكلّم عمر، فقال له عمر: إنك تعلم غلظتي وفضاضتي مع قريش، فأرسِل عثمان، فأرسَل النبي ﷺ عثمان بن عفان، ولما وصل عثمان إلى هناك استقبله جماعته، وقالوا له: إن شئت أن تطوف وتعتمر فافعل، أما محمد وأصحابه فلن يدخلوا، فقال: ما كنت لأطوف قبل رسول الله ﷺ، ثم تأخر عثمان عندهم، فأُشيع في الصحابة أن قريشاً قتلت عثمان، فنادى النبي ﷺ إلى البيعة؛ فاجتمع إليه من كان معه ممن خرج من المدينة معتمراً، مبايعاً على الموت، ووضع النبي ﷺ يده بدلاً عن عثمان في المبايعة[1]، فأنزل الله هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾؛ لأن عقد الميثاق مع رسول الله كعقده مع الله، حيث بايعوا على القتال والجهاد في سبيل الله، وتسمى هذه البيعة ببيعة الرضوان؛ لرضى الله عنهم أثناء تلك المبايعة[2]، وقد تمت تحت شجرة من أشجار السَّمُر في الحديبية، وسيأتي ذكرها، وقد وصف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بيعتهم بقوله: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾، بمعنى أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كان حاضراً بيعتهم ومؤيداً لهم وحافظاً لهم، فهو -تعالى- المبايع لهم بواسطة رسوله ﷺ، ويد الله: تُثبت له على ما يليق به سبحانه من دون تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل[3]، لأن بعض المفسرين يؤولون اليد

---

(١) ينظر: صحيح البخاري: (٣/ ١٩٣) رقم (٢٧٣١)، ومسند أحمد: (٣١/ ٢١٢) رقم (١٨٩١٠).

(٢) ينظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. لابن عطية (٥/ ١١٧).

(٣) ينظر: تفسير ابن كثير (٧/ ٣٠٥)، ونظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي (١٨/ ٢٩٦)، وتفسير القاسمي: (٤/ ١٨٦)، وغيرهم.

هنا بالنعمة أو القدرة أو نحوها(١).

والصواب بأن تثبت وتفسر بما فسرت به سائر صفات الله تعالى التي لا تشبه صفات المخلوقين.

وقوله: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ **أي:** نقض عهده في هذه البيعة، وتخلف عن شرطها، وهو القتال حتى الموت، نصرة لله ولرسوله واستطلاقًا لعثمان إن كان محبوسًا، أو ثأراً له إن كان مقتولاً، فمن نكث عن ذلك، فضرر ذلك يعود عليه خاصة، وفي هذا فيه تهديد لمن ينقض الوعد أو يتخلف عن العهد، فإنه لن يضر إلا نفسه، فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يضره شيء.

ثم قال: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ۝١٠﴾، وهذا حال الذي يوفي بالعهد والعقد مع الله، سواء كان عهداً مخصوصًا مثل هذا العهد، أو العهود مع الله وهي جميع فرائضه، فجميع الفرائض والواجبات هي عهود وعقود مع الله، لا بد أن يؤديها الإنسان كاملة غير منقوصة.

وقد وعد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من فعل ذلك بأنه سيؤتيه أجراً عظيمًا، ولك أن تتخيل الأجر العظيم من الله العظيم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فإن عظمة كل وعد تتناسب مع عظمة صاحبه، فإذا وعدك إنسان عظيم، فتخيل عظمة هذا الوعد مع عظمة ذلك الإنسان، وهنا العظيم من؟ إنه الله سبحانه العظيم الكريم!.

وقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾، تخلفت مجموعة من

(١) ينظر: الكشاف(٤/ ٣٣٥)، والبحر المديد في تفسير القرآن المجيد (٥/ ٣٨٩) وغيرهم.

القبائل[١] عن رسول الله ﷺ لما خرج إلى مكة، خشية أن تقاتله قريش، وقريش ذات شوكة ومَنَعَة، فتخلفوا خوفًا من قتال قريش، وظنًا سيئًا بالله أنه لن ينصر رسوله، فلما عاد من الحديبية اعتذروا له بقولهم: ﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا﴾، أي: تخلفنا عنك بسبب انشغالنا بالمال والأهل، وطلبوا من رسول الله ﷺ أن يستغفر لهم، ولكنهم لم يكونوا صادقين في العُذر، ولا في طلب الاستغفار، أما عدم صدقهم في العذر، فسيأتي أن عذرهم ليس هذا، بل لظنهم السيء بالله، وأما عدم صدقهم في طلبهم الاستغفار.

فقد بيّنه الله بقوله: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾، فما ذكروه بلسانهم خلاف الذي استقر في قلوبهم، فهم كاذبون في ذلك؛ إذ لو كانوا صادقين لقُبلت توبتهم، فإن من استغفر الله صادقًا مقراً معترفًا بذنبه، فإن أبواب التوبة مفتوحة لا تغلق أمام أحد مهما كان ذنبه، وهؤلاء الأعراب ليسوا من منافقي المدينة بل من قبائل كانت حول المدينة، قيل[٢]: وصفوا بشيء من النفاق، وقيل[٣]: أسلموا لكن إسلامهم لم يصل إلى مرتبة اليقين والإيمان.

وقوله: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا﴾، قل لهم يا محمد: إن الأمر بيد الله في إرادة النفع أو إرادة الضر، فخروجكم لن

---

(١) ينظر: جامع البيان، لابن جرير (٢٢/ ٢١٢)، وتفسير البغوي (٧/ ٣٠٠).

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير (٧/ ٣١٣)، وفتح القدير(٥/ ٥٧)، وتفسير القرطبي (١٦/ ٢٦٨).

(٣) ينظر: ينظر: البحر المحيط، لأبي حيان (٨/ ٩٣)، والجواهر الحسان في تفسير القرآن، للثعالبي (٥/ ٢٥٢).

يمنعكم النفع لو أراد الله، وجلوسكم لن يمنعكم الضر لو أراد الله، فما أراده الله كان وما لم يرده لم يكن، سواء خرجتم أو لم تخرجوا.

وقوله: ﴿بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾﴾، وهذا تهديد ووعيد لهم، بأن الله مطلع على أسرارهم وأخبارهم وأعمالهم التي كانوا يعملونها، وهي على خلاف ما نطقت به ألسنتهم.

ثم قال سبحانه: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ﴾، أكذبهم الله في عذرهم السابق، وذكر عذرهم الحقيقي، وهو: ظنهم أن الرسول ﷺ لن يرجع إلى أهله مع المؤمنين من هذه الغزوة، وأن قريشًا ستقضي عليه وعلى من معه، فسبب تخلفكم عنهم خوفكم أن يهزموا وتقتلوا معهم، وزين الشيطان لكم هذا الظن وجمَّله وحسَّنه حتى أصبح يقينًا في قلوبكم.

ثم وصف هذا الظن، بقوله: ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾، **أي:** وهو ظن سيء(١)، وقيل(٢): بل هو ظن آخر.

فالظن الأول: لن يرجع الرسول والمؤمنون إلى أهليهم بسبب أن قريشًا ستقتلهم.

والظن الثاني: أنه لن ينصرهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

---

(١) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي (٢٨/ ٧٤)، وفتح القدير (٥/ ٥٨)، والبحر المديد في تفسير القرآن المجيد، لابن عجيبة (٥/ ٣٩١)، والتفسير المنير للزحيلي (٢٦/ ١٦٧).

(٢) ينظر: تفسير الطبري (٢٢/ ٢١٣)، مفاتيح الغيب (٢٨/ ٧٥)، وتفسير القرطبي(١٦/ ٢٦٩).

وقوله: ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾، يحتمل أن يكون البوار حصل لهم بسبب تخلفهم عن رسول الله ﷺ، أو أن الظن ما صدر منهم إلا بسبب بوارهم، **أي:** ما يحملونه من معتقدات وتصورات بائرة، وهي سوء الظن بالله، وعدم الإيمان الحق به، وعلى كلا المعنيين فالوصف قبيح لهم سواء في النتيجة والثمرة، أو في السبب، **والبوار**(١): هو الهلاك والفساد والكساد، ومنه التجارة البائرة، أي الكاسدة التي لا تباع ولا تشترى، ولا ينظر إليها، فهؤلاء صاروا قوماً بوراً، **أي:** لا قيمة لهم!.

ثم قال سبحانه: ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾، هذا وعيد لكل من لم يؤمن بالله ورسوله، فقد أعدّ له نار جهنم المستعر لهيبها ونارها، واللام للتخصيص.

ثم قال: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾، ثم بيّن أنه مالك السموات والأرض والمتصرف فيهما، وهو الذي يمنح المغفرة لمن يشاء، ويوقع العذاب بمن يشاء، ولكن السياق يدل على أن المغفرة يمنحها للمؤمنين، والعذاب للكافرين.

وختم الآية بقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾، فهو يغفر لمن تاب وأناب، ويرحم من عاد إليه ورجع إليه تائباً؛ ليشعر الخلق أجمعين أن العذاب لا يقع إلا بمن أصر على الكفر والعصيان، أما من تاب وأناب فإن الله يغفر له، وفي هذا وعظ وإرشاد وحث للجميع على التوبة.

---

(١) ينظر: لسان العرب: (٤/ ٨٦).

وقوله سبحانه: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾، سيقول الذين تخلفوا عن الحديبية من القبائل التي كانت مجاورة للمدينة، للمؤمنين بعد عودتهم سالمين من الحديبية، لو خرجتم في غزوة جديدة فيها أموال تغتنموها، فاسمحوا لنا أن نشارك معكم فيها.

فرد الله عليهم، بقوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾، وهو حرمانهم من أن يشاركوا في الخروج إلى فتح خيبر[1]؛ لأن خيبر فتحت بعد الحديبية، وكانت غنائم خيبر مخصوصة بأهل الحديبية فقط.

وقوله: ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾، **أي:** أبلغهم يا محمد أن الله قد حرمهم من الخروج معك إلى خيبر بسبب تخلفهم السابق، أما المنافقون؛ فمنعهم الله أن يخرجوا معه في الغزو مطلقًا، وأما الأعراب؛ فمنعهم الله من أن يخرجوا معه إلى خيبر تأديبًا لهم، ولكنه سمح لهم أن يخرجوا في غزوات أخرى لما حسن إسلامهم.

وقوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾، وبدلاً من إقرارهم بالذنب والتوبة منه؛ كان جوابهم: أنتم لا تريدون أن نشارككم غنائم خيبر حسداً منكم لنا، وهو جواب باطل يدل على غبائهم.

ولذلك عقّب الله عليه، بقوله: ﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾﴾، **أي:** لقلة

---

(١) مدينة كبيرة ذات حصون ومزارع وهي بلدة معروفة، تبعد عن المدينة ١٦٥ كيلاً شمالاً على طريق الشام. ينظر: والمعالم الأثيرة في السنة والسيرة. محمد حسن شراب: (١٠٩).

فهمهم؛ قالوا ذلك، والواقع أن منعهم ليس حسداً لهم، بل هو عقوبة لهم بسبب تخلفهم، ولكن المبطل غالبًا يسمي الأشياء بغير مسمياتها، والفهم الصحيح عندهم نادر جداً، ولو كان عندهم فهم للأمور على الوجه الصحيح؛ لما كذبوا في عذر تخلفهم، ولما وصفوا منع الرسول لهم بالحسد.!!

فوائد وهدايات من هذه الآيات:

١- مكانة بيعة الرضوان عند الله، وأن أهلها هم خيرة أصحاب رسول الله ﷺ، وأن الله قد رضي عنهم ورضوا عنه، وهم موعودون بالجنة، وأنه لن يدخل النار رجل بايع تحت الشجرة[(١)].

٢- الاعتذار بالأعذار الباطلة الكاذبة هي شأن ضعاف الإيمان، ولو صدقوا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ واعتذروا بصدق لتاب الله عليهم.

٣- أن ضعاف الإيمان قليلون عند الفزع، كثيرون عند الطمع، وهذا واضح من حرص القوم المتخلفين على الخروج إلى خيبر لأن فيها مغانم.

٤- أن أهل الإيمان يكونون دائمًا حاضرين في المواقف الصعبة والشديدة؛ لأن الإيمان هو الذي يدفعهم إلى البذل والتضحية والجهاد في سبيل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

---

(١) أخرجه الترمذي: (٥/ ٦٩٥) رقم (٣٧٦٠٩)، وأبو داود: (٤/ ٢١٣) رقم (٤٦٥٣)، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٥/ ١٩١) رقم (٢١٦٠).

تفسير المقطع الثالث من سورة الفتح

﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن
تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ
عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ
جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ ۞ لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ
الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ
فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ
كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ
وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا
﴿٢٢﴾ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾، أمر الله تعالى نبيه ﷺ، أن يخبر الذين تخلفوا عن المسير معه إلى الحديبية -كما سبق، بسبب ظنهم أن الرسول لن ينقلب إلى أهله ولن يرجع، وأن قريشًا لديها من القوة والمنعة ما يجعلها تهزمهم، وكان هذا التخلف سببًا لمنعهم من

المشاركة في فتح خيبر، وجعل مغانم خيبر خاصة لمن حضر الحديبية فقط- **وهنا وجه إليهم الخطاب قائلاً لهم**: إن كنتم صادقين في التوبة كما تزعمون؛ فهناك غزوات أخرى ستدعون إليها، فشاركوا فيها، **قيل**[(١)]: هي حرب هوازن وثقيف، وهذا كان في عهد النبي ﷺ في حنين.

وقيل[(٢)]: سيدعوكم خلفاؤه من بعده إلى قتال فارس والروم، وقد كان هذا في عهد عمر.

وقيل[(٣)]: هم بنو حنيفة من المرتدين أصحاب مسيلمة الكذاب، وقد كان هذا في عهد أبي بكر الصديق.

ورجح بعض المفسرين[(٤)] هذا القول، بحجة أن الله تعالى ذكر هنا أمرين فقط، **وهما**: ﴿تُقَٰتِلُونَهُمۡ أَوۡ يُسۡلِمُونَ﴾، وهذا لا يكون إلا في المرتدين أو في مشركي العرب، **أما اليهود والنصارى**؛ فيقبل منهم الإسلام أو الجزية أو القتال، وهنا لا يوجد الخيار الثالث، وهو الجزية.

وقيل[(٥)]: إن هؤلاء القوم من شدة بأسهم وقوتهم لا يستسلمون لدفع

(١) ينظر: ينظر: جامع البيان (٢٢/ ٢٢٠).

(٢) ينظر: جامع البيان (٢٢/ ٢١٩).

(٣) ينظر: جامع البيان (٢٢/ ٢٢٠).

(٤) ينظر: الكشاف (٤/ ٣٣٨)، ومفاتيح الغيب، للرازي (٢٨/ ٧٨)، فتح القدير للشوكاني (٥/ ٦٠).

(٥) ينظر: الكشاف للزمخشري: (٤/ ٣٣٨).

الجزية، فأمامهم إما الإسلام، وإما أن يقاتلوا حتى يموتوا، وبناء على هذا التعليل فلا تعارض بين كل الأقوال السابقة، والله أعلم.

وقوله سبحانه: ﴿فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾، **أي:** إن حصل منكم استجابة لمن دعاكم للخروج للقتال في سبيله، صادقين مخلصين، سواء كان الرسول ﷺ أو أبا بكر الصديق أو عمر أو غيرهم من الخلفاء؛ يعطيكم الله سبحانه أجراً حسناً على هذه الطاعة، وهو الجنة، وهذا يعني أن توبتهم قد قبلت، وأن إسلامهم قد حسُن، وأن ما فعلوه من تخلف في المرة الأولى قد غفره الله لهم.

وقوله: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾﴾، **أي:** وإن تعرضوا ولم تستجيبوا لهذه الدعوة والخروج للجهاد في سبيل الله كما تخلفتم عن الخروج مع رسوله إلى الحديبية؛ **قيل**(١): إن العذاب الأليم غالباً يكون عذاب الآخرة، فإنه لا آلم منه ولا أشد منه وجعاً على صاحبه!.

وقيل(٢): يعذبكم عذاباً أليماً بالقتل والأسر والقهر في الدنيا، وبعذاب النار في الآخرة لتضاعف جرمكم!، والراجح: حمله على العموم.

ثم قال الله سبحانه: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾، ذكر هنا بعض الأعذار التي يجوز لأصحابها أن يتخلفوا عن الخروج

---

(١) ينظر: جامع البيان، للطبري (٢٢/ ٢٢٢)، وتفسير السمرقندي (٣/ ٣١٦)، وتفسير البغوي (٧/ ٣٠٣).

(٢) ينظر: فتح القدير للشوكاني (٥/ ٦٠).

للجهاد في سبيله، ومثّل لهم بثلاثة أمثلة، ولا يعني ذلك أنه لا يوجد غيرهم من أصحاب الأعذار.

فذكر الأعمى وهو: من فقد نور عينيه، بمعنى أن الأعور ليس بمعذور؛ لأنه يستطيع أن يبصر الطريق.

وذكر الأعرج، وهو: الذي فقد إحدى قدميه أو فيه عرجة في إحدى رجليه، فلماذا عذر الأعرج، ولم يعذر الأعور؟!؛ لأن الأعور يرى، والمعركة معركة جري وحركة ومشي، والأعرج لا يستطيع ذلك.

والمريض: هو من به مرض يمنعه من الخروج في الغزو مهما كان نوع هذا المرض، وبقيت أعذار أخرى لم تذكر، مثل: مقطوع اليد أو اليدين أو مبتور الرجلين وغيرها، وأهل الأعذار معذورون إن تخلفوا عن الخروج، ولو خرجوا؛ حصلوا على الأجر، وقد خرج عبد الله ابن أم مكتوم للجهاد، وكان أعمى، وخرج كذلك عمرو بن الجموح، وكان أعرجًا، وقال: **"لأطأنّ بعرجتي هذه الجنة"**[1].

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، فطاعة الله تعالى ورسوله لازمة في كل الأوامر، واجتناب كل النواهي، وإن كان السياق هنا عن الجهاد، ولكنه يشمل كل طاعة، والجزاء لمن أطاع الله ورسوله أن يدخلهم جنات، والجنة واحدة من حيث الجنس ولكنها تحتوي على أنواع

---

(١) ينظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٩٠-٩١)، ودلائل النبوة للبيهقي (٣/ ٢٤٦).

كثيرة من الجنان، ووصفت هذه الجنات بأنها تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار، فهذا جزاء من يطع الله ورسوله.

وقوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، ومن يعص الله ورسوله، فيتخلف عن قتال أهل الشرك بالله، إذا دعي إليه، ولم يستجب لدعوة الله ورسوله؛ يعذبه عذاباً موجعاً يوم القيامة، وبالمقارنة فيما أعطاه الله للمؤمنين، وما أعده الله للكافرين؛ **سيتضح أي الطريقين ستسلك:** طريق هؤلاء، أو طريق أولئك!.

وقوله سبحانه: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، أعاد الحديث هنا عن بيعة الرضوان وسمّيت بذلك لرضى الله عن المبايعين، وقد كانوا ألفاً وأربع مائة[(١)]، وكانت البيعة تحت شجرة من أشجار السَّمر في الحديبية.

وقوله: ﴿إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾، فهذا وصف دقيق لما تم، وأنهم تجمعوا مع الرسول ﷺ تحت تلك الشجرة.

وقد خرج عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في خلافته معتمراً؛ فسمع من يعظّم هذه الشجرة، فأمر بإزالتها[(٢)]، فالبيعة تمت تحتها مصادفة لا لبركتها، وهذا يدل على حماية عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لجناب التوحيد.

وقوله سبحانه: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾، **أي:** علم الله ما في قلوبهم من الإيمان والصدق والتضحية والبذل لهذا الدين، فأعطاهم مزيداً من

---

(١) أخرجه مسلم: (٣/ ١٤٨٣) رقم (١٨٥٦).

(٢) ينظر: روح البيان، إسماعيل مصطفى الاستانبولي (٩/ ٣٤)، والتفسير الوسيط، لطنطاوي (١٣/ ٢٧٥).

السكينة حتى يزدادوا إيماناً[١]، **وقيل[٢]:** علم الله ما في قلوبهم من الاضطراب والخوف والفزع؛ فآمنهم بالسكينة، وهي الطمأنينة، وهذا القول ضعيف لما فيه من مذمة للصحابة[٣].

وقوله: ﴿وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۝١٨ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾، **أي:** عوضهم الله بفتح قريب، وهو فتح خيبر وغنائمها، فقد كانت مخازنها مليئة بالأموال والسلاح والعتاد، فأخذوها بدون قتال كبير، حيث تم حصارهم ومن ثم استسلامهم.

وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ فهو الذي منحكم ذلك بعزته وقوته وحكمته سبحانه.

ثم قال: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾، فاستبشروا خيراً، فهذه ليست آخر المغانم الموعودين بها، بل هناك مغانم كثيرة ستحصلون عليها مستقبلاً، وفي ذلك إشارة إلى تحقيق النصر على العدو، **فالغنيمة:** هي المال المأخوذ من العدو بعد هزيمته، وقد تحقق لهم ذلك الوعد، في غنائم حنين، وفتح الله عليهم كنوز كسرى وقيصر، وغيرها.

وقوله: ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾، **أي:** غنائم خيبر، حيث كانت مباشرة بعد صلح الحديبية.

---

(١) ينظر: بحر العلوم، للسمرقندي (٣/ ٣١٧)، والبحر المحيط في التفسير، لأبي حيان الأندلسي (٨/ ٩٦).

(٢) ينظر: تفسير مقاتل بن سليمان (٤/ ٧٣).

(٣) ينظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥/ ١١٨).

وقوله: ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، وهذه نعمة أخرى امتنّ الله بها عليهم، وجعلها علامة على نصرة الله لأوليائه؛ حتى تزداد يقيناً بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وإيماناً به، فحينما كان المسلمون في الحديبية ينتظرون الصلح، خرج عليهم ثمانون رجلاً من فرسان قريش، وكان يريدون أن يغيروا على المسلمين على حين غفلة، ولكن كان المسلمون حذرين، فقد حاصروهم من الجهات كلها، فاستسلموا وقبضوا عليهم وصاروا في أيديهم، ثم أمر النبي ﷺ أصحابه أن يفكوهم فأعادوهم إلى أهلهم(١).

وقوله: ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾، **أي:** ويوفقكم للسير على الصراط المستقيم، وهو الدين الحق الذي جاء به محمد ﷺ.

ثم قال سبحانه: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾، **أي:** ووعدكم مغانم أخرى لم تقدروا عليها الآن، قد علم الله أنها ستكون لكم، وأنه قادر على أن يجعلكم تحصلون عليها وستأتي في المستقبل، **قيل**(٢): إنها مغانم هوازن وثقيف، **وقيل**(٣): إنها ما يأتيهم من فتوحات الفرس والروم، **وقيل**(٤): هي كل فتح وغنيمة إلى يوم القيامة، وهو الراجح لعمومه.

---

(١) أخرجه مسلم: (٣/ ١٤٤٢) رقم (١٨٠٨).

(٢) ينظر: الكشاف (٤/ ٣٤١)، وتفسير البغوي (٧/ ٣١٢)، والدر المنثور في التفسير بالمأثور (٧/ ٥٢٦).

(٣) ينظر: جامع البيان (٢٢/ ٢٣٢-٢٣٤)، والمحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥/ ١١٩).

(٤) ينظر: ينظر: تفسير ابن كثير (٧/ ٣١٦).

وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٗا ٢١﴾، ختم هذه الآية بذكر قدرته جل وعلا، وأنه على كل شيء قدير؛ وذلك تطميناً للمؤمنين بحصول ما وعدهم به، حتى يثقوا بالله ويركنوا إليه ويتوكلوا عليه.

ثم قال: ﴿وَلَوۡ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا﴾، أي: لو حصل بينكم وبين أهل مكة قتال؛ لأصيبوا بالرعب والخوف، مما يجعلهم يهربون منكم مهزومين، قد ولوكم ظهورهم، ولا يجدون لهم من يواليهم وينصرهم عليكم.

ثم قال: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾، أي: أن سنة النصر لأوليائه، وسنة الهزيمة لأعدائه كائنة لا محالة، وقد مضت من قبل مع الأنبياء والرسل السابقين، وستستمر مع هذا الرسول الكريم وأمته، فسنن الله تعالى لا تتبدل ولا تتغير.

وإنما يلزم لكي تتحقق أن يؤخذ بأسبابها، مثل قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ٧﴾[محمد:٧]، وقوله: ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٥١﴾ [البقرة:٢٥١]، وغيرها، فالسنن الشرعية مرتبطة بأسبابها، فإن تحققت الأسباب؛ تحققت السنة!.

فوائد وهدايات من هذه الآيات:

١- إخبار القرآن بمغيبات تحققت فيما بعد مثل: فتح مكة وفتح خيبر، وما حصل من المغانم التي يأخذونها من أيدي الكفار؛ دليل قاطع على أن القرآن من عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

٢- أن أحكام الشريعة تقوم على الرفق والتيسير، وذلك واضح في إعذار أهل الأعذار ولو لم تكن كذلك؛ لألزمت الجميع بالخروج للجهاد.

٣- فضل أهل بيعة الرضوان، وعددهم ألف وأربع مائة، وهذا العدد الكبير من الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ جاء في فضائلهم في السنة: **"أنه لا يدخل النار رجل بايع تحت الشجرة"**[(١)]، وهؤلاء من خيرة الصحابة.

٤- جهل من يتكلم أو يطعن أو يسب الصحابة؛ وبُعده عن القرآن، وإن أدعى أنه من أهله، أو وصف بقرين القرآن!!، فلو قرأ القرآن وتدبره؛ لوجد فيه المدح والثناء والترضي عن الأصحاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، فمن أنت حتى تسبهم أو تطعن فيهم، وتشتمهم؟! وبأي حق تعتدي على هؤلاء الأفاضل الذين رضي الله عنهم، ورضوا عنه، ومنحهم هذه الوعود العظيمة من النصر والتمكين، واختارهم الله لصحبة رسوله ووعدهم الجنة؟!، يتمنى أحدنا اليوم أن يرى الرسول ﷺ، ولو طلب منه كل ماله!!، وبعض الناس يمنّ الله عليه برؤيا النبي ﷺ في المنام، فيعيش حالات من الفرح والسرور،

---

(١) أخرجه الترمذي: (٥/ ٦٩٥)، رقم (٣٧٦٠٩)، وأبو داود: (٤/ ٢١٣)، رقم (٤٦٥٣)، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٥/ ١٩١) رقم (٢١٦٠).

فكيف بمن عاش معه وصافحه، وجلس بجواره ودافع عنه وقاتل من أجل نصرة دينه! فلا شك ولا ريب أنه في منةٍ من الله تعالى وفضل، **ولذلك قال بعض العلماء:** لا يوازي الصحبة مزية أخرى(١)، فمهما كنت عالماً وجاهدت في آخر الزمان، إلاَّ أن علمك وجهادك يقفان دون مستوى صحبة رسول الله ﷺ، فهذا أيضاً يدل على فضل الصحابة -عموماً- وأهل بيعة الرضوان -خصوصاً- الذين بايعوا على الموت، وقد أعطاهم الله ما هو معجل لهم بغنائم خيبر فلم يأخذ أحد غيرهم إلا أصحاب الهجرة الثانية إلى الحبشة، حيث منحهم النبي ﷺ بعض أسهم خيبر؛ جزاء لبذلهم وتضحيتهم في الهجرة، ووعدهم الله في الآخرة بدخول الجنة والفوز برضوانه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

٥- بيان أن الحق يغلب الباطل وأهله -ولو بعد حين- فأحياناً ينتفش الباطل ويظهر وينهزم الحق، لكن الحق لا يموت، قد يضعف فترة ثم تعود إليه الحياة؛ فيهزم الباطل، فالباطل حبله ضعيف؛ لأنه مرتبط بالشيطان وكيد الشيطان كان ضعيفاً، والحق مرتبط بالله، والله هو القوي العزيز.

٦- أن الابتلاء طريق للتمكين، فلا بد من الصبر وانتظار الفرج من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولو نظرنا في حال النبي ﷺ وأصحابه كيف كانوا في مكة، كانوا في ضعف ومسكنة وأذية وقتل وطرد، ثم بعد ذلك جاءهم النصر والتمكين!.

---

(١) ينظر: شرح النووي على مسلم (١٦/ ٩٣).

تفسير المقطع الرابع من سورة الفتح

﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ
وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ
مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم
مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا
مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ
اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا
وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ
الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ
تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ
الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ
عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ۖ سِيمَاهُمْ فِي
وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ
فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾.

قـول الله تعـالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾، هـذه الآيـة تـشير إلـى نعمـة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ علـى المـؤمنين، وكـذلك نعمتـه علـى الكـافرين، فـإن الله كـف أيـدي الكـافرين عـن أن يـصيبوا المـؤمنين، وتـسليط المؤمنين على أسْر الكافرين دون قتال، فحاصروهم وقبضوا عليهم، ثـم أمـرهم النبي ﷺ أن يتركوهم بعد أن أسروهم كما سبق، وبطن مكة هو الحديبية، وهـو واد غـرب مكـة، يبعـد عنهـا حـوالي خمسة وثلاثـين كـيلاً، ويقـع الآن في منطقـة تسمى: الشميسي على طريق جده القديم.

وقولـه: ﴿مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾، **أي:** بعـد أن انتـصرتم علـيهم وقبـضتم عليهم وأصبحوا أسرى في أيديكم.

وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾، تذكير بإحاطة علـم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بما يفعله الخلق، وأنه لا يخفى عليه شيء من حالهم.

وقولــه: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾، وهــم كــبراء قـريش، وصـفهم الله بـالكفر والـصد عـن المسجد الحـرام، وذلـك أن المـؤمنين جاءوا من المدينة قاصدين العمرة، فمنعوهم منها وردوهم عن دخول المسجد الحرام، والطواف حول الكعبة وأداء العمرة.

وقوله: ﴿وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾، **أي:** والأنعام التي سـاقها رسـول الله معه عند الإحرام، قد حبست في الحديبية بسبب منع قريش دخول المؤمنين إلـى مكة، وهي محل ذبح الهـدي، **ويـسمى هـذا في كتـب الفقـه بالإحـصار، وهـو:** أن

يمنعك عدو عن دخول البيت حاجًا أو معتمراً، وأنت محرم ومعك الهدي، فتحل الإحرام، وتذبح الهدي في المكان الذي أحصرت فيه، وتقضي حجك أو عمرتك من السنة القادمة، وهذا الذي فعله المسلمون في صلح الحديبية، فبعد أن تم الصلح، قال لأصحابه: **"قوموا فانحروا ثم احلقوا"**، فما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة، فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت أم سلمة: يا نبي الله أتحب ذلك؟ اخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بدنك، وتدعو حالقك فيحلقك، فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك نحر بدنه، ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا، فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضًا حتى كاد بعضهم يقتل بعضًا غمًا[(١)]، وفي هذا دليل استحباب استشارة المرأة العاقلة، وكان امتناعهم عن تنفيذ أمره أولاً طمعًا في استكمال العمرة، فلما رأوا رسول الله قد حلق ونحر؛ يأسوا من ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوۡلَا رِجَالٞ مُّؤۡمِنُونَ وَنِسَآءٞ مُّؤۡمِنَٰتٞ لَّمۡ تَعۡلَمُوهُمۡ أَن تَطَـُٔوهُمۡ﴾ **أي:** ولولا وجود أناس في مكة يكتمون إيمانهم، وهؤلاء الناس من الرجال والنساء لم يعلمهم المؤمنون، ولو أذن الله للمؤمنين بدخول مكة مقاتلين؛ لحصل أذية لهؤلاء المؤمنين الذين يكتمون إيمانهم في مكة تحت مبرر أنهم مشركون، وربما يقتلون تحت راية الشرك، أو أن تصيبوهم بأذى، وإن كان الوطء في الأصل يكون بالقدم، وعلل ذلك بقوله: ﴿فَتُصِيبَكُم مِّنۡهُم مَّعَرَّةُۢ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾، **أي:** فيؤدي ذلك إلى حصول المعرة منهم لكم، وهي الملامة على هذا الفعل، وصرف الله

---

(١) أخرجه البخاري: (٣/ ١٩٣) رقم (٢٧٣١).

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى المؤمنين عن دخول مكة مقاتلين، وحمى الله مكة من أن تسفك فيها الدماء من أجل ذلك.

وقوله: ﴿لِّيُدۡخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾، وهذا تعليل آخر، وهو: أن عدم دخول المؤمنين مكة مقاتلين في ذلك الوقت، سيكون سبباً في إيمان أُناس آخرين، فكانت فرصة لبعض المشركين أن يؤمنوا ويدخلوا في رحمته سبحانه.

وقوله: ﴿لَوۡ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبۡنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ٢٥﴾، **أي:** لو تمايز المؤمنون عن الكافرين في مكة؛ لأذن الله لكم أن تدخلوا مكة مقاتلين، وعندئذ سيحل العذاب الأليم بالذين كفروا من أهل مكة بقتالكم لهم وهزيمتهم، فالتمايز بين المؤمنين والكافرين سبب من أسباب النصر، كما قال الله: ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ١٤﴾[الصف:١٤].

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِذۡ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ﴾، حمية الجاهلية **هي:** عادة آبائهم في الجاهلية أن لا يذعنوا ولا ينقادوا لأحد، حيث منعوا الرسول ﷺ وأصحابه أن يدخلوا مكة معتمرين.

وظهرت صورٌ أخرى منها في مواقف أخرى: كرفضهم في الصلح أن يكتبوا (بسم الله الرحمن الرحيم)، وقالوا: نحن لا نعرف (الرحمن الرحيم) اكتب (باسمك اللهم)، وهذا من حمية الجاهلية، ولما طلب منهم أن يكتبوا هذا ما صالح عليه محمد رسول الله، قالوا: لا نعرف (رسول الله)، ولا نعرف إلا محمد بن عبد الله[1]، وكل ذلك من حمية الجاهلية التي أظهرتها قريش في ذلك

(١) أخرجه البخاري: (٣/ ١٩٣) رقم (٢٧٣١).

الموطن، فأدى ذلك إلى احتقان المؤمنين وزيادة غيظهم وغضبهم ورفضهم، فكان لا بد من تهدئة للنفوس في هذا الموقف، بقوله: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وذلك لتلطيف الجو حتى يتم الصلح؛ نزلت السكينة على رسوله وعلى المؤمنين، فقبل رسول الله ﷺ شروطهم، وامتص عنادهم وحميتهم وأتم الصلح، وحمى الله المؤمنين من أن يدخلهم ما دخل أولئك من الحمية فيعصوا الله ورسوله، بقوله: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾، **وكلمة التقوى هي:** (لا إله إلا الله)، وهي التي يتقى بها الشرك، فكانوا يقولونها قناعة وإيمانًا وتصديقًا بها، وكانوا أحق بها من كفار مكة، وكانوا أهلها في علم الله سبحانه.

وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾، **أي:** أحاط بكل شيء علمًا، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من يدبر الأمر لرسوله ﷺ.

وبالمقارنة بين حال الكافرين ووصفهم يظهر الفرق الكبير بينهما، فالحمية وصف ذم وأضيفت إلى الجاهلية؛ **ليزداد ذمها، فاجتمع فيها ذمان:** ذم اللفظ الذي هو الحمية، وذم الإضافة إلى الجاهلية، والسكينة لفظ ممدوح وأضافها الله إلى نفسه؛ لتزداد جمالاً ومدحًا، وهناك فرق بين جعل وأنزل، فالجعل هو التصيير، **أي:** صيروا الحمية بمعنى ركبوا عقولهم واتبعوا أهواء أنفسهم حتى نفخوا هذه الحمية في قلوبهم، بينما لفظ أنزل تدل على أنها رحمة نزلت من الله، أنزلها في قلوب المؤمنين!.

وكان رسول الله ﷺ، قد أُريَ في المنام أنه دخل مكة وطاف بالبيت، فأخبر

أصحابه بذلك وهو بالمدينة، فلما ساروا عام الحديبية لم يشك جماعة منهم أن هذه الرؤيا ستتحقق هذا العام، فلما وقع ما وقع من قضية الصلح ورجعوا عامهم ذلك على أن يعودوا من العام القابل؛ وقع في نفوس بعض الصحابة من ذلك شيء، **وقال بعضهم**[١] **لبعض**: أين رؤيا رسول الله ﷺ، أما المنافقون فقالوا أقوالاً باطلة في ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾، وهذا لتحقيق الخبر وتوكيده، وليس استثناءً وأنهم سيدخلون المسجد الحرام آمنين.

وقوله: ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾، لمن أراد أن يحلق شعر رأسه أو أراد أن يقصر منه بعد أن ينتهي من العمرة، **فالواو هنا بمعنى (أو) أي**: أن الحاج أو المعتمر **أمامه خياران**: **إما** أن يحلق رأسه بالموسى، **وإما** أن يقصره تقصيراً، والحلق أفضل؛ لأن النبي ﷺ قد دعا للمحلقين ثلاثاً وللمقصرين مرة واحدة[٢].

وقوله: ﴿لَا تَخَافُونَ﴾، **أي**: لا تخافون من أحد، فأثبت لهم الأمن حال الدخول، ونفى عنهم الخوف حال استقرارهم في البلد، وقد كان ذلك في عمرة القضاء في ذي القعدة سنة سبع من الهجرة.

وقوله: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾، **أي**: علم الحكمة والخير والمصلحة في عدم دخولكم مكة هذا العام وتأخير ذلك إلى

---

(١) منهم عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، ينظر: المصدر السابق.

(٢) أخرجه البخاري: (٢/ ١٧٤) رقم (١٧٢٨)، ومسلم: (٢/ ٩٤٦) (١٣٠٢).

العام القادم؛ ليتحقق لكم فتح قريب قبل تحقيق الرؤيا بدخول مكة للعمرة، وكان ذلك الفتح هو صلح الحديبية وفتح خيبر.

ثم ختم الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ هذه القصة بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ﴿٢٨﴾﴾، فالله أرسل رسوله محمداً ﷺ بدين الحق البيّن الواضح، وهو الإسلام، ووعده أن ينصره ويعلي دينه ويظهره على سائر الأديان، وقد تحقق هذا، ولله الحمد، فدين الإسلام اليوم قد عم أكثر الأرض وظهر على كل الأديان، وكفى بالله شاهداً على تحقيق هذا الوعد الذي وعده الله لرسوله ﷺ ولدينه.

ثم ختم الله هذه السورة بالحديث عن صفات رسوله ﷺ، وصفات أصحابه فقال: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ﴾، **أي:** هذا محمد رسول الله الذي أرسله الله وجعله خاتم الأنبياء والمرسلين ورسولاً للعالمين، صفته هو وجميع أصحابه ممن آمنوا به، أنهم أشداء، جمع شديد، رحماء: جمع رحيم، والمعنى: غليظة قلوبهم على الكفار، ورقيقة قلوب بعضهم على بعض.

فيرحم بعضهم بعضًا، ثم وصفهم بقوله: ﴿تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ﴾، **أي:** أنهم مهتمون ومحافظون على الصلاة، فالركوع والسجود من أعظم أركان الصلاة، وهم أيضًا مخلصون في صلاتهم لا يريدون بها رياء ولا سمعة كالمنافقين، بل يبتغون الأجر والثواب من الله، ويطلبون رضى الله سبحانه عليهم بأدائهم لهذه العبادة.

وقوله: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾، **أي:** علامتهم على وجوههم من أثر السجود في الدنيا، والمقصود بالعلامة هنا نور الوجه وإشراقه في الدنيا، فإن أصحاب الصلاة وجوههم مسفرة، فيها نور الطاعة ونور العبادة، وليس بالضرورة أن يظهر على جبهتك أثر حسي للسجدة، لأن بعض الناس يظن أن هذا هو علامة الإيمان! فربما تظهر لك سجدة في جبهتك بسبب مشكلة في الجلد أو مرض أو لأي شيء آخر!، أما العلامة في الآخرة، فيظهر النور الحقيقي على وجوههم ويظهر في مواطن السجود حيث يبعثون غراً محجلين من آثار الوضوء والسجود(١).

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ﴾، **أي:** ما ذكر سابقًا هو مثلهم المذكور في التوراة.

وقوله: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ﴾، أما مثلهم المذكور في الإنجيل؛ فأنهم كالزرع الذي أخرج فروعه وأغصانه حتى اشتد وقوي، وقام على ساقه بعد أن نمى وكبر، وفي هذا المثل إشارة إلى وصف حال الدعوة والمؤمنين بها، فإن النبي ﷺ بدأ في مكة وحده، وكان ضعيفًا في بداية البعثة، ثم تقوّى شأنه بمن آمن معه حتى صار قويًا بعد ذلك، كحال البذرة التي توضع في الأرض وحدها، ثم تنموا وتكثر أغصانها؛ فتقوى بذلك.

وقوله: ﴿يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ﴾، **أي:** أن هذا الزرع من جماله وقوته وارتفاعه يعجب أصحابه من الزراع، وهم الذين يزرعونه، وفي هذا إشارة إلى أن

---

(١) ينظر: جامع البيان (٢٢/ ٢٦٤)، وتفسير القرطبي (١٦/ ٢٩٤).

المتخصص إذا أعجبه شيء مما هو تخصصه، فهي شهادة كاملة صادرة عن علم، ولم يقل هنا يعجب التجار؛ لأن التجار ليس لهم دراية بالزراعة، وهكذا في سائر الأمور.

وقوله: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾، أي: أن هذا الوصف للنبي ﷺ وأصحابه الذين علمهم ورباهم ودربهم حتى بلغوا تلك القوة والمكانة التي أشار إليها هذا المثال، الهدف والغاية من ذلك هو إغاضة الكفار من حالهم هذا.

وقد أخذ الإمام مالك بن أنس[1] من هذه الآية فائدة لطيفة تكتب بماء الذهب وهي: أن كل من يكره أصحاب رسول الله ﷺ من الفرق اليوم؛ ففيه شبه بالكفار الذين أغاضهم حال رسول الله ﷺ وأصحابه باجتماعهم ومحبتهم وطاعتهم له، فالكفار يغاضون ويتألمون من ذلكم.

ثم قال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾، وعدهم المغفرة والأجر العظيم ودخول الجنات جزاء لهم، وهذا يدل على مكانتهم وفضلهم، وأن الله اختارهم لصحبة نبيه ﷺ.

فوائد وهدايات من هذه الآيات:

١ - أن الصد عن سبيل الله جريمة يستحق صاحبها العذاب الأليم في الدنيا والآخرة وهذا ما حصل لكفار قريش.

٢ - أن تدبير الله لمصالح عباده فوق مستوى علمهم المحدود، ولذلك كرهوا

(١) ينظر: تفسير القرطبي (١٦/ ٢٩٧)، والتحرير والتنوير: (٢٦/ ٢١٠).

الصلح في البداية ثم ظهر بعد ذلك ما أنعم الله عليهم من آثاره.

٣- التحذير من الاعتزاز بالآباء والجنس على حساب الدين، فإنها من حمية الجاهلية.

٤- أن رؤيا النبي ﷺ حق، وهي جزء من النبوة وقد صدقه الله تلك الرؤيا بتحققها.

٥- أن ظهور دين الإسلام على كل الأديان وعد من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وقد تحقق بعضه، وسيتحقق إن شاء الله ظهوره الكلي عند نزول عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، واتباعه لدين محمد ثم قتله للكفار وكسره الصليب ورفع الجزية(١)، فلا يبقى إلا الإسلام وأهله.

(١) ينظر: الحديث عن هذا في مسند أحمد: (١٥/ ٦٢)، برقم: (٩١٢١)، وحسنه الألباني بشواهده في سلسلة الأحاديث الضعيفة: (١٢/ ١٢٤) رقم (٥٥٦٤).

تفسير سورة الحجرات

تفسير المقطع الأول من سورة الحجرات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ١ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ
لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ
أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰۚ لَهُم مَّغْفِرَةٞ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ
مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ٤ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرٗا
لَّهُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا
بِجَهَٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ٦ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٖ مِّنَ
ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ
وَٱلْعِصْيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ٧ فَضْلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٨﴾.

سورة الحجرات[١]؛ سورة مدنية بالإجماع[٢]، نزلت بعد عام الوفود؛

(١) **سورة الحجرات** ثماني عشرة آية، **وحروفها**: ألف وأربع مئة وستة وسبعون حرفًا، **وكلمها**: ثلاث مئة وثلاث وأربعون كلمة. ينظر: فتح الرحمن في تفسير القرآن، مجير الدين الحنبلي (٦/ ٣٥٨).

(٢) ينظر: تفسير القرطبي (١٦/ ٣٠٠)، وروح المعاني (١٣/ ٢٨٤).

ولذلك اشتملت على مجموعة من التوجيهات والآداب لبناء المجتمع المسلم سواء فيما يتعلق بالأدب مع الرسول ﷺ، أو فيما يتعلق بالآداب العامة بين أفراده.

وقد ابتدأت هذه السورة، بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، وهذا الخطاب موجه لعموم المؤمنين، وحثهم على أن يكون لله سبحانه، ولرسوله ﷺ، منزلة ومكانة في قلوبهم، سواء كان ذلك من حيث مصدر تلقي الأوامر واجتناب النواهي؛ فلا يقدّم الإنسان رأيه قبل الشرع أو كان من حيث ضرورة الامتثال وعدم مخالفة أمر الله سبحانه، وأمر رسوله ﷺ، وهذه الآيات أدب عام سواء كان ذلك في حياة النبي ﷺ أو بعد وفاته، ففي حياته يتم الأدب مع شخصه وذاته الكريمة ﷺ، وبعد وفاته يتم التأدب مع سنته وهديه، **والمعنى**: لا تتقدموا على كلام الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ وكلام رسوله ﷺ بأمر أو نهي، فالله سبحانه أنزل القرآن الكريم فيه تفاصيل الأحكام، وأمر رسوله بإبلاغه وبيانه للناس، فلا يتقدم العبد بين يدي الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ بأمر مما أمر ولا يعترض على شيء مما شرع، وهكذا مع رسوله ﷺ، ومع سنته من بعده، وهذا التوجيه يحدد لنا كيفية التعامل مع الكتاب والسنة اليوم، فيجب أن يكون على وفق هذا الأدب، فلا تقدم رأياً ولا ذوقاً على كلام الله وكلام رسوله ﷺ.

ثم وعظ الله المؤمنين بعد ذلك بقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾، لأن من تحققت التقوى في قلبه فسيكون أكثر امتثالاً للأدب مع الله، ومع رسوله، وأكثر امتثالاً لأمر الله، وأمر رسوله ﷺ، وهل التقوى إلا فعل المأمورات وترك المنهيات؟!

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، **أي:** سميع لما يقال، وعليم بما يحدث، وفي تذييل هذه الآية بهذين الاسمين الكريمين، وعظ وإرشاد للناس أن يراقبوا الله تعالى، وأن يتقوه؛ لأنه يسمعهم ويعلم ما يحصل منهم، فإنه لا يغيب عن سمعه سبحانه ولا عن علمه شيء.

ثم قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾، وفي هذه الآية أيضاً تعليم للمسلمين كيف يتعاملون مع رسول الله ﷺ بالاحترام المتناهي، فلا يرفعون أصواتهم فوق صوته، ولا ينادونه باسمه، ولا يخاطبونه كما يخاطب بعضهم بعضاً؛ وذلك لعلو مكانته، وعظيم منزلته، وحذرهم أن يفعلوا شيئاً من ذلك حتى لا تبطل أعمالهم بسبب ذلك التصرف، والمقصود بإحباط العمل هو أن يبطل أجره، **لأن الإحباط نوعان: إحباط** العمل مطلقاً، ويحبط بالشرك أو الردة عن الإسلام، **وإحباط** بعض الأعمال أو العمل المعين، بسبب الريا، أو غيره من أسباب محبطات الأعمال كما ذُكر في هذه الآية.

وقوله: ﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾، **أي:** حال كونكم لا تشعرون بخطورة هذه المخالفة، وحصول هذا الموقف منكم مع رسول الله ﷺ، وهذا يدل على أنهم لم يكونوا متعمدين لرفع أصواتهم عند رسول الله، أما من يفعل ذلك استهزاءً واستهتاراً برسول الله ﷺ، فإنه يكفر ويحبط عمله كله، والعياذ بالله، لكن من فعل ذلك دون قصد منه، فإنه يخشى عليه أن يحبط شيء من عمله وهو لا يشعر.

وقد جاء أن ثابت بن قيس بن شماس، كان صاحب صوت جهوري، وكان يحضر مجلس النبي ﷺ، فيرتفع صوته أحيانًا، فلما نزلت هذه الآيات عاد إلى بيته باكيًا حزينًا، وافتقده النبي ﷺ؛ فأرسل إليه، فقال: قد حبط عملي، أنا من أهل النار، فأرسل إليه وطمأنه، بقوله: **"هو من أهل الجنة"**[١]، فكان ثابت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ من أقل الناس صوتًا بعد ذلك، وهذا يدلنا على إمكانية تغيير الصفات الجبلية الموجودة في الشخص مثل ارتفاع الصوت والصياح ونحو ذلك، وأنه يستطيع أن يعدلها أو يغيرها إذا كان عنده إرادة وعزيمة، وليس كما يقول بعض الناس عندما تنصحه، يرد عليك: هذا طبعي لا أستطيع تغييره، إلى غير ذلك من الأعذار، بل تستطيع أن تغير لو عزمت وأخلصت، وكان عندك إرادة وعزيمة، والتوفيق بيد الله سبحانه.

وبعد الحديث عن النهي عن رفع الصوت في مجلس رسول الله ﷺ، وأن هذا الفعل لا يليق، ويخشى على من فعله أن يحبط عمله الصالح بسبب ذلك، اتبعه بالحديث عن ما يجب فعله بحضرة رسول الله ﷺ، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ﴾، فذكر الله وصف المعظمين لرسوله ﷺ ممن يحضر مجلسه، ويتكلم بصوت منخفض تأدبًا واحترامًا له، وأن من يفعل ذلك، فقد نجح في اختبار التقوى في قلبه، فالتقوى قد تمكنت من قلبه، وضبطت سلوك جوارحه، ومن كانت هذه حاله؛ فإنه يكون أكثر امتثالاً للأمر واجتنابًا للنهي، وتمسكًا بالآداب المرضية، وتشير

---

(١) أخرجه مسلم: (١/ ١١٠) رقم (١١٩).

هذه الآية إلى أنه ينبغي التأدب عند قبره وفي مسجده، كما لو كان في حضرته[١]، بمعنى أن من يذهبون لزيارة قبر النبي ﷺ ينبغي لهم ألا يرفعوا أصواتهم، بل يلزمهم غض أصواتهم؛ لأنهم ما زالوا عند رسول الله، فجسده مدفون في ذلك المكان، فهم عنده.

وقوله: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ③﴾، وعد الله سبحانه من التزم ذلك الأدب بالمغفرة لذنوبه، والأجر العظيم له على حسن أدبه وسمو أخلاقه.

ثم ذكر الله سبحانه بعد هذه الصورة المثالية الحسنة، صورة من صور عدم التأدب مع رسوله ﷺ، من بعض الناس، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ④﴾، وهذه الآية نزلت في وفد بني تميم[٢]، حيث جاؤوا إلى رسول الله ﷺ، وكان في بعض حجرات زوجاته، وكانت تسع حجرات، لكل زوجة حجرة تسكن فيها، **أي:** غرفة، وكانت متقاربة مع بعضها، فنادوا: يا محمد اخرج إلينا، ورفعوا أصواتهم بذلك، وهذا الفعل منهم ينافي الأدب مع رسول الله ﷺ، من وجوه، منها: مناداته باسمه، ورفع الصوت عنده، وعدم الانتظار حتى يخرج إليهم.

وقوله: ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾، **أي:** أكثرهم يجهلون دين الله، والأدب مع رسول الله، وعبّر بأكثرهم، ولم يقل كلهم؛ لأن بعض من كان حاضراً منهم ربما استحى من هذا التصرف؛ فاستثني من هذا الوصف، وهذا يعني أن الإنسان

---

(١) ينظر: أحكام القرآن لابن العربي (٤/ ١٤٦)، وتفسير الألوسي (١٣/ ٢٩٠).

(٢) ينظر: الدر المنثور في التفسير بالمأثور (٧/ ٥٥٣)، وشعب الإيمان (٣/ ٩٩).

بعقله الحكيم وتدبره للموقف؛ يستطيع أن يختار الأدب الحسن ويبتعد عن ما لا يليق منه.

ثم قال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾، **أي:** ولو انتظر هذا الوفد خروج رسول الله إليهم؛ لكان خيراً لهم من هذا التصرف المشين الذي فعلوه، وخيراً لهم في الأجر والثواب، وخيراً لهم بما يحصل من دعاء الرسول ﷺ لهم، **وقيل**[1]: إن سبب نزول الآية: أن بعض الأعراب كان لديهم أسرى عند النبي ﷺ، فجاءوا ينادون من وراء الحجرات ويصيحون يا محمد اخرج إلينا، فلما خرج إليهم فك لهم نصف الأسرى ولم يفك النصف الثاني، ولو انتظروا حتى يخرج إليهم لفك لهم جميع الأسرى، ولكان هذا خيراً لهم، والأول أرجح.

وحكم هذه الآية يشمل أيضًا من ورث سنته وهديه من بعده وهم علماء الشريعة[2]، فإنه ينبغي التأدب معهم عند حضور مجالسهم، ومناداتهم بأدب، وعدم إزعاجهم أو إخراجهم من بيوتهم حتى لطلب العلم أو الفتيا، فينبغي لمن يحتاج إليهم أن ينتظر حتى يخرجوا إليه، وقد كان عبد الله بن عباس رضي الله عنه كما جاء في سيرته وفضائله[3]، أنه ربما جلس بباب دار أحدهم تسفّه الرياح

---

(١) ينظر: بحر العلوم، للسمرقندي (٣/ ٣٢٤)، والكشف والبيان عن تفسير القرآن، للثعلبي (٩/ ٧٧).

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب (٢٨/ ٩٧)، والبحر المحيط (٨/ ١٠٨)، وفتح القدير (٥/ ٧١).

(٣) ينظر: سنن الدارمي: (١/ ٤٦٧) رقم (٥٩٠)، والجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع: (١/ ١٥٨) رقم (٢١٥)، وسير أعلام النبلاء: (٤/ ٣٨٥).

وتحرقه أشعة الشمس ينتظر أن يخرج إليه ذلك العالم من الصحابة؛ فيأخذ عنه، ولم يكن ليؤذي من بداخل الدار بالطرق على بابه، أو الصياح عليه وإخراجه في غير موعده.! وهذا الأدب ينبغي أن يسير عليه الناس اليوم وخاصة طلبة العلم مع مشايخهم.

وختم الله هذه الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، إشارة إلى أن ما فعله هؤلاء القوم ذنب ومعصية؛ يلزمهم التوبة والاستغفار منه، وأخبرهم أن الله يغفر ويرحم من تاب ورجع إليه سبحانه.

ثم قال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ﴾، وفي قراءة حمزة والكسائي وخلف: (فتثبتوا)[1]، وهي تدل على وجوب التثبت في الأخبار عمومًا حتى نعلم صدقها من كذبها.

وقد ورد في سبب نزولها[2] أن رسول الله ﷺ بعث الوليد بن عقبة بن أبي معيط في صدقات بني المصطلق بعد الوقعة، فسمع بذلك القوم، فتلقوه يعظمون أمر رسول الله ﷺ، قال: فحدثه الشيطان أنهم يريدون قتله، فرجع إلى رسول الله ﷺ فقال: إن بني المصطلق قد منعوا صدقاتهم، فغضب رسول الله

---

(١) ينظر: جامع البيان: (٩/ ٨١)، وتفسير روح المعاني: (٣/ ١١٤)، والمحرر الوجيز: (٥/ ١٣٠).

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري، جامع البيان (٢٢/ ٢٨٦)، والبيهقي في السنن الكبرى: (٩/ ٥٤) رقم (١٧٩٧٥-١٧٩٧٦)، وحسنه الألباني بشواهده في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٧/ ٢٣٠) رقم (٣٠٨٨).

ﷺ والمسلمون قال: فبلغ القوم رجوعه، قال: فأتوا رسول الله ﷺ فصفوا له حين صلى الظهر فقالوا: نعوذ بالله من سخط الله وسخط رسوله، بعثت إلينا رجلاً مصدقًا، فسررنا بذلك، وقرت به أعيننا، ثم إنه رجع من بعض الطريق، فخشينا أن يكون ذلك غضباً من الله ومن رسوله، فلم يزالوا يكلمونه حتى جاء بلال وأذّن بصلاة العصر، قال: ونزلت الآية، ، وقد وقع هذا من الوليد على سبيل الظن، ولم يتعمد الكذب.

قال بعض المفسرين(١): لو كان الوليد فاسقًا لما ترك تعنيفه واستتابته، فقد روي أنه لم يزد على قوله له: "التبيّن من الله، والعجلة من الشيطان"(٢).

وقوله: ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾، تعليل لترك العجلة في التبيّن والتثبت، **أي**: خشية أن تغيروا أو تغزوا قومًا بجهالة أي، بدون العلم، والمقصود بها هنا المعلومة المغلوطة غير المؤكدة، حول وصف أولئك القوم أنهم منعوا الزكاة، أو أنهم خرجوا لقتال رسول الله ﷺ، **وقيل**: المعنى أن تغزوهم على غرة وهم غير مستعدين لقتالكم.

وقوله: ﴿فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾، **أي**: فتصيروا على فعلتكم تلك بهم بدون تثبت متحسرين على أذيتكم للآخرين وهم مسلمون وقادمون إليكم بزكاتهم، وفيه تحذير من الوقوع فيما يوجب الندم شرعًا، ويلزم التوبة من ذلك،

(١) ينظر: مفاتيح الغيب (٢٨/ ٩٨)، والتحرير والتنوير (٢٦/ ٢٢٩).

(٢) أخرجه الترمذي: (٤/ ٣٦٧) رقم (٢٠١٢) وابن جرير في جامع البيان (٢٢/ ٢٨٨)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته (١/ ٥٧٨) برقم: (٣٠١١).

ويأتي الندم على وجهين: الندم الذي يسبق التوبة وهو أحد شروطها، وندم تحسر على عدم الفعل.

كالذي حصل لقابيل حينما قتل هابيل، كما في قوله تعالى: ﴿فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾[المائدة:٣١]، **أي:** ندم تحسر أنه لم يفطن؛ لأن يفعل بجثمان أخيه كما فعل الغراب، وليس ندم توبة.

ثم عقّب هذه الحادثة، بقوله: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾، واعلموا أيها الناس أنكم تتعاملون مع رسول الله الموجود بين أيديكم وبين أظهركم؛ وهو متصل بالوحي الذي ينزل عليه، فأعطوه حقه من التعظيم والمكانة، وانتبهوا للمغالطة والكذب والخداع له، فالوحي سيكشف أمركم ويفضح سركم!.

وبسبب هذا التنبيه وقع الحذر الشديد من المنافقين في عصره خشية أن ينزل الوحي يفضحهم، كما قال سبحانه: ﴿ يَحۡذَرُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيۡهِمۡ سُورَةٞ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمۡ﴾[التوبة:٦٤]، وقد استدل الصحابة على أن سكوت الوحي عن ممارسة فعل معين في عصره ﷺ دليل على جوازه، كما قال جابر: "كنا نعزل والقرآن ينزل"[١]، **بمعنى:** لو كان فعلنا خطأً؛ لأنكر علينا الوحي.

وقوله: ﴿لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ﴾، فرسول الله ﷺ الموجود بين أظهركم لا يتبعكم ولا يسير حسب أهوائكم، بل يتبع الوحي، ولو أطاعكم في كثير من الأمور التي تطلبونها منه؛ لحصل لكم بذلك المشقة أو الإثم، بل هو حريص على عدم حصول الإثم والمشقة لكم، كما وصفه الله في قوله: ﴿لَقَدۡ

(١) أخرجه البخاري: (٧/ ٣٣) رقم (٥٢٠٨) ومسلم: (٢/ ١٠٦٥) رقم (١٤٤٠).

جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٢٨﴾[التوبة:١٢٨]، والتعبير بكثير؛ يدل على أنه في بعض الأمور التي ليس فيها عنت أو مشقة عليهم، كان يطيعهم فيها.

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾، **(لكن) هنا بمعنى**: بل، وهو استدراك على قوله: يطيعكم، **والمعنى**: ولكن الله لا يأمر رسوله إلا بما فيه صلاح العاقبة، وإن لم يصادف رغباتكم العاجلة، وذلك فيما شرعه الله من الأحكام، فالإيمان هنا المراد منه أحكام الإسلام كلها، **أي**: حبب إليكم دينه وشرعه، وجمّله في قوبكم، ودعاكم إلى قبوله والتسليم به، فكان منكم الامتثال له.

وقوله: ﴿وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَ﴾، **أي**: وبغَّض إليكم الكفر وما يتعلق به، **والفسوق؛ هي**: الذنوب الكبار، **والعصيان؛ هي**: جميع المعاصي، وهذا تدريج لكمال نعمة التوفيق لهم من الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ في أنه حبب إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان!.

وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾، **أي**: أن من حصل له ذلك التوفيق وحبب له الإيمان وزينه في قلبه، وكره إليه الكفر والفسوق والعصيان، فقد رشد.

وقوله سبحانه: ﴿فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٨﴾، **فضلاً هنا**: حال، **أي**: أعطاكم الله ذلك كله تفضلاً منه وأنعم عليكم به، وهي عطية يمنحها الله للعبد دون أن يكون ذلك واجب عليه، لأنه عليم بما يصلح الإنسان، وحكيم في أفعاله، حيث يضع الشيء في موضعه، فيمنح من يشاء ويحرم من يشاء.

فوائد وهدايات من هذه الآيات:

١- وجوب التأدب مع كتاب الله جل وعلا، والتأدب مع رسول الله ﷺ، ومع سنته من بعده، والتأدب مع ورثته من العلماء؛ فلا يقدم الإنسان رأيه وأمره قبل أمر الله ورسوله.

٢- وجوب التثبت من صحة الأخبار، خاصة التي ينقلها من يتهم بالفسق وهو الذي ليس بواضح العدالة.

٣- سكوت الوحي عن ممارسة فعل معين في عصره ﷺ؛ دليل على جوازه.

٤- الانتباه إلى أن الهداية والفضل بيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في تحبيب الإيمان وتكريه الكفر والفسوق والعصيان، فعلى العبد أن يطلب ذلك من الله تعالى بالدعاء.

تفسير المقطع الثاني من سورة الحجرات

﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ
فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ
ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿١٠﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن
يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن
لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ
وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا
فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ﴿١٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ
شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴿١٣﴾ ۞ قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ
ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ
لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ
وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلۡ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي
ٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ
يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ
بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا﴾، هذا إخبار من الله تعالى عما يجب على المؤمنين فعله، حينما يحصل شجار وقتال وخلاف بينهم، وقد أشرنا في بداية السورة أن الهدف من هذه التوجيهات: تربية المجتمع المسلم على مجموعة من الأخلاق والآداب التي تجعله يعيش سعيداً بعيداً عن المشكلات!!، **والمعنى**: لو حصل اقتتال بين فرقتين من المؤمنين لسبب أو لآخر، فالواجب هو دعوتهم إلى الصلح، والصلح المشروع هو الذي لا يحل حراماً ولا يحرم حلالاً، ويتوافق عليه الطرفان بالتراضي، وليس بالضرورة أن يكون الصلح على التساوي، بل يجوز التراضي بين الطرفين على ترك أحدهما ما هو حق له، فإذا حصل الصلح بين هاتين الطائفتين المتقاتلتين واستمر، فالحمد لله.

﴿فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾، فإن رفضت إحداهما الاستجابة إلى الصلح وعادت للقتال، فهذه تسمى الفئة الباغية، وهي التي تجاوزت الحق الواجب عليها بالصلح، فأمر الله جماعة المؤمنين في هذه الحالة بالتعاون لردها عن بغيها، والمقاتلة هنا ليس المقصود منها أن تكون بالقتل مباشرة، وإنما تكون بكل ما يندفع به بغيها، وذلك باستخدام الوسائل المناسبة من الأدنى إلى الأعلى، حتى ولو يصل إلى القتل.

وقوله: ﴿فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ﴾، **أي**: إن تركت البغي ورجعت إلى حكم الله، الذي هو الصلح المأمور به، واشترط هنا أن يكون الصلح بالعدل، بحيث لا يظلم طرف على حساب طرف، **والعدل هو**: إعطاء

كل ذي حق حقه، فجاء التعميم، بقوله: وأقسطوا، بعد قوله: بالعدل **أي**: في كل أمر مفضٍ إلى أشرف درجة وأرفع منزلة وهي محبة الله، **وعلل ذلك بقوله**: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩﴾، **أي**: العادلين في حكمهم، وهناك فرق بين المقسطين والقاسطين، **فالقاسط؛** هو الظالم، **والمقسط؛** هو العادل، فالذي يحبه الله تعالى هو العادل الذي يعدل في نفسه وأهله وما ولّاه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليه.

وقد وردت عدة روايات في سبب نزول هذه الآية، منها: أن سببها هو حصول خلاف بين عبد الله بن أبيّ وأصحابه مع بعض المؤمنين، كما في حديث أنس في الصحيحين[(١)]، لكن الإشكال فيه أنه ليس بصريح، وأيضًا يشكل عليه كيف وصف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كلا الطائفتين بالإيمان، وأحدهما منافقة، إلا على قول أن أصحاب عبد الله بن أبيّ الذين تعصبوا معه لم يكونوا منافقين[(٢)].

وإنما حصل عندهم شيء من الحمية لصاحبهم دون النظر إلى أن الخصم هو رسول الله ﷺ، **وقيل**[(٣)]: إن القتال كان بين طائفتين من المؤمنين بسبب امرأة، فحصل بينهما شجار، فتقاتلوا فأمر الله المؤمنين بحل هذا الإشكال والصلح بينهما.

---

(١) ينظر: صحيح البخاري: (٣/ ١٨٣) رقم (٢٦٩١)، وصحيح مسلم: (٣/ ١٤٢٤) رقم (١٧٩٩).

(٢) ينظر: جامع البيان لابن جرير (٢٢/ ٢٩٣) والتفسير الوسيط.مجمع البحوث (٩/ ١٠٣٨).

(٣) ينظر: جامع البيان، لابن جرير (٢٢/ ٢٩٤)، وتفسير الثعلبي (٩/ ٧٩)، وتفسير القرطبي (١٦/ ٣١٦).

وقولـه سـبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، هذا بيان لرابطة الأخوة الإيمانية، وهي الأصل قبل رابطة النسب واللون والأرض، التي كانت تقوم عليها روابط الجاهلية، فأبطلها الإسلام كلها وجعل الرابطة الأولى بين المؤمنين هي الإيمان، **ومعنى الأخوين في هذا الموضع:** كل مقتتلين من أهل الإيمان، **بمعنى:** أن الجميع أخوة فليصطلحوا، أو يصلح بينهم غيرهم، وهو أسلوب فيه تحبيب وحث على الصلح، ثم أمرهم بتقوى الله؛ لأن من اتقى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فإنه سيبتغي مرضاته، ولو تنازل عن بعض حقوقه، وإذا أراد الإنسان أن تشمله الرحمة؛ فعليه بالتقوى، فإن الرحمة أقرب ما تكون إلى المتقين!.

ثم جاءت الآيات التي بعدها في بيان مجموعة أخرى من الآداب التي ينبغي للمجتمع المسلم أن يحرص عليها، **فقال سبحانه:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾، ناداهم باسم رابطة الإيمان التي تجمعهم، ونهاهم عن مجموعة من التصرفات التي لا تليق بالمؤمنين، **ومنها:** لا يستهزئ ولا يعيب بعضكم على بعض، سواء كان هذا العيب يتعلق بشخص الإنسان أو بأسرته أو بشكله أو بغير ذلك، وعبّر هنا بالقوم عند مخاطبة الرجال دون النساء؛ لأن القوم كما **يقول أهل اللغة**[(١)]: من القيام بالأمر، والقيام بالأمر والقوامة ألصق بالرجال.

وقولـه: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾، تعليل للنهي، **أي:** عسى هذا الذي تسخر منه أو تستهزئ به أو تعيب عليه بعض الصفات، أن يكون عند الله خيراً منك، بسبب تقواه، كما قال: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[الحجرات ١٣]،

---

(١) ينظر: المعجم الوسيط (٢/ ٧٦٨).

والخيرية ليست بالألوان ولا بالأجساد ولا بالأموال، بل هي بما في القلب من إيمان وتقوى.

وقوله: ﴿وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾، **أي:** ولا تستهزئ امرأة بأختها وتعيب عليها، وعلّل ذلك بأن تكون هذه المرأة عند الله خيراً من التي استهزأت بها، وقد أفرد كل صنف بأمر مستقل عن الآخر؛ لأن الغالب أن الرجال يسخرون من الرجال، وأن النساء يسخرن من النساء، فقلّ أن تجد امرأة تسخر من رجل، أو تجد رجلاً يسخر من امرأة؛ لأن الأصل أن كل صنف يهتم بنقد من يشابهه.

وقوله: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾، **أي:** ولا يطعن بعضكم على بعض بالقول، فالهمز بالفعل، واللمز بالقول، وعبّر باللمز على صيغة حصولها من طرف واحد؛ لأن الإنسان لما يعيب إنساناً ثم قد لا يجد المعاب في الشخص الذي عابه عيباً، فقد لا يرد عليه.

وعبّر بالنفس؛ لأن المجتمع المسلم كنفس واحدة، كقوله: ﴿فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾[النور:٦١]، **أي:** على ذواتكم، فأنت بالنسبة لأخيك كأنكما نفس واحدة، وفي ذلك بيان أن ما تفعله في أخيك، كأنك تفعله في نفسك؛ فالمؤمن يلزمه أن يحب لأخيه ما يحبه لنفسه، ويكره له ما يكره لنفسه.

وقوله: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾، **أي:** لا يدعو بعضكم بعضاً بلقبٍ لا يحبه، واللقب هو ما أشعر بمدح أو ذم، **والمقصود بها هنا** الألقاب الذميمة.

أما الألقاب الحسنة فلا حرج فيها، وعبّر بالتنابز على صيغة المفاعلة،

لإمكانية حصولها من الطرفين، **وعلّل ذلك بقوله:** ﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾، فذمّ هذا التصرف وهو إطلاق لقب مذموم على أخيك بعد أن آمن، وصرت أنت وهو بمثابة النفس المؤمنة الواحدة، وسمى هذا التنابز فسوقًا؛ لأنه لا يجوز للمؤمن أن يقع فيه بعد اتصافه بالإيمان.

ثم قال: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١١﴾، **أي:** من لم يتب من هذه المعاصي، فقد ظلم نفسه بإيرادها موطن الهلاك، وهذه الآية عامة في كل من شرد عن التوبة من أي ذنب، ومن تاب فقد أفلح، لقوله: ﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[النور:٣١]، فلا فلاح إلا بالتوبة.

وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾، ثم أمر عباده المؤمنين باجتناب كثيرٍ من الظن، وهو التهمة للآخرين في غير محلها، وعلّل أن بعض ذلك الظن يكون إثمًا محضًا، فلتجتنب كثيراً منه احتياطًا، فلا تتهم الآخرين بما ليس فيهم بدون حجة ولا برهان، وخاصة من ظاهره الصلاح، فهذا إثم ولا شك، بخلاف من كان ظاهره الفساد، فيجوز سوء الظن به.

ثم نهى الله عن التجسس، فقال: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا۟﴾، **أي:** لا تتبعوا عورات المؤمنين، وهو البحث عن أسرارهم والوقوف على أمورهم الخاصة.

فحرّم الله التجسس وأباح التحسس، كما في قوله: قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾[يوسف: ٨٧]، **فالتحسس:** البحث عن خير مفقود لإظهاره! بينما التجسس: البحث عن عيب مستور لفضحه!.

ثم نهى عن الغيبة، فقال تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾، **والغيبة هي:**

ذكرك أخاك بما يكره، كما في الحديث(١).

ثم صوّر قبح هذه الغيبة حتى يتركها الإنسان ويدعها، فقال: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾، **أي:** كما تكره وتتقزز من أكل لحم الآدمي ميتاً؛ فكذلك يجب أن تكره غيبته، فالغيبة محرمة، ولذا شبهها بأكل لحم إنسان ميت، **والمعنى:** كما تكرهون ذلك طبعاً، فاكرهوه شرعاً، ثم وعظ الناس بتقوى الله؛ لأن من اتقى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ سيمتثل لهذه الأوامر ويجتنب تلك النواهي.

وأرشدهم إلى أن الله تواب رحيم، فقال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾، **أي:** لمن تاب وعاد إلى الله تعالى من هذه المعاصي ونحوها من المخالفات.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾، الخطاب هنا للناس جميعاً مؤمنهم وكافرهم، ذكرهم وأنثاهم، أخبرهم أنه خلقهم جميعاً من أصل واحد وهو آدم وحوّى، وهما أبوا البشر جميعاً، فكلكم لآدم وآدم من تراب، فلا يفخر بعضكم على بعض في النسب، ثم بعد ذلك صيّركم شعوباً وقبائل.

فالشعوب: البطون، **والقبائل:** الأفخاذ الكبار(٢)، وبيّن العلة من ذلك وهي ليعرف بعضكم بعضاً في قرب القرابة منه وبعده.

---

(١) أخرجه مسلم: (٤/ ٢٠٠١) رقم (٢٥٨٩).

(٢) ينظر: لسان العرب، لابن منظور (٣/ ٥٠١).

ثم ذكر بعد ذلك معيار التفاضل بين هذه الشعوب والقبائل والأشخاص عند الله، فقال: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾، فالكريم عند الله هو أكثركم تقوى له سبحانه، ولا عبرة باللون أو الجنس أو المال ونحوه، والله عليم بأحوالكم، خبير بما تكونون عليه من كمال ونقص، لأن الإنسان قد يدعي الكمال ويفتخر به، والحقيقة خلاف ذلك، فالله خبير بحاله.

وقوله سبحانه: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾، الأعراب هم الذين يعيشون في البوادي متنقلين مع المرعى، وقد قدِمَ بعضهم على النبي ﷺ؛ فأسلموا، ولم يجتهدوا في الأعمال الصالحة ليتحقق إيمانهم، وادعوا لأنفسهم مقام الإيمان، فأنكر الله تعالى عليهم هذا، وأمر نبيه أن يخبرهم أن ما فعلتموه حتى الآن لا يرقى بكم إلى مرتبة الإيمان، بل ما حصل منكم هو الإسلام فقط، وفي هذا إرشاد إلى أن تسمى الأمور بمسمياتها، وضبط المصطلحات الشرعية، وفيه أيضاً أن مفهوم الإسلام غير مفهوم الإيمان، وأن الدين مراتب.

وقوله: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾، **لمّا:** تفيد النفي إلى أجل قريب، والمعنى: لمّا يتعمق الإيمان وتخالط بشاشته قلوبكم، فأنتم ما زلتم في بداية الإسلام، وإذا صلح حالكم وقوي إيمانكم؛ فستصلون إلى مرتبة الإيمان قريباً.

وقوله: ﴿وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا﴾، **أي:** فإذا حصلت منكم الطاعة المطلقة لله ولرسوله؛ فاطمئنوا، فإن الله لا ينقصكم شيئاً من أجوركم على طاعتكم التي فعلتموها، وفيه تحريض على تقوية الإيمان بفعل الطاعات والإخلاص في فعلها لله؛ لأن من فعل طاعة من غير نية صادقة؛ ضاع

عمله، ولا يُعطى عليه أجراً.

ثم ختم الآية، بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٤﴾، إشارة إلى أن ما فعلوه خطأ يحتاج إلى توبة واستغفار، فدعاهم إلى أن يستغفروا ربهم، ويستمطروا رحمته، فهو غفور رحيم بعباده المقبلين عليه بالتوبة والاستغفار، وهؤلاء الأعراب المذكورون في هذه الآية ليسوا منافقين، بل هم مسلمون، ولكن لم يتمكن الإيمان في قلوبهم، فادعوا لأنفسهم مقاماً أعلى مما وصلوا إليه، فأدبوا في ذلك، ولو كانوا منافقين لفضحهم.

ثم بيّن سبحانه من هو المستحق لاسم الإيمان، فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ١٥﴾[الحجرات:١٥]، إنما المؤمنون الكامل إيمانهم، فحصر وقصر وصف الإيمان على من تحقق فيه هذه الصفات، وهي: الإيمان المطلق بالله ورسوله، ولم يخالطهم شك في ذلك، بل ثبتوا على حال واحدة، وهي التصديق المحض، فإن الشك من نواقض الإيمان، وبذلوا نفوسهم وأموالهم في طاعة الله ورضوانه، فمن اتصف بهذه الصفات؛ فهم الصادقون في دعوى الإيمان، وفيه إشارة إلى أن الأعراب الذين أنكر عليهم قولهم؛ لم تتحقق فيهم كل هذه الأوصاف حتى يصح أن يسموا بالمؤمنين حقاً.

ثم قال سبحانه مخاطباً الأعراب: ﴿قُلۡ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١٦﴾، **أي:** أتخبرونه بما في ضمائركم، وتصديق قلوبكم، فعلمه محيط بما في السموات والأرض وأنتم من

ضمنها، فالله مطلع عليه ويعلمه، وفيها إشارة إلى أهمية مراقبة الله ظاهراً وباطنًا، لإن الله مطلع على سره وعلانيته.!!

ثم قال سبحانه: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾، يخبر سبحانه عن ما قاله هؤلاء الأعراب لرسول الله ﷺ، بصيغة المنّ عليه، بقولهم: نحن أسلمنا وآمنا بك دون أن نقاتلك، **وقيل**(١): إن بعض القبائل كانت تأتي إليه وتقول قبائل كذا وكذا قاتلوك ونحن ما قاتلناك وأسلمنا، **فأمره الله أن يرد عليهم، بقوله:** ﴿قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم﴾، **قل لهم يا محمد:** إن هذا الذي فعلتموه هو لكم، وإنقاذ لأنفسكم من القتل في الدنيا ومن النار في الآخرة، **وفي هذا إشارة** إلى أن من وفّق إلى خير فلا يمن به على الله، ومن ذلك ما نسمعه اليوم من بعض أهل اليمن الذين يفتخرون بقولهم: نحن أسلمنا بالرسالة ولم نقتل رسولَ رسولِ الله!!، بل الواجب أن يحمد الله العبد أن وفقه للخير، فلا يمُنّ على الله.

وقوله: ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾، بل المنّة كلها لله سبحانه، ولماذا لم يقل هداكم للإسلام؟ بل قال هداكم للإيمان، الجواب: لأن المطلوب من العبد أن يؤمن، وليس أن يسلم فقط، بل أن يصل إلى مرتبة الإحسان، وهداكم هنا، **بمعنى:** وضح لكم طريق الهداية والرشاد، وأرسل الرسل وأنزل الكتب، فإذا وفقكم للإيمان الحق، فهذا أيضاً هداية توفيق إضافية إلى هداية الدلالة والإرشاد.

وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾﴾، **أي:** في دعوى الإيمان، وقيّد الإيمان بالصدق

(١) ينظر: جامع البيان (٢٢/ ٣٢٠).

هنا؛ بناءً على ادعائهم حتى يخرج القول الكذب في قولهم السابق: آمنا[١].

ثم ختم السورة، بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۝١٨﴾، فالله لا يخفى عليه الصادق منكم من الكاذب، ومن دخل منكم في ملة الإسلام رغبة فيه، ومن دخل فيه رهبة من القتل، والله بصير بأعمالكم سرها وجهرها، خيرها وشرها! وهو الذي سيجازيكم عليها.

فوائد وهدايات من هذه الآيات:

١- وجوب الصلح بين من يتقاتل من المسلمين، ومشروعية قتال الطائفة التي تصر على الاعتداء وترفض الصلح.

٢- من حقوق الأخوة الإيمانية الصلح بين المتنازعين، والبعد عما يجرح المشاعر، مثل السخرية والعيب، والتنابز بالألقاب.

٣- أن سوء الظن بأهل الخير معصية، وإنما يجوز الحذر من أهل الشر وسوء الظن بهم.

٤- أن أصل بني البشر واحد، وهذا يقتضي نبذ التفاخر بالأنساب.

٥- أن الإيمان ليس مجرد النطق باللسان الذي لا يوافق المعتقد، بل هو اعتقاد وقول وعمل.

٦- أن هداية التوفيق بيد الله يمنحها من يشاء من خلقه، أما هداية الإرشاد والدلالة فقد منحها الله للجميع بإرسال الرسل وإنزال الكتب.

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٧/ ٣٦٥)، وفتح القدير للشوكاني (٥/ ٨١).

تفسير سورة ق

تفسير المقطع الأول من سورة ق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝١ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ
عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ۝٣ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ وَعِندَنَا
كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ ۝٤ بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ فَهُمۡ فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ ۝٥ أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى
ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ ۝٦ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا
رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۢ بَهِيجٖ ۝٧ تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ۝٨ وَنَزَّلۡنَا مِنَ
ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ
نَّضِيدٞ ۝١٠ رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِۖ وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ ۝١١ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ
وَأَصۡحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ۝١٢ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ وَإِخۡوَٰنُ لُوطٖ ۝١٣ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ وَقَوۡمُ تُبَّعٖۚ كُلّٞ كَذَّبَ
ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ۝١٤ أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ ۝١٥﴾.

سورة (ق): سورة مكية[1]، وكان رسول الله ﷺ يقرأ بها في المجامع العامة،

(١) **سورة ق** مكية، **وعدد آياتها**: خمس وأربعون آية، **وحروفها**: ألف وأربع مئة وأربعة وسبعون حرفًا، **وكلمها**: ثلاث مئة وخمس وسبعون كلمة. ينظر: تفسير ابن كثير (٧/ ٣٦٦)، وفتح الرحمن، مجير الدين الحنبلي (٦/ ٣٧٧).

كصلاة العيد والجمعة[1]؛ لاشتمالها على ابتداء الخلق والبعث والنشور، والمعاد والقيام، والحساب، والجنة والنار، والثواب والعقاب، والترغيب والترهيب.

وهي بداية المفصل على الراجح من أقوال أهل العلم[2]، وسميت السورة بالحرف الأول الذي بدأت به.

قوله تعالى: ﴿قٓ﴾، **قيل:** اسم من أسماء الله[3]، **وقيل:** اسم من أسماء القرآن[4]، **وقيل:** الجبل المحيط بالأرض[5]، **والصحيح** أنه حرف من حروف لغة العرب[6] مثله مثل: ﴿صٓ﴾ و﴿الٓمٓ﴾، ونحوها، وقد سبق معنا أن الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ ذكر هذه الأحرف المقطعة في بداية بعض السور، إشارة إلى عظمة هذا القرآن وبلاغته، فغالبًا ما تذكر هذه الأحرف ثم يتبعها الحديث عن القرآن، كما في قوله: ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ١﴾[ص:١]، وبالمناسبة هناك تشابه كبير جداً بين سورة (ص) وسورة (ق)، في الأسلوب والموضوع.

وقوله: ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ١﴾، **الواو** حرف قسم، **والقرآن المجيد** مقسم به، وقد سبق معنا أن الله تعالى يقسم بما شاء، **أما العبد** فلا يقسم إلا بالله،

---

(١) ينظر: صحيح مسلم: (٢/ ٥٩٥) رقم (٨٩١)، و(٢/ ٦٠٧) رقم (٨٧٣).

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير (٧/ ٣٦٦).

(٣) جامع البيان لابن جرير (٢٢/ ٣٢٥).

(٤) ينظر: المصدر السابق (٢٢/ ٣٢٥).

(٥) ينظر: بحر العلوم للسمرقندي (٣/ ٣٣١)، وتفسير الثعلبي (٩/ ٩٢)، وتفسير البغوي (٧/ ٣٥٢).

(٦) ينظر: تفسير ابن كثير (٧/ ٣٦٧).

والقرآن كلام الله، فهذا نوع من القسم بصفة من صفات الله تعالى، ولذلك يجوز أن تقسم بالقرآن إن قصدت به اللفظ، ولا يجوز لك أن تقسم بالمصحف إن قصدت به الأوراق والجلد والحبر، فهذه مخلوقات لا يقسم بها، وقد وصف الله القرآن الكريم بالمجيد، وهو: اسم لكل ذي عظمة، وهو ما يمجد لعظمته ولمجده، وجواب القسم محذوف يقدّر من السياق، فالسياق تحدث عن: إنكارهم للبعث والنشور، وتحدث عن تعجبهم من بعثة الرسول ﷺ.

فيمكن أن يكون الجواب: إنك رسول الله حق[(١)]، أو إن البعث بعد الموت حق[(٢)]، فيكون جواب القسم هذا أو هذا[(٣)]، ولا مانع أن يكون جواب القسم كلا الأمرين معًا، وقد رجحه ابن كثير[(٤)].

وقوله: ﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ﴾، ولا يوجد عجب في هذا، فكيف تمنحون الأصنام صفة الألوهية، ولا تقبلون صفة الرسالة في رسول أرسله الله إليكم، وهو الصادق الأمين عندكم!!، بل العجب هو تعجبكم، والعجب من حال عقولكم السخيفة التي تعجبت مما لا عجب فيه.

وقوله: ﴿فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ۝٢﴾، ما هو هذا الشيء العجيب؟! **والجواب فيه قولان:** أن الشيء العجيب هو: بعثة الرسول ﷺ[(٥)]، فقد كان عند

(١) ينظر: مفاتيح الغيب (٢٨/ ١٢٣).

(٢) ينظر: جامع البيان (٢٢/ ٣٢٧)، ومعاني القرآن للزجاج: (٥/ ٤١).

(٣) ينظر: النكت والعيون (٥/ ٣٤٠).

(٤) تفسير ابن كثير (٧/ ٣٦٩).

(٥) ينظر: تفسير السمرقندي(٣/ ٣٣٢)، والمحرر الوجيز: (٥/ ١٣٩)، وتفسير ابن كثير: (٧/ ٣٦٩).

البشر شبهة أن الرسل لا بد أن تكون من الملائكة، ولا تكون من البشر، لهذا قالوا: ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾[التغابن:٦]، وهو استغراب لماذا يرسل الله تعالى بشراً، وقد بيّن الله لهم الحكمة من إرسال الرسل من البشر، كما قال: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾[الأنعام:٩]، **وخلاصتها**: أن الله تعالى أرسل رسلاً من البشر ليتناسقوا مع من أرسلوا إليهم، ويكونوا قدوة لبني جنسهم. والقول الثاني: أن الشيء العجيب هو: بعثتهم من بعد موتهم(١)، فإذا جعلت المتعلق بعجيب هو ما أتى قبله، فيكون التعجب من البعثة، وإذا جعلته ما أتى بعده فيكون التعجب من البعث، وظاهر القرآن يرجح الأول(٢).

وقوله: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾، **أي**: بعد دفننا في القبور، وهذا واضح فإن الإنسان إذا مات ودفن أن الأرض تأكل جسده فيتحول عظمه إلى الرميم، وهو العظم الذي صار ترابًا.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝٣﴾، **أي**: ذلك البعث بعيد الوقوع، فاستبعدوا إمكانية البعث والعودة بعد الموت في أذهانهم؛ لأنهم كانوا ينكرونه، فرد الله عليهم ادعائهم، بقوله: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾، **أي**: أن الله قد علم ما تأكله الأرض وتنقصه من أجسادهم بكل دقة، **وقد جاء في الحديث**(٣): "كل ابن

---

(١) ينظر: جامع البيان (٢٢/ ٣٢٨)، والكشاف (٤/ ٣٨٠)، والبحر المديد في تفسير القرآن المجيد (٥/ ٤٤٤).

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب (٢٨/ ١٢٤)، وتفسير القرطبي (١٧/ ٣-٤) وفتح القدير، للشوكاني (٥/ ٨٤).

(٣) أخرجه مسلم: (٤/ ٢٢٧١) رقم (٢٩٥٥).

آدم يأكله التراب، إلا عجب الذنب، منه خلق وفيه يركب"، **وعجب الذنب**: هو قطعة صغيرة تبقى من نهاية العمود الفقري في الإنسان، كمثل رأس الأصبع، أو أقل منها، فهذه التي تحفظ أصل الإنسان، ويحشر ويبعث منها.

قوله: ﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ٤﴾، **الكتاب الحفيظ**: هو اللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه كل مقادير الخلق بما فيها ما ينقص من أجسادهم في قبورهم، وحفيظ، **بمعنى**: لا يغادر صغيرة ولا كبيرة، ومحفوظ لا يتطرق إليه الخلل.

وقوله: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾، **أي**: بل الواقع الموافق لحالهم، أنهم كذبوا بالحق الذي جاء به محمد ﷺ، **سواء قلنا**: إن الحق هنا هو بعثته، كرسول بعث بالحق[1]، أو أن الحق هو ما بعث به وهو الإسلام وما جاء به وهو القرآن[2]، أو هما معاً[3]، وهو الراجح، فيكون المعنى: أنهم كذبوا بمحمد ﷺ، وبما جاء به من القرآن والرسالة.

وقوله: ﴿فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ٥﴾، **أي**: في أمر مضطرب. **والمريج في اللغة**[4]: الملتبس والمختلط، وهذا واضح من حالهم معه فلو أنك تعقبت موقف قريش من النبي ﷺ، أو من القرآن، لوجدت الاضطراب في موقفهم، **فمرة يقولون**: مجنون، **ومرة يقولون**: ساحر، **ومرة يقولون**: شاعر، **وأحيانًا يقولون**: صادق وأمين، وأن هذا القرآن لم يؤتى بمثله، ونحو ذلك من العبارات

---

(١) ينظر: تفسير المراغي (٢٦/ ١٥٢).
(٢) ينظر: جامع البيان (٢٢/ ٣٢٩)، وتفسير القرطبي (١٧/ ٤) وفتح القدير للشوكاني (٥/ ٨٥).
(٣) ينظر: تفسير السمرقندي (٣/ ٣٣٢).
(٤) ينظر: تاج العروس (٦/ ٢٠٩).

المضطربة المتناقضة.

ولذا أرشدهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لمعرفة الحق عن طريق النظر والاستدلال بآيات الله الكونية، **فقال:** ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا﴾، بمجرد أن ترفع بصرك إلى السماء، وهو عمل لا يحتاج إلى مشقة!!،

وانظر في السماء وتدبر وتأمل كيف خلقها الله، فقد خلقها الله بدقة وإحكام، فلا تجد فيها خللاً أو عيباً، وخلقها بدون أعمدة رغم سعتها وارتفاعها، والبشر مهما بلغوا في البراعة في الهندسة، فإنهم لا يستطيعون أن يصنعوا قبة إلا ولها ما يسندها من الأعمدة، وجمّلها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وزيّنها ليلاً بالنجوم التي تشبه مصابيح البيوت.

وقوله: ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦﴾، هذا توكيد لبيان دقة البناء، فلا يوجد في السماء فروج، **والفروج:** جمع فرجة، **وهي:** الشق أو الخرق أو الفجوة، **كقوله:** ﴿هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾[الملك:٣]، فإذا نظرت في السماء، ورأيت هذا الخلق المتقن العجيب، وتفكرت بعظمة وقدرة وقوة من خلقه وأوجده، وتأملت وقارنت بين حجم السماء وحجم الإنسان؛ حينها ستعلم أن إعادة الموتى وبعثهم من قبورهم أحياء لا مشقة فيه، وأنه هيّن على الله سبحانه، **كما قال:** ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٧﴾[غافر:٥٧].

وقوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾، **أي:** وتأمل وانظر في الأرض، فقد مدها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وجعلها كافية للبشر، وسهلها ويسرها وبسطها لهم، حتى يسهل العيش عليها والسكن فيها، وثبت فيها الرواسي، وهي: الجبال التي

ترسو بها الأرض فلا تتحرك ولا تضطرب.

وقوله: ﴿وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ٧﴾، أي: أنبتنا في الأرض من كل نوع من الأشجار والفواكه والنبات، وبهيج، أي: حسن يسر الخاطر، وتبتهج النفس برؤيته، فمناظر الأرض إذا أخضرت جميلة جداً.

وعلل إيجاد ما سبق بقوله: ﴿تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ٨﴾، أي: فما نظرت في السماء وما رأيت في الأرض كله بصائر، وهي: آيات وأدلة وبراهين وحجج؛ توصلك إلى أن الخالق هو الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ القادر على كل شيء، وهي أيضاً موعظة، بمعنى: أن التأمل والتفكر في آيات الله الكونية؛ ينفع العقل، وينفع النفس، فالعقل يحتاج إلى بصائر وحجج، والنفس تحتاج إلى موعظة وتذكير، ولأن الإنسان مركب من هذين الأمرين؛ فهو يحتاج إلى أن تشبع رغباته في باب العقل بالبصائر والحجج والبراهين، وفي باب النفس بالعظة والذكرى، ولكنه اشترط للانتفاع بحصولهما أن يكون العبد منيباً، والمنيب هو: الذي تاب ورجع إلى الله، واعترف بألوهيته وربوبيته، وخشع لعظمته وجبروته جل وعلا؛ حتى انفتح قلبه للتبصرة، ونفسه للموعظة.!! ولذا يقال: "غير المريد لا يستفيد"، وهذا حال كثير من الكفار، فحين ينظرون في ملكوت السموات والأرض، لا يستفيدون من نظرهم فيها، بسبب إعراضهم عن التوبة والإنابة.

وقوله: ﴿وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا﴾، إذا نظرت إلى السماء رأيت فيها عجائب خلق الله، وإذا نظرت إلى الأرض رأيت فيها ما يسر الخاطر، فهناك علاقة بين السماء والأرض، فمن السماء ينزل الماء المبارك وهو المطر؛ وكان

النبي ﷺ إذا نزل المطر حسّر عن رأسه واستقبله، **وقال**: **"حديث عهد بربه"**(١)، كأنه يتبرك به؛ وذلك لأن البركة من الله وحده يضعها فيما يشاء من مخلوقاته، كماء زمزم، والزيتون، ومكة، والحبة السوداء، ونحوها، ولا يجوز أن تضاف البركة إلى مخلوق بدون دليل، ويستفاد من هذا أن الإنسان إذا أراد أن يتبرك بالماء فعليه بماء المطر حال نزوله، ويمكنه أن يأخذ شيئًا منه ويضيف عليه شيئًا من زيت الحبة السوداء وزيت الزيتون ويقرأ عليها الفاتحة، فكلها مباركة، ويشربه ففي ذلك شفاء، بإذن الله، لكثير من أمراضه الحسية والمعنوية!.

وقوله: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ ۝٩﴾، **أي**: أنبت الله بماء المطر أشجار الجنات، وهي البساتين التي لها أغصان وأوراق تغطي ما خلفها وتستره، وأنبت به أيضًا الزرع الذي يثمر الحب الذي يحصده الناس فيقتاتون منه.

وقوله: ﴿وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ ۝١٠﴾، **أي**: وينبت به أيضًا النخل، وهي الشجرة المعروفة التي تثمر التمر، ووصف أشجارها بأنها طويلة فارعة في الطول، يخرج منها طلع نضيد، وهو الثمرة المتراكبة بعضها فوق بعض، وفيه إشارة إلى الجمال في صورته، والترتيب في هيئته، ويظهر لك ذلك المنظر الجميل إذا نظرت إلى عذق التمر وهو متدلٍ من نخلة باسقة الطول مرتفعة!.

وقوله: ﴿رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِ﴾، **أي**: ما أثمرته النباتات من الحب المحصود والتمر النضيد وسائر الفواكه، جعله الله رزقًا للعباد، وأطلق هنا لفظ: العباد، ليشمل الناس كلهم، سواء كانوا مسلمين أو كفاراً، فالجميع عبيد له سبحانه، إما عبودية

---

(١) أخرجه مسلم: (٢/ ٦١٥) رقم (٨٩٨).

بالغلبة والقهر؛ كحال الكافر، أو عبودية بالاختيار؛ كحال المؤمن، بينما عند ذكر التبصرة والذكرى؛ جعلها مخصوصة بالعبد المنيب، لأنها متعلقة بالاختيار، وتكون بالتفكر والنظر للوصول إلى الحق عن طريق الدليل، ولا يصل إليها إلا من أناب إلى الله تعالى ووفقه الله لذلك، أما الرزق فهو مبذول للصالح والطالح، والمؤمن والكافر؛ ليبتلي الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ به الخلق.

ثم قال: ﴿وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ﴾، **أي:** بالماء المبارك يحيي الله البلدة الميتة، وهي الأرض التي جفت ويبست، فإذا أنزل الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ الماء على هذه الأرض، اهتزت وربت وأنبتت، فهذه حياتها.

ثم قال: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ ١١﴾، **أي:** كما يحي الله الأرض الميتة؛ فكذلك تخرجون من قبوركم، وقد ضرب الله هذا المثال للإنسان ليقرّب له صورة البعث للموتى، ويذهب تعجب الكفار من ذلك.

ثم قال: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَأَصۡحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ١٢﴾، فليست قريش أول من كذب الرسل وكذب بالبعث والنشور، **فقد سبقهم أقوام إلى ذلك، مثل:** قوم نوح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، **وأصحاب الرس، وهي:** البئر، وأصحابه الذين كانوا يعيشون حوله، **وقد اختلف المفسرون من المقصود بأصحاب الرس على أقوال متعددة**[(١)]، **أرجحها** أنهم قوم من العرب، أرسل الله إليهم حنظلة بن صفوان[(٢)]، وهو نبي من الأنبياء الذين لم يذكروا في القرآن الكريم، فكفروا به، وقتلوه وألقوه في البئر، **وثمود:**

---

(١) ينظر: جامع البيان، لابن جرير: (١٩/ ٢٦٩)، وتفسير ابن أبي حاتم: (٨/ ٢٦٩٥)، والبحر المحيط: (٦/ ٤٥٧).

(٢) ينظر: تفسير البغوي: (٥/ ٣٩١)، وتفسير الثعلبي: (٧/ ٢٧)، وتفسير البيضاوي: (٤/ ١٢٥).

هم قوم صالح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

وقوله: ﴿وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾﴾، **وعاد:** هم قوم هود، وقد مرّ معنا أنهم أصحاب الأحقاف، **فرعون:** هو الذي كان في عهد موسى؛ لأن كل من كان يحكم مصر يسمى فرعون، **وإخوان لوط:** هم قومه الذين رماهم الله تعالى بالحجارة.

وقوله: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾، **وأصحاب الأيكة:** هم قوم شعيب، والأيكة هي: الشجرة الكبيرة الملتفة أغصانها مع بعض، وتبُّع: هذا أحد الملوك الحميريين من أهل اليمن، وهل هو نبي أم لا؟!، فقد ثبت أن النبي ﷺ، تشكك في أمره في البداية[1]، ثم أوحى الله إليه أنه كان رجلاً صالحًا على دين موسى[2]، فرجع إلى قومه فدعاهم، فلم يؤمنوا وكفروا به.

وقوله: ﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾، **أي:** كل من سبق ذكره كذب الرسل، فحق وعيد الله في إهلاكهم، فإن الله تعالى توعد الكفرة ومكذبي الرسل بالهلاك.

ثم قال: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾، هذا سؤال إنكاري، **أي:** أعجزنا حين خلقناهم أولاً حتى نعجز عن الإعادة؟! وفي هذا تقرير لهم؛ لأنهم اعترفوا بالخلق الأول.

---

(١) ينظر: المستدرك على الصحيحين للحاكم: (١/ ٩٢) رقم (١٠٤)، والسنن الكبرى للبيهقي: (٨/ ٣٢٩) رقم (١٨٠٥٠)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته: (٢/ ٩٦٩) رقم (٥٥٢٤).

(٢) ينظر: المستدرك على الصحيحين للحاكم: (٢/ ٤٥٠) رقم (٣٦٨١)، وصححه الألباني بشواهده في سلسلة الأحاديث الصحيحة: (٥/ ٥٤٨) رقم (٢٤٢٣).

وأنكـــروا البعـــث، كمـــا في قولـــه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾﴾[الزخرف:٨٧]، **والخلق الأول:** هو خلق آدم من طين، ثم استمرار الخلق بعده من نطفة، وقد حصل للكفار في ذلك لبس، وهو اختلاط شيء بشيء، فقد التبس عليهم الحق؛ حينما وقعوا في شبهة القياس الفاسد، لأنهم قاسوا قدرة المخلوق الضعيف على قدرة الله الخالق العظيم، فلما رأوا أن المخلوق الضعيف لا يستطيع أن يفعل مثل هذه الأمور، استبعدوا وقوعها وتعجبوا من حدوثها من الله! وحصل عندهم اللبس في إمكانية الخلق الجديد، الذي هو البعث للناس بعد الموت، أما الخلق الأول فإنهم يقرون به، ولا شك أن إعادة الخلق أهون من إيجادهم من العدم.

فوائد وهدايات من هذه الآيات:

١- تعجب المشركون من إرسال رسول من البشر، واستبعدوا ذلك، لكنهم يمنحون صفة الألوهية للحجر!!.

٢- خلق السموات والأرض وإنزال المطر، وإنبات الأرض القاحلة، والخلق الأول، كلها أدلة ذكرها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على إمكانية البعث والنشور.

٣- التكذيب بالرسل عادة الأمم السابقة إلا من رحمه الله.

٤- عقاب المكذبين بالرسل، هو سنة الله الجارية فيهم، وفي هذا تهديد ووعيد لكل من أتى بعدهم.

تفسير المقطع الثاني من سورة ق

﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ١٦ إِذۡ
يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ ١٧ مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ١٨ وَجَآءَتۡ
سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ ١٩ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ ٢٠ وَجَآءَتۡ كُلُّ
نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ ٢١ لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ
٢٢ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ٢٣ أَلۡقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٖ ٢٤ مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٖ مُّرِيبٍ
٢٥ ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلۡقِيَاهُ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ٢٦ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطۡغَيۡتُهُۥ
وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلِۢ بَعِيدٖ ٢٧ قَالَ لَا تَخۡتَصِمُواْ لَدَيَّ وَقَدۡ قَدَّمۡتُ إِلَيۡكُم بِٱلۡوَعِيدِ ٢٨ مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ
لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ٢٩ يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٖ ٣٠ وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ
لِلۡمُتَّقِينَ غَيۡرَ بَعِيدٍ ٣١ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٖ ٣٢ مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ وَجَآءَ بِقَلۡبٖ
مُّنِيبٍ ٣٣ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٖۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ ٣٤ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ ٣٥﴾.

قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ﴾، هذا إخبار من الله تعالى أنه خلق الإنسان، وهو هنا اسم جنس، يشمل كل الناس، وبيّن أن علمه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ محيط بكل شيء، حتى إنه يعلم وساوس النفس، وهي الخواطر التي تدور داخل النفس الإنسانية، وهي من أخفى الأمور، وغالبًا

الوسوسة تطلق على الشر، وهو الأمر الذي يفكر به الإنسان، ويحدّث به نفسه سراً من فعل الشر، فهذا يسمى الوسواس، وهو من فعل النفس الأمارة بالسوء، ومن فعل الشيطان، وقد أمرنا بالاستعاذة منه، وفي هذا إشارة إلى ضرورة العناية بإصلاح النفس، فإنها إذا فسدت؛ وسوست لصاحبها بفعل الشر.

وقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ۝١٦﴾، **أي:** وملائكتنا أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه[1]، **وقيل:** إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه[2]، **والمقصود** قرب علم وإحاطة، لإن الله مستوٍ على عرشه، بائن عن خلقه، والقول الأول أرجح لسياق الآيات بعده.

وحبل الوريد، هو: الحبل الذي يصل القلب بالدماغ[3]، وهو أقرب ما يكون إلى رقبة الإنسان، **وقيل:** هو حبل العاتق، وهو ممتد من ناحية حلقه إلى عاتقه[4]، وهما وريدان عن يمين وشمال، يتصلان بالدماغ، والمعنى: ونحن أعلم بما توسوس به نفسه من حبل وريده الذي هو من نفسه، فعلم الرب أقرب إليه من وريده.

ثم قال سبحانه: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝١٧﴾، **المتلقيان:**

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير: (٧/ ٣٧١) وتفسير العثيمين: (٨٩).

(٢) ينظر: جامع البيان: (٢٢/ ٣٤٢)، وتفسير السمرقندي: (٣/ ٣٣٤)، تفسير البيضاوي (٥/ ١٤١).

(٣) ينظر: تفسير السمرقندي (٣/ ٣٣٤)، والدر المنثور في التفسير بالمأثور (٧/ ٥٩٢).

(٤) ينظر: الجامع لأحكام القرآن (١٧/ ٩).

ملكان؛ ملك يتلقى الحسنات ويكتبها، وملك يتلقى السيئات ويكتبها، ملك الحسنات على اليمين، وملك السيئات على الشمال، **وقعيد:** بمعنى قاعد متربص متهيء منتبه لا يغفل أو ينسى أو يغيب عن هذا الإنسان.

وقوله: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾، **أي:** أن هذا التلقي يحصل من الملكين عندما يتلفظ الإنسان باللفظة، أو يعمل العمل، ويدخل فيه أيضًا الاعتقاد، لأن الأعمال اعتقادات بالقلب، وتلفظ باللسان، وعمل بالجوارح، إلا أن الملك لا يكتب خواطر النفس حتى يعزم صاحبها عليها، وهذا من التخفيف الذي منَّ الله به على هذه الأمة، وكان مؤاخذاً عليه من قبلنا(١)، والضمير في (لديه) عائد إلى الإنسان **أي:** عند صدور اللفظ أو العمل منه، فالملك يرقبه ويضبطه، والرقيب والعتيد وصفان للملكين؛ لأن بعض الناس يظن أن رقيب اسم ملك الحسنات، وعتيد اسم ملك السيئات، وهو ظن لا دليل عليه، بل رقيب من الرقابة، يرقب ويتربص، **وعتيد: أي:** الحاضر(٢) المهيأ الذي يحفظ ويسجل.

ثم قال سبحانه: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ﴾، وجاءت هذا الإنسان الغافل البعيد عن الله، والمعرض عن أمره وهديه وشرعه، جاءته شدة الموت، وهي ما يحصل للإنسان من ألم ومشقة عند نزع روحه، **وفي الحديث:** **"سبحان الله إن للموت لسكرات"**(٣)، **أي:** شدة تكاد تذهب بالعقل من شدتها، بل من شدة

---

(١) ينظر: صحيح البخاري (٦/ ٣٣)، برقم: (٤٥٤٦).

(٢) ينظر: العين (٢/ ٢٩).

(٣) أخرجه البخاري: (٦/ ١٣) رقم (٤٤٤٩).

الألم قد يفقد الإنسان الوعي ويغمى عليه، ولو أمكن للناس أن يطلعوا على ما يجده الميت من سكرات الموت؛ لكرهوا الحياة، ولكن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أخفى ذلك عليهم.

وقوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ **أي:** وأحضرت سكرة الموت حقيقة الأمر أو الموعود الحق، أو الحق الذي ينبغي أن يكون من الموت أو الجزاء.

وفي قراءة ابن مسعود وغيره: ﴿وجاءت سكرة الحق بالموت﴾[(١)]، **وقال أبو بكر الصديق** لما أفاق من سكرته وحدث ابنته عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: وجاءت سكرة الحق بالموت[(٢)]، **أي:** جاء الموت مع هذه السكرة، يعني الموت قادم بالحق، وهذه السكرة بداية علاماته.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ١٩﴾، **أي:** ذلك الموت الذي كنت منه تهرب وتنفر، وهذا هو حال الإنسان الغافل الذي يحاول ألا يتذكر الموت، بل بعضهم يغضب إن ذكّر به، بخلاف المؤمن فإنه دائمًا يذكر الموت ويستعد له.

ثم قال سبحانه: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ٢٠﴾، والمقصود بالنفخة هنا الثانية وهي نفخة البعث، واعتبر موت هذا الإنسان بمثابة النفخة الأولى، لأن الخطاب هنا موجّه إليه، فهذا هو يوم الحشر الموعودون به، وهو يوم القيامة، وقد تحقق وقوعه.

---

(١) ينظر: جامع البيان (٢٢/ ٣٤٧)، والمحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥/ ١٤٣).

(٢) ينظر: جامع البيان (٢٢/ ٣٤٦).

وقولــه: ﴿وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ ٢١﴾، **أي:** وجـاءت كـل نفـس منفوسة، كانت قد ماتت، ثم بعثت وحشرت، ومعها ملك يسوقها إلى المحشر، وشهيد يشهد عليها، والشهيد **قيل:** هو عمل الإنسان[(١)]، **وقيل:** ملك وهو الرقيب الذي كان يراقب أعماله[(٢)]، **وقيل:** هو جوارح العبد[(٣)]، وهذا كله من التفسير بالمثال، والراجح أن الشهيد وصف لمن يشهد على الإنسان، سواء كان الملك لأنه سيسأل، أو للأعمال لأنها ستشهد، أو للجوارح لأنها ستنطق.

ثم يُخاطب هذا الميت بعد هذه المراحل كلها، بقوله: ﴿لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ ٢٢﴾، لقد كنت غافلاً عن البعث والحساب والوقوف بين يدي رب الأرباب، وهو خطاب تقريع وتأنيب لمن لم يؤمن بالبعث والنشور، وهم أغلب الكفار والمشركين، فكشفنا عنك غطاء الغفلة الذي كان عليك في الدنيا، فقد كنت غافلاً عن الآخرة والبعث والنشور، أما اليوم فبصرك قوي وحاد، تدقق في كل شيء لعلك تجد حسنة، حالك كمثل الذي ضاع عليه شيء فهو يبحث عنه بدقة لعله أن يجده.

وقوله: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ٢٣﴾، وقد ذكرت السورة قرينين، القرين الأول: المذكور في هذه الآية وهو: الملك الذي يسوقه، وكان يكتب عليه الحسنات والسيئات، فيقول عند محاسبة الله للعبد: هذا ما عندي من أعماله،

(١) ينظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٠/ ٣٣٠٨)، وتفسير ابن كثير (٧/ ٣٧٥).

(٢) ينظر: جامع البيان (٢٢/ ٣٤٨).

(٣) ينظر: جامع البيان (٢٢/ ٣٤٩)، وتفسير السمرقندي (٣/ ٣٣٥)،وتفسير البغوي(٧/ ٣٦٠).

مضبوطة غير ناقصة، قد حصرتها عليه، فيعرضها في صحائف أعماله وينشرها يوم القيامة؛ ليحاسب عليها.

ثم يكون الخطاب من الله للملكين: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾﴾، **أي:** من هذا وصفه فليُلقى في جهنم، بسبب كثرة كفره وجحوده، وبسبب معاندته للرسل، وعدم اتباعه للحق، وفيه إشارة إلى خطورة العناد فهو صفة سيئة تمنع صاحبها من قبول الحق، فلا تكن معانداً، بل إذا اتضح لك الحق والصواب فاقبله، وارجع عن رأيك.

وقوله: ﴿مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ ﴿٢٥﴾﴾، **أي:** كان لا يؤدي ما عليه من الحقوق، ومنّاع صيغة مبالغة تفيد شدة المنع، بحيث أنه يمنع كل خير يمر به، كما جاء في الحديث: "**إن من الناس من جعله الله مغاليق للخير**"[(١)]، فلا يريد للخير أن يصل إلى الناس، **وقيل:** الخير المال[(٢)]، **بمعنى:** يمنع كل حق وجب لله، أو لآدمي في ماله: وهو متجاوز للحد في حقوق الآخرين، سواء بلسانه أو بفعله أو باعتقاده، وشاك في وحدانية الله وقدرته، وشاك بالإيمان والبعث والنشور.

وقوله: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾﴾، **أي:** ومن صفاته أنه أشرك بالله، وعبد غير الله، واتخذ إلهـًا من دون الله؛ فمن هذه أوصافه، فليُق في العذاب الشديد، وهذا يفيد أن إلقائه الأول كان في عموم جهنم، وأن

---

(١) أخرجه ابن ماجه: (١/ ٨٦) رقم (٢٣٧)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع: (١/ ٤٤٢) رقم (٢٢٢٣).

(٢) ينظر: جامع البيان (٢٢/ ٣٥٦).

إلقائه الثاني كان في خضم العذاب الشديد الذي يستحقه.

وقوله: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطۡغَيۡتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ٢٧﴾، وهذا هو القرين الثاني، والمقصود به شيطانه الذي وكّل به، حيث يتبرأ منه يوم القيامة، وينكر أنه كان سبباً في ضلاله وانحرافه، بل يقول: إنه كان هو في نفسه ضالاً قابلاً للباطل معانداً للحق، وهذا تهرُّبٌ من الشيطان وتخلٍ عن مسؤوليته في إضلال البشرية يوم القيامة، مع أنه قد أقسم لربه حينما طرده من الجنة وأهبطه إلى الأرض أن يقعد لهم كل مرصد، ويدعوهم إلى الضلال بكل وسائله من الوسوسة والتزيين للباطل ونحوها، ووصف الضلال بالبعيد؛ لأنه مكث فيه فترة طويلة وهو بعيد عن الله وشرعه وهديه.

وقوله: ﴿قَالَ لَا تَخۡتَصِمُواْ لَدَيَّ وَقَدۡ قَدَّمۡتُ إِلَيۡكُم بِٱلۡوَعِيدِ ٢٨﴾، **أي:** فلما وقع الخصام بين الشيطان وقرينه، رد الله عليهما: لا تختصموا أيها القرناء لدي، وقد أنذرتكم هذا الموقف عن طريق الرسل والأنبياء والكتب، ومنحتكم قلوباً وأسماعاً وأبصاراً؛ لكي تعرفوا الحق فتتبعوه، فلا حجة لكم عندي اليوم ولا عذر.

ثم قال: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ﴾، **أي:** أن حكم الله فيهم ماضٍ، **وللمفسرين في معنى القول هنا قولان، الأول**(١): أنَّ الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ لا يبدل حكمه في هؤلاء وأن مصيرهم إلى النار، كما في قوله: ﴿أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ ١٩﴾[الزمر: ١٩].

---

(١) ينظر: جامع البيان: (٢٢/ ٣٥٩)، وتفسير الثعلبي: (٩/ ١٠٢)، وتفسير ابن كثير: (٧/ ٣٧٧).

والثاني[(١)]: أنَّ القول إنما يبدل عند من يجهل واقع الحال، ويتغير حكمه بسبب اللحن في القول والحجاج من صاحبه، وهذا إنما يكون في حق البشر، أما الله سبحانه فعلمه أزلي فلا يتغير حكمه، ولا تعارض بين القولين، فالثاني سبب للأول.

وقوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ٢٩﴾، تنزيه وتزكية لحكمه، وإثبات لكمال عدله في خلقه، **أي**: ما فعلناه فيك إنما هو عدل لا يوجد فيه ظلم، فهو بناء على ما رصدته الملائكة عليك، وما شهدت به عليك جوارحك.

وقوله: ﴿يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٖ ٣٠﴾، في يوم القيامة وبعد أن يقذف في النار كل الكفار؛ يخاطب الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ جهنم ويقول لها: هل امتلأت بأهلك؟ لما سبق من وعده إياها بأنه يملؤها من الجنَّة والناس أجمعين، فتقول: هل بقي شيء تزيدوني؟، **وفي الحديث**: **"يلقى في النار، وتقول: هل من مزيد، حتى يضع قدمه فيها، فتقول قط، قط"**، والسبب أن النار لا تمتلئ مما يلقى فيها؛ لأن النار لا تزال تأكل وتلتهم ما ألقي فيها.!!

وقوله: ﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ غَيۡرَ بَعِيدٍ ٣١﴾، **أي**: أُدنيت الجنة وقربت من المتقين، وقوله: غير بعيد، توكيد للإزلاف وهو التقريب، سواء كان بضم المسافة بينها وبين الناس حتى يقتربوا منها، أو بتجهيزها وتهيئتها وتكون قريبة منهم حتى لا يكون عليهم مشقة في السفر إليها.

---

(١) ينظر: تفسير الألوسي: (١٣/ ٣٣٧).

وقوله: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾﴾، الخطاب للمتقين، والأواب: الرجَّاع إلى الله كثير التوبة والرجوع، والحفيظ: الذي يحافظ على فرائض الله وواجباته وأحكامه، كقوله في الحديث: "**احفظ الله يحفظك**"(١).

ثم ذكر بعض صفات هذا الأواب، فقال: ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾﴾، **أي:** من خاف الله في سره حيث لا يراه أحد إلا الله، أو أنه يخشاه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بمجرد أن يذكَّر به، ولقي الله يوم القيامة بقلب كثير الرجوع والإنابة إليه.

وقوله: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾﴾، الخطاب للمتقين بدخول الجنة سالمين من الأذى والعذاب، أو مصحوبين بتحية الإسلام، وهي السلام، ولا مانع منهما معًا، فالجنة تسمى دار السلام، فإذا دخلوا الجنة فلن يخرجوا منها بل يخلدون فيها أحياء منعمين أبد الآبدين.

وقوله: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾، ويمنح الله أهل الجنة في الجنة ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، ولهم مزيد من النعيم مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر(٢)، ثم يحل عليهم رضوانه، ويمنحهم النظر إلى وجهه الكريم فيعيشون في حلل الكرامة وينعمون برؤية الله ورضوانه، نسأل الله أن يجعلنا وإياكم من أهلها.

---

(١) أخرجه الترمذي: (٤/ ٦٦٧) رقم (٢٥١٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع: (٢/ ١٣١٨) رقم (٧٩٥٧).

(٢) أخرجه البخاري: (٤/ ١١٨)، رقم (٢٣٤٤)، ومسلم: (٤/ ٢١٧٤)، رقم (٢٨٢٤).

فوائد وهدايات من هذه الآيات:

١ - إحاطة علم الله تعالى بما يخطر في نفوس البشر من خير أو شر.

٢ - خطورة صفة العناد، وأنها سبب من أسباب الضلال ورد الحق.

٣- لكل إنسان قرينان؛ أحدهما من الملائكة، والآخر من الشياطين.

٤ - أن العدل اسم من أسماء الله فلا يظلم سبحانه أحداً.

٥ - أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يكرم أهل رضوانه بجناته ومزيد من رحمته وفضله.

تفسير المقطع الثالث من سورة ق

﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هُمۡ أَشَدُّ مِنۡهُم بَطۡشٗا فَنَقَّبُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ هَلۡ مِن
مَّحِيصٍ ٣٦ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ ٣٧
وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٖ
٣٨ فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ ٣٩
وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ٤٠ وَٱسۡتَمِعۡ يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ ٤١ يَوۡمَ
يَسۡمَعُونَ ٱلصَّيۡحَةَ بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُرُوجِ ٤٢ إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيۡنَا ٱلۡمَصِيرُ ٤٣
يَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلۡأَرۡضُ عَنۡهُمۡ سِرَاعٗاۚ ذَٰلِكَ حَشۡرٌ عَلَيۡنَا يَسِيرٞ ٤٤ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَۖ وَمَآ أَنتَ
عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ٤٥﴾.

قول الله تعالى: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ﴾، هذا الخطاب موجّه لكفار قريش الذين كان النبي ﷺ يخاطبهم بالدعوة ويبيّن لهم الحجج والبراهين؛ لعلهم يؤمنون، وكم هنا خبرية والمقصود بها الاستكثار، **أي:** ما أكثر الأمم التي أهلكناها قبل قوم قريش.

والقرن: هو الأمة أو الجيل من الناس الذين عاشوا في زمن محدد، **وقيل:** القرن مائة سنة، لأنه غالبًا يعيش في كل مائة سنة جيل، وهذا ممكن في هذه الأمة لأن

أعمارها ما بين السبعين إلى الثمانين، لكن يشكل هذا التعريف على الأمم السابقة فقد كانت أعمارهم كبيرة، كما في قوم نوح، فنوح نفسه مكث في دعوة قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا، فيكون تفسير القرن هنا بالجيل أضبط[(١)]، والله أعلم.

ثم وصف الله تعالى الذين أهلكهم بقوله: ﴿هُمۡ أَشَدُّ مِنۡهُم بَطۡشٗا﴾، **أي:** هم أشد من قريش من حيث البطش والجبروت، وذلك لما كانوا يمتلكونه من القوة، وهذا تعريض وتهديد لقريش، وتسلية للنبي محمد ﷺ.

وقوله: ﴿فَنَقَّبُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾، **أي:** أنهم كانوا أصحاب قوة وشدة حتى إنهم كانوا ينقّبون الجبل، ويخرقونه ويبنون فيه بيوتًا لهم، فهل منعتهم بيوتهم الحصينة أو قوتهم الشديدة من الهلاك ؟!، ولذا قال: ﴿هَلۡ مِن مَّحِيصٍ ٣٦﴾، **أي:** فهل من مهرب وفرار من عذاب الله وبطشه؟!.

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ﴾، اسم الإشارة (ذلك): يعود: إما إلى الهلاك الذي حصل للأقوام[(٢)]، ففيه ذكرى وعظة وعبرة للأحياء؛ حتى يرجعوا ويتوبوا ويؤمنوا، وإما أن يعود إلى ما سبق ذكره من عذاب أهل النار، وفوز أهل الجنة بالنعيم الذي سبق ذكره في الآيات التي قبلها[(٣)].

ويمكن أن يحتمل القولين وغيرها مما احتوته السورة، ففيها كلها عظة وعبرة[(٤)].

---

(١) ينظر: مفاتيح الغيب (١٢/ ٤٨٤)،وتفسير ابن كثير (٦/ ١٠٢).

(٢) ينظر: جامع البيان (٢٢/ ٣٧٢) وتفسير السمرقندي (٣/ ٣٣٨) و تفسير ابن كثير (٧/ ٣٨٢).

(٣) ينظر: مفاتيح الغيب: (٢٨/ ١٥٠).

(٤) ينظر: تفسير البيضاوي (٥/ ١٤٤).

وقوله: ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ﴾، **أي:** قلب حاضر، أو قلب واعٍ، أو قلب يفهم ويفقه، فلا بد من تقدير وصف هنا محذوف يُفهم من السياق، لأن الناس كلهم معهم قلوب، ولكن بعض هذه القلوب غير حاضرة، أو غير مستخدمة استخداماً صحيحاً من قبل أصحابها، كما في قوله: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا﴾[الأعراف:١٧٩].

وقوله: ﴿أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ ٣٧﴾، **ألقى:** بمعنى هيّأ آلة السمع للاستفادة منها، واستخدمها استخداماً صحيحاً، لتستوعب ما تسمع، **أي:** سمع وأنصت باتعاظ.

وشهيد: بمعنى حاضر بقلبه وكل جوارحه، يسمع وينصت ويستوعب.

ثم قال سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ﴾، هذا إخبار من الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ عن قدرته العظيمة في خلق السموات والأرض وما بينهما وما فيهما من سائر المخلوقات في ستة أيام، مع قدرته سبحانه على أن يخلقها في لحظة؛ فإنه يقول للشيء كن فيكون، ولكن خلقها في ستة أيام لحكمة، وحتى يتعظ الناس بذلك، ويكون لعنصر الزمن أهمية في نجاح مشاريعهم دون استعجال.

وقد اختلف العلماء في تحديد الستة الأيام على قولين، القول الأول(١): أنها أيام في علم الله تعالى لا يُدرى كم مقدارها وزمنها، وهي بالعدد ستة.

---

(١) ينظر: جامع البيان (١٢/ ٤٨٢)، ومفاتيح الغيب (٢٨/ ١٥١).

القول الثاني[١]: أن الله تعالى خاطب العرب بما يعقلون، وهم لا يعقلون إلا الأيام المعلومة لهم، اليوم وهو أربع وعشرون ساعة.

واستُشكل هذا القول بأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يتحدث عن ستة أيام قبل أن يخلق السموات والأرض، وقبل أن توجد الأيام الموجودة اليوم، لأنها ناتجة عن دوران الشمس والقمر، ولم تكن الشمس ولا القمر موجودة آنذاك.

والجواب: بأن معناه أنه مضى من المدة ما لو حصل هناك فلك وشمس؛ لكان المقدار مقدار اليوم، **والراجح هو القول الثاني**، بناءً على قاعدة: أن الله يخاطب الناس بما هو معهود من لغة العرب.

وقوله: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٖ ٣٨﴾، هذا ردٌ على من قال أن الله تعب من الخلق، وهم اليهود الذين يقولون: إن الله خلق الخلق من الأحد إلى يوم الجمعة؛ فتعب فاستراح يوم السبت[٢]، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

ثم أوصى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ رسوله ﷺ بالصبر على أذيتهم وبهتانهم، فقال: ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾، فاصبر يا محمد على ما يقوله الكفار واليهود والمنافقون وسائر المكذبين من أقوال لا تليق بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، واصبر على ما تسمعه منهم، كقولهم: ساحر وكاهن وكاذب ونحوها، ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ ٣٩﴾، واستعن على الصبر عليهم بالتسبيح،

---

(١) ينظر: السراج المنير، للشربيني.(٣/ ٥٠٩).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره: (٣/ ٢٣٣)، وابن جرير الطبري في جامع البيان: (٢٢/ ٣٧٦)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٥٤٣)، **وقال**: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

قيل[1]: التسبيح المقصود به هنا الصلاة، **أي**: صل مصطحبًا حمد ربك في صلاتك قبل طلوع الشمس وهذا وقت الفجر، وقبل الغروب وهذا وقت العصر وقيل وقت الظهر والعصر.

﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ﴾ وهذا وقت المغرب والعشاء، وفي هذا إشارات إلى أوقات الصلوات الخمس.

وقيل[2]: إن التسبيح محمول على ظاهره، وهو قرين التحميد، أو على الصلاة.

وقوله: ﴿وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ٤٠﴾ **أي**: وبعد صلاتك سبح، والمقصود بالتسبيح صلاة النوافل البعدية[3]، ولا مانع أن يكون المقصود بالتسبيح أيضًا ذكر الله بعد الصلاة، **أي**: قل: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، فإنه يطلق عليه تسبيح، وعلى كلا المعنين فالصلاة والذكر مما يستعان به على تحمل مشاق الدعوة، ودفع أذية العدو.

ثم قال الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱسۡتَمِعۡ يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ﴾، **أي**: انتظر زمنَ أو وقتَ ينادي فيه المنادي وهو إسرافيل حينما ينفخ في الصور، والخطاب هنا لرسول الله ﷺ، أو لكل مستمع من البشر من الأحياء ينتظر القيامة.

---

(١) ينظر: جامع البيان (٢٢/ ٣٧٧) وتفسير البغوي (٧/ ٣٦٤)، وتفسير ابن كثير (٧/ ٣٨٢)، وتفسير القرطبي (١٧/ ٢٤)، وفتح القدير (٥/ ٩٥).

(٢) ينظر: الكشاف: (٤/ ٣٩٢)، وتفسير القاسمي: (٩/ ٣١).

(٣) ينظر: جامع البيان (٢٢/ ٣٨٠).

وقوله: ﴿مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۝٤١﴾، قيل[١]: هو صخرة بيت المقدس، وقيل[٢]: إشارة إلى أن الصوت لا يخفى بل يستوي في استماعه كل أحد، وقيل[٣]: من تحت أقدامهم، والذي يظهر لي أن القول الأول ممكن لو فسرنا الصيحة بالصيحة الأولى، وهي صيحة الصعق، أما إن كان المقصود بها صيحة الحشر؛ فالقول الثاني هو الأقرب.

وقوله: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ﴾، أي: يوم المناداة هو يوم سماع الصيحة، التي أتى بها الحق سبحانه، أو تأتي بالحق الذي كانوا ينكرونه، وهو البعث والنشور.

﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ۝٤٢﴾، أي: ذلك اليوم الذي تتم فيه الصيحة هو يوم البعث والنشور وخروج الناس من القبور إلى أرض المحشر.

وقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ۝٤٣﴾، أخبر الله عن نفسه بنون العظمة أنه يحيي الميت، ويميت الحي، وأن المرجع والمآب إليه سبحانه، فإن الناس كلهم يحشرون ويرجعون إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا إلى غيره!.

ثم قال: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ۝٤٤﴾، ويوم النداء هو يوم سماع الصيحة، وهو يوم الخروج، وهو يوم تشقق الأرض، كلها

---

(١) ينظر: جامع البيان (٢٢/ ٣٨٢)، وتفسير السمرقندي (٣/ ٣٣٩)، وتفسير ابن كثير (٧/ ٣٨٤).

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب (٢٨/ ١٥٥)، وتفسير الماوردي (٥/ ٣٥٨).

(٣) ينظر: الكشاف (٤/ ٣٩٣).

تتم في يوم واحد، وهو يوم البعث والنشور، حيث تشقق الأرض عن الموتى، كما تشقق الأرض عن النبات؛ فيخرجون مسرعين في حركتهم، وذلك الحشر على الله سهل لا مشقة فيه، وفي هذا رد على كفار قريش الذين كانوا يستبعدون البعث والنشور.

وقوله: ﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾، هذه صيغة تهديد ووعيد للمكذبين الذين كذبوا الرسل، فالله مطلع على حالهم ويعلم أقوالهم، وفيه نوع من التسلية للرسول ﷺ، والمعنى: اتركهم يا محمد وما يقولون، فنحن نعلمه، ونحن من سيعاقبهم عليه.

وقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖ﴾، هذا خطاب للرسول ﷺ، **أي**: لست من يجبرهم على الهداية والإيمان، كما في قوله: ﴿لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ٢٢﴾ [الغاشية:٢٢]، فإن الهداية بيد الله، كما قال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ٥٦﴾[القصص:٥٦]، وهذه الآيات كانت قبل نزول فرض الجهاد بالسيف، وذلك حتى يُجمع بينها وبين آيات الجهاد، فإن الله بعد ذلك أمره بمجاهدة المشركين والغلظة عليهم ودفعهم إلى الإيمان، وفتح الطريق لمن أراد أن يؤمن من الناس، ومع هذا يبقى هذا الحكم عامًا في كل أحوال الضعف عند المسلمين، بحيث يعرض على الناس الإسلام ويذكّروا بالقرآن، ويصبر الداعية على أذاهم، بسبب عدم القدرة على رد هذا الأذى.

قوله: ﴿فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ٤٥﴾، هذا بيان لمهمته ﷺ، ذكّر

الناس بما في القرآن من أحكام، وذكّر الناس بمواعظ القرآن، فالقرآن وسيلة للتذكرة، والذي سيتذكر؛ هم البقية الباقية ممن عندهم خوف من وعيد الله سبحانه، أما من لم يؤمن بالله ولا يخاف وعيده، وأعرض عن ذلك، فمهما ذكّرته بالقرآن وبغير القرآن؛ فلن يتأثر.

فوائد وهدايات من هذه الآيات:

١- الاعتبار بوقائع التأريخ من شأن ذوي القلوب الواعية، والتأريخ مليء بالأحداث، ومن يقرأ التأريخ يتعظ ويعتبر.

٢- خلق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الكون في ستة أيام مجملة يعلمها الله لحكمة، ومن هذه الحكمة سنة التدرج واعتبار الزمن عنصراً مهماً.

٣- سوء أدب اليهود في وصفهم لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بأنه تعب، وهذا والعياذ بالله كفر، فكل من يستهزئ بالله أو يصف الله بشيء من صفات المخلوقين على سبيل الاستهزاء فهو كافر والعياذ بالله.

٤- أن الواجب على العبد أن يستعين بالصبر والصلاة والذكر في أوقاته كلها؛ حتى يستطيع أن يتحمل مشاق تكاليف هذا الدين وأذية الكفار له.

فهرس المحتويات